د. صادق عبده علي قائد



الهوية السياسية والحضارية لليمن

في التاريخ القديم وعصر الإسلام

دراسة في تطور الهوية السياسية والحضارية في اليمن منذ العصور القديمة وحتى أواخر العصور الوسطى





إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

الهوية السياسية والحضارية

لليمن في التاريخ القديم وعصر الإسلام

دراسة في تطور الهوية السياسية
والحضارية في اليمن منذ العصور القديمة
وحتى أواخر العصور الوسطى

د. صادق عبده علي قائد

الجزء الأول



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

لوحة الغلاف: للفنان هاني الأغبري

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

(٢٠٠٤/١٧٢)

الناشر

الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء الحصبة - ص.ب. (36)-(237)

هاتف: 235114 - فاكس: 235113

بريد الكتروني: moc@y.net.ye

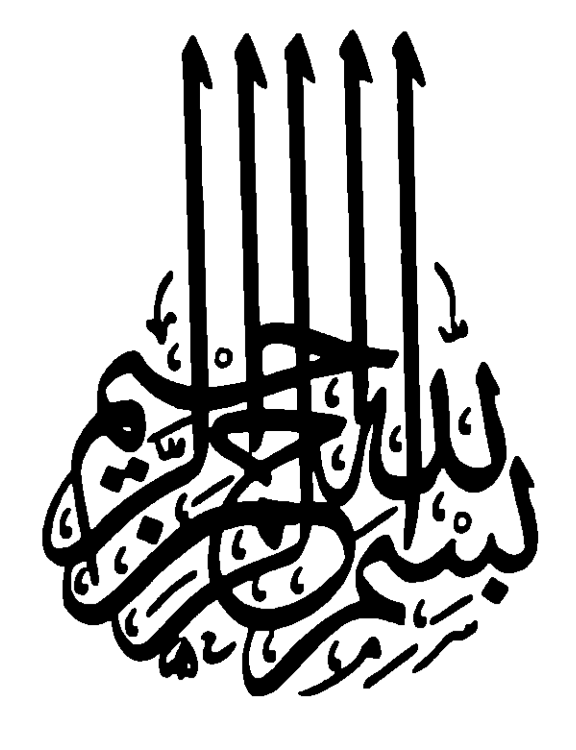
من بهاء صنعاءَ... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.

في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..

وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة



إهـــداء

إلى ابني خالد. . .

مع خالص حبي. .

وأمنياتي له

بالتوفيق والنجاح. . .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران الآية : 26]

المُقَدّمة

يُعد مشروع هذه الدراسة إلى فترة زمنية طويلة عندما أخذت جملة من التساؤلات، تفرض نفسها علينا، وتنغص حياتنا في ظل واقع تغلب عليه العصبية القبلية من جهة، والهوية المذهبية من جهة أخرى، ولعل أهمها في اعتقادنا!! في أي حقبة تاريخية يمكننا الحديث عن تطور الهوية الوطنية في اليمن؟.. وهل الحضارة اليمنية القديمة التي تمايزت بعراقتها وعظمتها، والتي أسسها أجدادنا القدماء، لم تكن سوى حضارة قبلية، تجد انعكاساً لها في ظل واقعنا المعاصر؟؟ وهل تمكن الدين الإسلامي الحنيف بمبادئه السمحة، وشريعته الغراء من إحداث شرخ عظيم في بنية القبلية التي كانت تسود حياتها في مجتمع ما قبل الإسلام؟! وإذا كان الأمر كذلك كيف يمكننا تفنيد الصراعات السياسية التي شهدتها اليمن فيما بين 204 ـ 858هـ/ 819 ـ 1454م، تحت شعارات قبلية ومذهبية، دمرت أثناءها البنية التحتية، وأكلت الأخضر واليابس فيها، فضلا عن طابع المناهضة السياسية للاحتلال العثماني ما بين 1538 ـ 1636م، 1872 ـ 1918م، والذي اتسم هو أيضاً بالصبغة القبلية والمذهبية.

هذه التساؤلات وغيرها حاولنا الإجابة عليها في بحثنا المتواضع، على أمل أن نتمكن من المساهمة في دراسة واقعنا لتلك الحقبة التاريخية، وبالتالي إلقاء الضوء على واقعنا المعاصر الذي يشهد متغيرات دولية جديدة في ظل العولمة الأمريكية على العالم.

إن نسخة البحث التي بين أيدينا تم إعدادها في بادئ الأمر كحلقات برامجية لتقديمها في إذاعة وتلفزيون عدن، استمرت مابين عام 1988 ـ 1989م، تحت اسم شخصيات تاريخية يمنية. وبعد تنقيحها وتطويرها على هذا النحو، قمت بنشر فصول عدة منها في المجلات العلمية والثقافية داخل جامعة عدن وخارجها.

وعلى الرغم من ذلك لم أفكر في تجميع هذه الدراسة، ونشرها في كتاب مستقل إلاّ بعد استكمال موضوعاتها الأخرى، خاصة بعد الاستفادة من فرصة زيارة القاهرة مؤخراً في مهمة علمية من قبل الجامعة، تم خلالها شراء وتصوير

عدد كبير من المصادر والمراجع التي تم الاستفادة منها في تحقيق هذا المشروع العلمي الذي ظل حلماً يراودني منذ سنوات طويلة.

وعليه تشتمل هذه الدراسة على فصلٍ تمهيدي، وبابين، قسّم كل بابٍ منهما إلى عدة فصول.

وبعد هذا الاستعراض السريع لفكرة البحث يمكننا القول، أن الكتابة حول موضوع الهوية السياسية والحضارية في اليمن في تاريخ الحضارة القديمة وعصر الإسلام، يرتبط ارتباطاً عضوياً بالكتابة عن تاريخ تلك المرحلة من مختلف الجوانب سواء كانت اقتصادية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو ثقافية، أو دينية، حتى نستطيع إبراز معالم ذلك النضال الشعبي، الذي قادته الجماهير اليمنية حتى نتمكن من المحافظة على سلامة الوطن إبان الغزو الحبشي ـ الفارسي على المنطقة اليمنية، كما كانت حركة الردة في صدر الإسلام ماهي إلا رداً لرغبتها في التخلص من الأعباء السياسية والاقتصادية التي وجدت نفسها تعانيها، في ظل أوضاع جديدة، لم تستطع وقتها سبر أغوارها الحقيقية.

ومن المعروف أن الحركات السياسية والاجتماعية في اليمن في تلك الآونة، قد اختلفت ماهيتها في التاريخ القديم عنها في عصر الإسلام، حيث تحولت حركة المقاومة الوطنية في التاريخ القديم من أجل نيل الحرية، التي تميز اليمنيون بعشقها، بل وبحب استقلالهم عن النفوذ الأجنبي، مما دفعنا لدراسة واقع المناهضة الشعبية للنفوذ الحبشي ـ الفارسي في اليمن.

بيد أننا أثناء بحثنا المتواصل في بطون الكتب والمراجع بدأنا ندرك أن تاريخنا لهذه المرحلة، لا يزال يعاني من الإهمال والقصور، وما وجدناه كان في الحقيقة عبارة عن إشارات متناثرة، كما تمايزت المعلومات الواردة في ثنايا تلك المصادر والمراجع بالتناقض، حتى في القضايا العمومية، ليس هذا فحسب بل لاحظنا أن هناك جهلاً واضحاً للعيان بحقيقة تلك الظروف التي واكبت انطلاقة المقاومة الشعبية في التاريخ القديم، وما يرتبط بحياة الناس في ذلك العهد السحيق. مما اضطرنا إلى إيراد بعض المقتطفات المتناقضة التي حفلت بها نصوص تلك المراجع والكتب، وقد قمنا من جانبنا في إيضاح رأينا في تقريب الحقيقة إلى ذهن القارئ، ما أمكننا إلى ذلك سبيلا.

لكن هذه الإشكالية ظلت تلازمنا أثناء البحث في تاريخ الحركات السياسية في صدر الإسلام، غير أن ذلك لم يمنعنا من الاستمرار في البحث لتلك

المرحلة، حتى نتمكن من المساهمة في إجلاء الغموض عن واقع تلك الحركات، رغم حساسية هذا الموضوع وارتباطه بالحياة الدينية، بما لها من تأثير على عواطف الناس.

وبالرغم من كل هذا، فقد كان لابد من الخوض في غمار هذا الموضوع، الذي تناولته الأقلام المختلفة من منطلقات شتّى؛ قومية كانت أو ماركسية أو من خلال منظور سلفي بحت قائم على أساس أنها حركات ارتدادية عن الإسلام فقط، دون النظر إلى الأبعاد الاجتماعية ـ الاقتصادية التي أدت إلى قيام تلك الحركات في صدر الإسلام، لهذا كانت مهمتنا الأساسية في الكتابة عن هذا الموضوع هي استقصاء الحقائق ورصدها دونما إسهاب، بهدف دراستها علمياً على ضوء منهج أكاديمي يجمع بين السرد والتحليل والتركيب.

وقد تم العودة للمصادر والمراجع؛ بل ومختلف الدراسات المنشورة في المجلات العلمية والثقافية، التي تناولت واقع تلك الحركات السياسية، أو خاضت في سيرة أبطالها المعروفين سواء في الجانب السياسي أو ما يتعلق بحياتهم الأدبية، خاصة وأنهم تركوا لنا دواوين كثيرة من الأشعار، جسدوا خلالها مواقفهم في مختلف المراحل.

ولا يسعنا في هذا الخصوص إلاّ أن نؤكد بأن المصادر والمراجع فضلا عن الدراسات التي عدنا إليها في المجلات العلمية والثقافية، كان لها دور كبير في بلورة أفكارنا وتقييمنا لهذه الحركات، لأنها فتحت أمامنا طريقاً جديداً ورؤية جديدة تمكنا من خلالها النفاذ بصبر وتأني في مسببات تلك الحركات وما ارتبط بها من عوامل، كان لها أبلغ الأثر في اشتداد حدة المقاومة اليمنية في التاريخ القديم والإسلامي، لكونها نتاجاً لتلك السياسة غير الموضوعية، التي قامت بتطبيقها سلطة الدولة العربية الإسلامية في ـ المدينة ودمشق وبغداد ـ على المنطقة اليمنية.

وتوقفنا طويلا في عصر الإسلام لما فيه من شمولية، وذلك بحكم الضرورة، حتى نتمكن من سبر غور ذلك الواقع، لأننا وجدنا من المفيد ملامسة تلك الظروف التي لم تتناولها الأقلام بشيء من الحرص والجدية، باستثناء بعض الكتابات المعاصرة التي فتحت لها الطريق إلى النور، مساهمة بذلك في تعرية التناقضات التي تغلفت بها جوانب مهمة في هذا الموضوع.

وموضوعنا هذا الذي بين أيديكم، لم يشمل سوى المنطقة اليمنية، على وجه التحديد، لكن هذا لا يعني بأننا تجاهلنا ذلك الواقع الذي كان يفرض تأثيره

علينا، بل وتأثيرنا عليه، من حيث ارتباط تاريخنا بوحدة السياق التاريخي العربي في الصراع من أجل الحرية والتقدم الاجتماعي، في شتى العصور من خلال رسم صورة واقعية للوضع الإقليمي في الخريطة السياسية العالمية.

كما تمحورت دراستنا للهوية السياسية والحضارية في اليمن، على أساس دراسة خصائص ذلك النضال، بل ومميزات تلك الحقبة، التي كانت أثناءها المنطقة اليمنية تعيش أوضاعاً سيئة، بفعل الفقر والتخلف الذي كان نمط حياتها في تلك الآونة، بعد أن شاركت بقسط كبير في طريق الحضارة الإنسانية.

وقد اخترنا لهذا الكتاب موضوعات مهمة ذات صلة حيوية بمضمونه، وهي تطور الهوية في اليمن في مختلف الحقب التاريخية (قديم، وسيط، حديث).

تحدثنا في الفصل التمهيدي منه عن بعض إشكاليات كتابة وإعادة كتابة التاريخ اليمني، وذلك بقصد إبراز أهم الهموم والمصاعب التي تعترض الباحث التاريخي في مختلف التخصصات (قديم، وسيط، حديث، معاصر) مع إعطاء مقدمة تتضمن تطور علم التاريخ في مختلف القرون، وحتى ظهور المادية التاريخية في القرن الثامن عشر.

وناقشنا في الباب الأول الأهمية الجيوبولتيكية والحضارية لليمن في التاريخ القديم، تطرقنا في الفصل الأول منه لمظاهر النهضة الاقتصادية في اليمن القديم؛ ففي التمهيد تطرقنا بإيجاز لنشوء الممالك اليمنية القديمة، مما دفعنا إلى الحديث عن شكل السلطة السياسية، وتطور ألقابها الملكية، بل وتحديد وظيفة أجهزة الدولة المختلفة، وإلى أي مدى كانت حدود صلاحياتها، وماهو الأساس الحقيقي الذي قام عليه نظام الملكية في ذلك الوقت.

مما مهد للاسترسال في الحديث حول السمات الخاصة بالنظام الاقتصادي ـ الاجتماعي باليمن القديم، (أولاً) ناقشنا شكل العلاقات الإنتاجية في الريف، بالإضافة إلى ملكية الأرض، وأشكالها المختلفة، بينما تحدثنا (ثانياً) عن الصناعات الحرفية، التي كان اليمنيون يتفننون في إتقانها، بل وباعتبارها شكلت أهم ملامح الحضارة اليمنية في ذلك العهد. أما (ثالثاً) فقد ناقشنا فيها تأثير التجارة في حياة اليمنيين، خاصة في الجانب الحضاري المرتبط بحياة الناس مادياً وروحياً، بل والكيفية التي تمكن من خلالها اليمنيون من فرض نفوذ اقتصادي ـ سياسي كبير على الشعوب المجاورة لهم، خاصة في المناطق الشمالية. وبهذا الخصوص لم يكن من الممكن دراسة الحياة الاقتصادية في

اليمن بمنأى عن ظهور المعاملات النقدية، التي غدت سمة بارزة في تطور المجتمعات الإنسانية في ذلك الحين، بما فيها المجتمع اليمني.

وفي الفصل الثاني تناولنا مظاهر النهضة الحضارية في اليمن القديم، حيث تطرقنا (أولاً) للفن والمعمار في اليمن القديم لكونه دلالة أصيلة عن معالم الحضارة، التي كانت لبناتها الأولى تتمثل في إقامة المشاريع الإروائية، ليس هذا فحسب بل وفي القصور الشامخة، التي أتقن اليمنيون إبداعها، بأبهى الصور وأروع الرسوم، مما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، على إقبال اليمنيين على الحياة الدنيوية بكل مظاهرها، وقد تجلى ذلك في عدم اهتمامهم بالأفكار الدينية التي كانت تحاول ترسيخ صورة قاتمة لحياة أخرى بعد الموت، بدليل أن قبورهم لم تحوِ ثروات ثمينة، عدا بعض الأدوات العادية التي تستخدم في الحياة اليومية.

و(ثانياً) تناولنا الثقافة في اليمن القديم، حيث تم مناقشة تطور اللَّهجات اليمنية القديمة وخطها المسند، بالإضافة إلى الكتابات الشائعة التي تعامل بها اليمنيون في مختلف طبقاتهم الاجتماعية. وبغرض إغناء هذا الموضوع عدنا لمختلف الأبحاث التي نشرتها البعثة اليمنية السوفيتية للتنقيب عن الآثار في اليمن، فضلا عن الأبحاث التي نشرتها البعثة الفرنسية عام 1986 ـ 1997م، وقد أفادنا ذلك كثيراً، لأننا تمكنا من تسليط الضوء على قضايا كثيرة بهذا الخصوص، ليس هذا فحسب بل أكدت ما كان لليمنيين من إسهامات عظيمة في مضمار الحضارة، حيث شهدت اليمن انتشار المدارس والمعاهد، كما عرف اليمنيون (التقويم) الذي أطلق عليه تسمية (التقويم الحميري).

و(ثالثاً) درسنا الديانة في اليمن القديم، وتوصلنا إلى أن اليمنيين في مختلف عباداتهم كانوا جزءاً لا يتجزأ من شعوب الشرق، التي تختلف إليهم في تلك العبادات المعروفة في العالم القديم، خاصة الشعوب المجاورة للمنطقة اليمنية، مما مهد لدراسة جانب مهم من حياة اليمنيين.

وفي الفصل الثالث تم تناول النظام السياسي في اليمن القديم، حيث كان لليمن نظام شوروي خاص بها، فقد كان الملك لا يصدر أوامره إلاّ بعد استشارة الأقيال والأذواء، كما كان في بعض الأحيان يطلب مشورة الشعب في قضية محددة. هذه الوضعية المتميزة في تاريخ الشعب اليمني تجعله يتمايز عن غيره من الشعوب التي كانت تعيش تحت نير حكم مستبدين، يتمتعون بسلطات مطلقة، وقد أكد القرآن الكريم على ما ذهبنا إليه في هذا الخصوص.

ثم ناقشنا البنية الاجتماعية الاقتصادية، التي كانت سائدة في المجتمع في ذلك العهد، حيث كانت دراستنا لها لا تقوم على نمط اقتصادي معين، ولا ضمن علاقات اقتصادية اجتماعية محددة، ذلك لأن اليمن عرفت عدداً من الأنماط الاقتصادية، بل وتداخلت في علاقات اجتماعية اقتصادية متباينة.

وباستكمال حلقات هذا البحث لم يبقَ أمامنا سوى دراسة أسباب وعوامل سقوط الدولة اليمنية القديمة.

أما في الفصل الرابع، فقد كان: المقاومة اليمنية للغزو الحبشي للمنطقة اليمنية، ألقينا الضوء (أولاً) على أهم مفاصل العلاقات اليمنية الحبشية عبر التاريخ، سواءً كانت تجارية، أو عداء وصداقة على أساس المصالح المشتركة أو المتباينة فيما بينها، خاصة وأن العالم في ذلك الوقت كان ينقسم بين إمبراطورية فارس في الشرق، وإمبراطورية بيزنطة في الغرب، لهذا كان من الطبيعي أن تحاول الإمبراطوريتان التدخل في شؤون المنطقة اليمنية التي كانت تتمتع بثرائها الكبير، وموقعها المهم، الذي يشرف على طرق التجارة العالمية آنذاك.

و(ثانياً) تم استعراض الأطماع الأجنبية في المنطقة اليمنية، حيث عرفت اليمن محاولات غزو عديدة لأراضيها، كانت أهمها محاولة الرومان بقيادة (أليوس جاليوس)، لكنها ذاقت مرارة الهزيمة على أيدي اليمنيين في عام 24 ق.م. وعلى الرغم من هذا، استمرت الإمبراطورية الرومانية في محاولاتها من أجل إدخال اليمن في دائرة نفوذها، وتكللت جهودها بالنجاح في النهاية عام 525م، وقد ساعدها في تحقيق ذلك وجود دولة أكسوم التي قدمت لها بيزنطة كل الدعم والمساعدة لاحتلال اليمن في ذلك التاريخ. بالإضافة إلى وجود أعوان لها داخل اليمن، خاصة في مدينة نجران على وجه الخصوص.

وفي الفصل الخامس، فقد تناولنا قصة أصحاب الأخدود، من خلال إعطاء صورة واضحة للجوانب الواقعية والأسطورية في تلك القصة، وما ترتب عليها من احتلال الأحباش للمنطقة اليمنية.

وفي الفصل السادس، تطرقنا للمقاومة اليمنية للاحتلال الحبشي، وبروز سيف بن ذي يزن كداعية وطني من أجل الاستقلال، وتزعمه حركة المقاومة، التي أدت في الأخير إلى انتصار الجماهير اليمنية، بزعامة سيف بن ذي يزن، في ملحمة وطنية رائعة، خاصة وأن الظروف الدولية المستجدة إبان ظهور ذي يزن على الساحة السياسية في اليمن قد ساعدته على تحقيق أهدافه التحررية.

لكن على الرغم من ذلك، وقعت اليمن تحت قبضة الفرس بعد اغتيال زعيم الثورة، وقد أدت السياسات والممارسات غير الإنسانية التي انتهجها الفرس في المنطقة اليمنية؛ إلى اشتعال أوار الحركة الجماهيرية من جديد.

أما الباب الثاني الموسوم، بالحركات السياسية والاجتماعية في اليمن في عصر الإسلام، فقد تطرقنا في الفصل الأول منه إلى أوضاع العرب في الجاهلية، وموقف الإسلام منها، وكذا ممهدات الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، ثم الحديث عن وضعية اليمن في عهد الدولة العربية الإسلامية، وبقايا الفرس من (الأبناء)، الذين استفز بقاءهم جماهير قبلية عريضة حديثة الإسلام؛ للمقاومة تحت شعارات اجتماعية وسياسية مضللة، وللتأكيد مما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، عملنا إلى مناقشة أوضاع الفرس في ظل الإسلام، لمعرفة الأسباب الحقيقية من وراء اعتناق الفرس الدعوة الإسلامية، خاصة إذا أدركنا أن إعلان الفرس لإسلامهم كان الطريق الوحيد الذي يضمنون من خلاله مصالحهم، وامتيازاتهم الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي ترتب عليه قيام حركة الردة في اليمن ضد إجراءات الدولة الإسلامية، وهو موضوعنا للفصل التالي.

الفصل الثاني، ناقشنا فيه موضوع الحركات الارتدادية في صدر الإسلام، والتي تمثلت بجملة من الحركات المناهضة لسلطة حكومة المدينة، وهي حركة عبهلة بن كعب (الأسود العنسي) التي قامت في عهد الرسول ﷺ بينما جاءت حركة قيس بن مكشوح وحركة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، وحركة الأشعث ابن قيس الكندي في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، وقد تمكنت الدولة العربية الإسلامية من القضاء على مختلف هذه الحركات الارتدادية في المنطقة، واستقر بذلك نفوذ الدولة العربية الإسلامية، لتساهم اليمن بعد ذلك في الفتوحات الإسلامية.

الفصل الثالث، تناول الفتوحات الإسلامية، والدور الذي لعبه اليمنيون في تلك الحقبة التاريخية، حيث يمكننا القول أن اليمن تحملت العبء الأكبر في حركة الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية في الشام، وبغداد، والأندلس، وحتى أبواب باريس. وقد استعرضنا أسماء القادة اليمنيين من سياسيين وعسكريين، الذين لعبوا دور الريادة في المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة المهمة من التاريخ.

والله ولي التوفيق...

الفصل التمهيدي

إشكالية كتابة
وإعادة كتابة التاريخ اليمني

تمهيد عام

*** تطور الكتابة التاريخية خلال الحقب المختلفة**

أولاً: الهموم والمصاعب في كتابة التاريخ القديم . .

ثانياً: الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن في العهد الإسلامي . .

ثالثاً: الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن في العصر الحديث . .

رابعاً: الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن المعاصر . .

تمهيد عام

إن إعادة كتابة التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ اليمني بشكل خاص؛ القديم، والوسيط، والحديث، والمعاصر، محفوفة بالمصاعب والهموم نتيجة لمختلف المتغيرات والمتناقضات التي أسهمت في هذا المجال، خاصة وأن رحلة صنع الحضارة والمقاومة التحررية لشعوبنا العربية قاطبة عبر تاريخها الطويل، تمتلك خصائص متميزة وفريدة في كل بلد على حدة.

لهذا تكون الكتابة حول مجمل هذه القضايا في مختلف العصور، ذات أهمية بالغة، كونها جزءاً من التاريخ الوطني والقومي في إطار التاريخ الإنساني. وتتطلب الكتابة في التاريخ معارف واسعة بشتى العلوم والآداب والفنون، وأسلوباً في التحقيق والتدقيق والعرض والتحليل، يزيد من دقته وصعوبته تعقد الموضوع، وسعته، واضطراب الوسائل أو المصادر التي يعتمد عليها الباحث، وهو الأسلوب الذي عرف بالأسلوب العلمي. ومن أهم هذه الشروط[1]:

1 ـ إجادة اللغات الأوروبية أو غير الأوروبية التي لها علاقة بموضوع البحث.

2 ـ الجد والمثابرة.

3 ـ الشك والنقد.

4 ـ الدقة والأمانة العلمية.

5 ـ النزاهة وعدم الانحياز الفكري أو القومي.

(1) انظر: د. سيد أحمد الناصري: فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1982م، ص 183 ـ 186، وبهذا الخصوص يمكننا القول بأن المؤرخ حينما يعكف على دراسة التاريخ لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت. ، وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ، وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها، إلى أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها.

د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي ـ نظم التعليم، دار المعارف بمصر، ط4، بدون تاريخ، ص21.

6 ـ الصدق ومحبة البحث عن الحقيقة.

7 ـ الجدية والشعور بالمسؤولية.

8 ـ حب السفر والتجوال.

وبهذا تكون هذه الشروط هي الأساس الحقيقي لكتابة وإعادة كتابة التاريخ العربي والتاريخ اليمني على حدٍ سواء، خاصة وأن إجادة اللغات الأوروبية أو غير الأوروبية، التي لها علاقة بموضوع البحث، وبالذات عند الكتابة عن مواضيع تناولتها أقلام المستشرقين بالإسهاب والاستفاضة، أو عند الكتابة التخصصية في التاريخ القديم، فمثلاً عند الكتابة عن تاريخ الحضارة اليمنية القديمة، وجب دراسة اللغة اليمنية القديمة بلهجاتها المتعددة، كذلك عند الحديث عن الحضارة الفرعونية يجب دراسة اللغات المصرية القديمة كالهيروغليفية والديموطيقية والهيراطيقية. . . .الخ، لتساعدنا على فهم الخصائص الفريدة لهذه الحضارة أو تلك.

كما يجب على الباحث أن يتحلى بروح الشك والنقد لكل الوثائق والكتابات والأحاديث بغرض الوصول إلى الحقيقة، فإذا اكتشف الباحث بأن الأصول التاريخية التي يدرسها مزيفة أو منتحلة جزئياً أو كلياً، يغدو من المستحيل الاعتماد على المعلومات الواردة فيها، لأن أساس النقد ـ الحذر والشك ـ في معلومات الأصل التاريخي، تدفعنا لدراسته وفهمه واستخلاص الحقائق في ثناياه.

وما أكثر ما يتكلم الناس عن النقد، ولكن كثير منهم لا يطبقونه عملياً لأنه ليس بالأمر السهل. . . وقد استخدم كثير من المؤرخين في الزمن الماضي الأصول التاريخية دون نقد أو تمحيص، إذ أنه أسهل على الإنسان أن يصدق بغير مناقشة، ويوافق دون نقد، ولكنه من غير المستطاع للمؤرخ أن يصل إلى الحقيقة التاريخية إذا لم يعمل النقد في كل ما يقع تحت يده من أنواع الأصول التاريخية، وهو ما يستغرق زمناً ليس بالقليل(1).

فإذا كنا كباحثين عن الحقيقة، نعمل الشك والنقد في الأصول التاريخية التي ندرسها، ففي المقابل وجب علينا أن نلتزم الأمانة العلمية والدقة عند الاستفادة من الوثائق أو المخطوطات أو أبحاث الآخرين.

---

(1) انظر: عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي، الكويت، 1979م، ص 38.

كما يجب على الباحث وهو في رحلته نحو الحقيقة أن يلتزم النزاهة وعدم الانحياز الحزبي أو الفكري أو المذهبي أو القومي في كتاباته المختلفة، وذلك بصدق يدفعنا إلى عدم إهمال المعلومات التي لا تتفق وأهواءنا.

وعلى ضوء هذا تكون الشروط الآنفة الذكر هي الأساس الحقيقي للبحث العلمي الناضج، خاصة إذا أدركنا أن تحول التاريخ إلى علم استغرق زمناً طويلاً، حيث نظر إلى التاريخ في بادئ الأمر على أنه رواية الحوادث المجيدة، وفي الوقت نفسه كان ينظر للتاريخ منذ عهد مبكر على أنه مجموعة من السوابق إلى معرفة التاريخ، وعلى أنه إعداد عملي للحياة خصوصاً الحياة السياسية (العسكرية والمدنية) يهدف إلى الإقناع أو التعليم، أو إلى كليهما معاً. ولعل هذا ما دفع (هرنشو) إلى القول بأن التاريخ كان مزيجاً من العلم والفن والأدب[1].

فلم يكن ثمة تدقيق فيما يتعلق بالبراهين والأسانيد، والذين كانوا يعملون وفقاً لوثائق مكتوبة لم يهتموا بأن يميزوا بين نص هذه الوثائق وبين أفكارهم واستنتاجاتهم، وكانوا يرددون روايات أسلافهم بعد إضافة تفصيلات كثيرة لها، وأحيانا ـ بحجة التدقيق ـ بأرقام وخطب، وتأملات أبعد ما تكون عن الواقع التاريخي[2].

أما كتاب عصر النهضة الأوروبية فقد حاكوا القدماء مباشرة. فعندهم أن التاريخ فن أدبي ذو نزعة إلى الدفاع أو التعليم، وكثيراً ما كان يقصد به في إيطاليا كسب عطف الأمراء أو إلى التباهي بالخطابة والفصاحة. واستمر ذلك زمناً طويلاً.

لكننا نجد مع ذلك في كتب التاريخ التي كتبت في عصر النهضة أمرين جديدين لفتا الانتباه؛ ففيهما يظهر تأثير العصر الوسيط من دون شك، فمن ناحية نجد استمراراً في تفضيل إطار لم يستعمله القدماء، وأوجده المؤرخون الكاثوليك في القرون المتأخرة، وهذا الإطار هو ذلك الذي يشمل التاريخ الكلي بدلاً من الاقتصار على تاريخ رجل أو أسرة أو شعب، ومن ناحية أخرى نجد

(1) انظر: هرنشو: علم التاريخ، ترجمة: عبدالحميد العبادي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م، ص22.

(2) لمزيد من المعلومات انظر: د. عبدالعزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، 1960م، ص 99ـ103.

حيلة في العرض مادية، نشأت من عادة جارية في مدارس العصر الوسيط هي (الحواشي)، وصارت لها الأهمية الأولى، إذ أخذ المؤرخون يضيفون إلى النص في كتب التاريخ المطبوعة حواشي[1].

وهذه الحواشي مكنت من التمييز بين الرواية التاريخية وبين الوثائق التي تستند إليها، ومن الإحالة إلى المصادر ومن إيضاح النص وإبرازه، وقد مورست عملية التعليق هذه أولاً في مجموعات الوثائق وفي المباحث النقدية، وشيئاً فشيئاً نفذت في سائر الكتب التاريخية. ونشأ عصر جديد في القرن الثامن عشر، فنظر الفلاسفة آنذاك إلى التاريخ على أنه دراسة لعادات الناس، لا للحوادث في ذاتها، وجرهم إلى الاهتمام ليس فقط بالوقائع السياسية، بل أيضاً بتطور العلوم والفنون والصناعة، واستمر المؤرخون مع ذلك ينظرون إلى رواية الحوادث السياسية والحربية بالتفصيل، على أن ذلك أساس التاريخ، . . وفي الوقت نفسه أنشأ أساتذة الجامعات في ألمانيا من أجل احتياجات التعليم؛ شكلا جديداً للمتن في التاريخ عبارة عن منهجية من الوقائع المبررة بكل عناية، وليس فيها ادعاءات أدبية ولا غيرها[2].

وكان التنافس في البداية غامضاً وعلى استحياء، لأن بداية القرن التاسع عشر تميزت بنهضة أدبية نضرت وجهة الكتابة في التاريخ، وتحت تأثير الحركة الرومانتيكية نشد المؤرخون طرائق في العرض أوفر حياة من طرائق أسلافهم، تلفت النظر وتثير الجمهور، وتهبك انفعالاً شعرياً، بحقائق الماضي.

والخلاصة أن التاريخ لف حتى حوالي عام 1850م، نوعاً أدبياً في نظر المؤرخين والجمهور على السواء. والدليل البين على ذلك هو أن المؤرخين كان من عاداتهم آنذاك إعادة طبع كتبهم، ومع مرور فترة طويلة بين الطبعة دون أن يعدلوا شيئاً، وأن الجمهور تسامح في قبول هذا الصنيع، مع أن كل عمل علمي ينبغي أن تعاد كتابته باستمرار ويعاد النظر فيه، وتجدد معلوماته وفقاً للتقدم

(1) تهدف الحواشي Foot Notes إلى تحديد الموضوع الذي استقى الباحث منه معلوماته بدقة، بمعنى تحديد الكتاب باسم مؤلفه وعنوانه والصفحة أو الصفحات التي وردت فيه المعلومة أو المعلومات التي اقتبسها الباحث بنصها أو أعاد صياغتها بأسلوبه. انظر: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ: المدخل إلى علم التاريخ، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1994م، ص178.

(2) انظر: د. جمال الدين الشال: التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، 1958م، ص117ـ 122.

العلمي. والعلماء حقاً لا يدّعون أنهم يعطون مؤلفاتهم شكلا لا يقبل التغيير، ولا أن الأجيال المقبلة ستقرؤهم، فهم لا يطمحون في الخلود الشخصي، بل يكفيهم أن تندرج نتائج أبحاثهم، التي ستصححها أو تعدلها الأبحاث المقبلة، وفي مجموع المعارف التي تؤلف تراث الإنسانية العلمي[1].

غير أن هذه الرؤية قد تغيرت بظهور المدرسة الاشتراكية، التي كانت تدعو لتحديد الموقف التاريخي في معرفة التطورات الحاصلة في مختلف المجموعات، ومختلف الحقب التاريخية، من خلال معرفة ظواهر الواقع من زاوية نظر نشوئها وتطورها. ويطلق عادة على علم التطور (تطور الطبيعة والمجتمع) الذي نشأ في القرنين السابع عشر والثامن عشر اسم الموقف التاريخي؛ على أنه مفهوم نظري منهجي معين للتطور من المواصفات التاريخية، التي ترجع أوائلها إلى قدماء الإغريق والرومان (هيرودوت وفوكيديد)، وبين النظريات العقلانية للعملية التاريخية التي تظهر لأول مرة في العصر الحديث، في عهد نشوء ونهضة المجتمع البرجوازي[2].

ويرى ماركس أن الوضع الاقتصادي للمجتمع هو الذي يحدد صورة نظامه، ودرجة حضارته وثقافته، وأن الإنتاج ونوعه وأساليبه هو أساس النظام الاقتصادي، وأن الإنتاج لا يظل على أسلوب واحد ومستوى واحد، بل دائم التطور، ولكن ببطء. ومن هذا التطور يخرج تطور المجتمع، سواء من ناحية قوانينه، أو أفكاره، أو فنونه، أو عقائده وأن الإنتاج المادي لأي جماعة هو الذي يحدد مفهوم نظامها الاجتماعي والسياسي. وأن كل ما يلحق بالمجتمع سواء من ثورات أو انقلابات سببها أوضاع العمل والإنتاج والملكية.

وأن النظام السياسي القوي يقوم على نظام اقتصادي راسخ ومتين، أي أن العمل الاقتصادي هو العامل المؤثر الذي يحرك العامل السياسي ويتحكم فيه. ومن ثم يكون على الباحث في الظواهر التاريخية في المجتمع أن يفتش عن البواعث الاقتصادية الكامنة وراءها، ، خاصة في عصرنا الحاضر، حيث يلعب الاقتصاد وأساليب الإنتاج دوراً أساسياً[3].

(1) انظر: لانجلو اوسينوبوس وآخرون: النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1981م، ص 233 ـ 239.

(2) فاديم ميجويف: الحضارة والتاريخ، ترجمة دار التقدم، موسكو، 1980م، ص 38.

(3) د. سيد أحمد الناصري: مرجع سابق، ص 37.

وفي إطار هذه الرؤية رجع ماركس إلى الماضي فرأى التاريخ كله قصة للكفاح بين الطبقات؛ استغلالاً ومقاومة للاستغلال بين السادة والعبيد، بين الأشراف والصعاليك، بين العمال والبرجوازية.

وكان في هذه النظرية الاقتصادية المادية لتعليل التاريخ من الصواب:

أ ـ الاهتمام بالجانب المادي من الحياة، وهو عنصر مهم في المجتمع البشري.

ب ـ إيفاء البيئة المحيطة بالجماعة حقها من الأثر الفعّال في أحداث التاريخ.

ج ـ إشراك العامة في موكب التاريخ.

وأما المآخذ فكانت:

1 ـ النظر إلى التاريخ على أنه تنازع بين الطبقات فقط، وبين الطبقات التي يستغل بعضها بعضاً، بينما أكثر المنازعات كانت بين المتنافسين من السادة المستغِلين (بكسر الغين) أنفسهم، وكان العمال في كل طبقة عوناً لأسيادهم.

2 ـ الاقتصار على العوامل الاقتصادية المادية وحدها.

3 ـ أن طبقة العمال وطبقة الرأسماليين خلقتهما عوامل اقتصادية معينة، فتعليل التاريخ تعليلاً قائماً على نضال العمال يؤلف جانباً من التعليل الكامل، وفي فترة معينة من الزمن فقط.

4 ـ أدرك الماركسيون أن التعليل الاقتصادي (المادي البحت) غير وافٍ في فهم التاريخ فأوجدوا الديالكتيكية المادية ليقيموا بها الأدلة على صحة آرائهم، فأخذوا بالبحوث النظرية الماورائية التي كانوا قد عابوا أمثالها على خصومهم[1].

وعلى أي حال يمكننا من خلال هذا الاستعراض المقتضب معرفة المسار الزمني في تطور المدارس التاريخية في مختلف العصور حتى ظهور المدرسة المادية في التاريخ. خاصة بعد أن أصبح كثير من العلوم يحتل أهمية كبيرة لدارس التاريخ وبالذات علم الجغرافيا، لأنه يبين إلى أي مدى يرتبط أحدهما بالآخر، فعلى الباحث أن يعرف الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو الناحية التي يدرسها، على النحو الذي يزيد من مكانته في البحث والدرس والفهم.

(1) د. عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ، الطبعة الثانية، بيروت، 1972م. ص 27.

والاقتصاد من العوامل الأساسية التي يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ، إذ أن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعّال في سير التاريخ، فالثروة الطبيعية في بلدٍ ما تحدد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي، ونوع التبادل التجاري ومدى نشاطه، وطريقة توزيع الثروات الطبيعية أو الأموال، ومدى تركزها في يد طبقة أو طبقات معينة، أو مستوى توزعها بين فئات أكثر عدداً، يؤثر في السياسة الداخلية لدولةٍ ما، ويؤثر في نظام الحكم فيها، وفي مستوى الرخاء أو الفقر، وفي حياة الشعب، وفي علاقات طوائفه بعضها بعضا، كما يؤثر في مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها، وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجي، سواء أكان ذلك في الناحية الاقتصادية البحتة أم في العلاقات السياسية، وكذلك في مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولي[1].

وقد أثر كل هذا في تطور علم التاريخ، الذي أصبح يمتلك ناصية العلوم، ويمتاز بمقومات رفيعة في بناء أبحاثه في مختلف المجالات والعصور.

بيد أن الفضل الرئيس للتاريخ هو أن يكون أداة للثقافة العقلية، وأنه كذلك بوسائل عديدة ـ فيلاحظ أولاً: أن ممارسة المنهج التاريخي في البحث يفيد العقل صحة ويشفيه من داء السذاجة في الاعتقاد ـ وثانياً: نجد أن التاريخ يكشف لنا عن عدد كبير من المجتمعات المتباينة، ويهيئنا لفهم وقبول أراء مختلفة، ويجعلنا نتبين أن المجتمعات قد تحولت مراراً، وإنه يعودنا على تنوع الأشكال الاجتماعية، ويشفينا من خوف التحولات الإنسانية بواسطة تغير العادات وتجدد الأجيال[2].

وتأسيساً على ذلك يبرز دور المؤرخ ليس باعتباره ناقلاً لتراث الماضي، وإنما عضو فعال في المجتمع يدرس أوضاع الأمم المتباينة في الماضي والحاضر والمستقبل في إطار تفاعل الفرد مع الزمان والمكان[3]، وبالتالي تقديم صورة واضحة ومفصلة لتاريخ الأجيال، وتراكم الثروات. وهذه القضايا

(1) هيوج أتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، 1963، ص ص105 ـ 107.

(2) لانجلو اورسبينوبوس وآخرون: مرجع سابق، ص251 ـ 252.

(3) حول هذا الموضوع، انظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، دار القدسي، دمشق، 1349هـ، ص ص7ـ11.

بمجملها ينظر إليها باعتبارها الثروة القومية لهذا الشعب أو ذاك. ووفقاً لهذا المنظور يحدد حسين مؤنس ميدان عمل المؤرخ: "بأنه نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد دائماً بما تأتي به منابعه، وما تأتي به روافده "[1].

وعلى السياق ذاته حددت الكثير من الدراسات أهمية التاريخ باعتباره يساهم في تماسك الأفراد وسعادة أبنائه[2]، فضلاً عن أن دراسة الماضي تشكل أساساً لفهم كيفية تكون وعمل المجتمع الحاضر[3].

(1) حسين مؤنس: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة ـ 1 ـ، الكويت، ص121.
(2) فاخر عاقل: المدرسة الحديثة، مجلة العربي، العدد 166، سبتمبر 1972م، الكويت، ص27.
(3) حسين فوزي النجار: الفكرة والواقعية في التاريخ، مجلة الفكر المعاصر، العدد ـ 2 ـ، القاهرة، 4/ 1965، ص12.

تطور الكتابة التاريخية خلال الحقب المختلفة

إن دراسة التاريخ القديم بما فيه من أحداث وحروب، أو بما فيه من مميزات في العبادة وانتشار الطقوس المعبرة عنها، وعادات تقديم القرابين. . . الخ، تكون أقرب إلى الواقع من دراسة المخطوطات التي قد تدخل عليها عمليات التزوير أو الانتحال أو التحيز بأي شكل كان. لأن دراسة آثار الإنسان من أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة، أسهل من دراسة كتاباتها المسجلة عن حوادث الماضي، لوجود علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ، وبين أسباب وجودها، وارتباط ذلك بحوادث التاريخ، ولكن الكتابات التي يدونها الإنسان عن حوادث تاريخية معينة هي أثر عقلي سيكولوجي وليس شيئا بارزاً ملموساً، وهي لا تزيد عن كونها مجرد رمز وتعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن من دوّنها، وبذلك تنحصر قيمة الآثار الكتابية في أنها عمليات سيكولوجية معقدة وصعبة التفسير، لأن الإنسان نفسه على وجه العموم كائن معقد، مركب متضارب صعب الفهم، فلا ريب أن تكون الكثير من حوادثه وما يعبر عنها على غراره[1].

وباتساع دولة الخلافة الإسلامية على حساب الدول والإمبراطوريات الموجودة في ذلك العصر، انتشرت المبادئ الإسلامية وأحكام القرآن، لتجد تجسيداً لها في القوانين والشرائع التي يحتكم الناس إليها في مختلف مجالات حياتهم. كذلك كان لدخول الشعوب القديمة ذات الحضارات العريقة تحت راية الإسلام من بين أسباب بزوغ النزعة التاريخية عند العرب والمسلمين[2]، إذ أراد العرب معرفة تواريخ هذه الشعوب قبل الإسلام، مما أدى إلى ظهور مجال جديد للمعرفة التاريخية هو الأخبار التي تناولت تواريخ الأمم القديمة، والديانات الأخرى. وكانت هذه الأخبار هي المرحلة التي مهدت لظهور التاريخ

---

(1) د. حسن عثمان: مرجع سابق، ، ص82.

(2) انظر: محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ، القاهرة، 1991، ص 125.

العام الذي يتناول قصة العالم ككل، كما كانت من عوامل ظهور التواريخ المحلية التي تهتم بتاريخ كل بلد من بلدان العالم الإسلامي على حدة، ويمكن إرجاع التخصص في الأخبار إلى رجال من أمثال محمد بن السائب الكلبي، وعوانة بن الحكم (ت147هـ)، وأبي مخنف الأسدي (ت 157هـ) وسيف بن عمر(ت170هـ) وغيرهم. بيد أن أهم هؤلاء جميعاً هو محمد بن عمر الواقدي (ت270هـ) وهو من أهل المدينة ألف عدداً من الكتب في التفسير والحديث والتاريخ لم يصلنا منها سوى شذرات أو مقتبسات في كتب المتأخرين. إلاّ أن أهم مؤلفاته كتاب كبير في التاريخ العام يحاول تتبع تاريخ البشرية منذ الخليقة حتى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد وصلت إلينا أجزاء كبيرة من هذا الكتاب في طيات الطبقات الكبرى لابن سعد، وكان كتاب الواقدي في التاريخ العام عنواناً على مرحلة جديدة من مراحل تطور علم التاريخ عند العرب والمسلمين. وعلى الرغم من هذا لا تكاد تخلو سيرة واحد من أعلام الفكر الإسلامي من حديث عن رحلة وسماع وإجازة، حتى وإن تم ذلك وهو في طريقه لأداء فريضة الحج[1]، وقد أدى هذا إلى ظهور التاريخ الإسلامي العام كنمط شائع من أنماط الكتابة التاريخية.

وتكشف كتابات أحمد بن يعقوب بن واضح المعروف باسم اليعقوبي (ت384هـ) صاحب كتاب البلدان والتاريخ المعروف باسمه، عن فكرة التاريخ العالمي التي سيطرت على مؤرخي ذلك العصر بحكم انتماء الكل إلى الدولة العربية الإسلامية. أما أشهر مؤرخي تلك الفترة فهو محمد بن جرير الطبري صاحب كتاب تاريخ الرسل والملوك، ويعتبر هذا الكتاب تجسيداً للنزعة العامة التي خلفتها وحدة العالم الإسلامي، فهو يعالج التاريخ العام منذ الخليقة حتى نهاية سنة 302هجرية، ويخصص مساحة كبيرة للسيرة النبوية، ويعد الطبري رمزاً لختام مرحلة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ التدوين التاريخي عند العرب بعد الإسلام، وفي هذا الكتاب اتبع الطبري طريقة الحوليات فقسم حوادث كتابه وفقاً لتسلسل زمني على أساس اتخاذ سنة الهجرة نقطة بداية، فهو يبدأها بعبارة قد تكون ذكر الخبر عما فيها من أحداث[2].

(1) حول هذا الموضوع، انظر: د. حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي، مطبعة السعادة، مصر، بدون تاريخ، ص 42.

(2) انظر: قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف بمصر، ط2، 1982م، ص 97 ـ 100.

وفي هذا السياق، يمكننا ملاحظة ما يلي:

أولاً: إن الكثير من الدراسات الاستشراقية تشير بأن كتابة التاريخ الحولي عند مؤرخي العرب قد تم استلهامها من مؤرخي الإغريق والسريان[1].

ثانياً: إن المؤرخين العرب المسلمين لم يلتزموا بالتقويم الهجري أثناء كتابة تواريخ الملوك ـ في بيزنطة ومن عاصروهم، وذلك باستخدام التاريخ الميلادي ـ وفي معرفة الأمور الجسام في تاريخ الكثير من البلدان الإسلامية الأخرى؛ مثل مصر أثناء حساب فيضان النيل عند طريق استخدام التواريخ المحلية[2].

ثالثاً: استناداً على الأسس الحضارية التي عُرفت بها اليمن في عصورها القديمة، ومنها على سبيل المثال معرفتهم بالتقويم التاريخي (التقويم الحميري) يجعلنا نرجح رأي الكثير من الكتابات الإسلامية التي تحدد أن أصل التاريخ الإسلامي والمعروف بالتقويم الهجري مأخوذ من اليمن[3]، خاصة أن كثيراً من الدراسات المعاصرة قد أكدت ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص[4].

رابعاً: إن الوعي التاريخي عند العرب ارتبط بظهور القرآن؛ وانتشار الدين الإسلامي. وقد شكل ذلك بداية حقيقية لتشكل الوعي الإسلامي التاريخي للقومية العربية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن الميلاديين[5].

وعلى الرغم من الطريقة الكلاسيكية في البحث خلال هذه المرحلة، كان من المفترض أن تتطور أساليبها العلمية مع مرور الزمن؛ إلاّ أن الظروف العصيبة التي عانت منها البلاد العربية بعد ذلك؛ إما بانفصالها عن سلطة الخلافة الإسلامية، وانشغالها بحروبها الدائمة مع بعضها بعضا، أم بالدفاع عن نفسها من اعتداءات الصليبيين التي استمرت حقبة طويلة من الزمن، ثم تسلط العناصر غير

---

(1) انظر: فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، بغداد، 1963، ص 110 ـ 112.

(2) انظر: القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، الكويت، ج3، الكويت، 1964، ص ص 211ـ 214 انظر كذلك: ابن قاضي شهبة: الكواكب الذرية في السيرة النورية، بيروت، 1971، ص 172.

(3) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ص510.

(4) عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، بدون تاريخ، ص212.

(5) انظر: أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي: دراسات في تاريخ الثقافة العربية ـ القرون الوسطى 5 ـ 15 ـ، ترجمة أيمن أبو شعر، دار التقدم، موسكو، 1989م، ص 148.

العربية على مقاليد الأمور في ولايات المشرق كلها، ليس هذا فحسب، بل أدى ضعف البلدان العربية والإسلامية التي تعرضت لهجمات البرتغاليين والإسبان من جهة، ووقوعها في دائرة النفوذ التركي من جهة أخرى إلى تعثر البحث التاريخي من خلال شق نفق له نحو العلمانية.

وعندما ندخل القرن التاسع عشر، نصل إلى فترة حققت فيها أوروبا سيادة ملحوظة في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والسيادة السياسية، حيث حمل التوسع الأوروبي الأفكار والقيم الأوروبية إلى كل ركن من أركان المعمورة، وأصبح ما يحدث في أوروبا من منافسات وصراعات بين دولها يحدد ويؤثر على الأحداث سواء في آسيا أو أفريقيا أو في الأمريكيتين[1]. لكن إذا ما نظرنا إلى الموقف من زاوية عالمية، وليس من زاوية أوروبية؛ فإن الأبعاد التقليدية في معالجة هذه الفترة يجب أن تتغير، والقصة التقليدية التي ترتكز على ظهور القوميتين الألمانية والإيطالية، وميزان القوى الأوروبية، ومسألة مضايق البحار تبدو من منظور عالمي غير وافية، فحتى عام 1914م بدا كما لو أن العلاقات بين الدول الأوروبية هي التي تحدد مستقبل العالم، وكان الاستعمار والتوسع الأوروبي يقوم على مبدأ الموازنة بين القوى، الذي كان مبدأ يحكم العلاقات بين هذه الدول، ثم انتقل إلى أجزاء أخرى من القارات مع النفوذ الأوروبي.

أما من ناحية الواقع فعندما تحولت الحرب عام 1914م من حرب أوروبية إلى حرب عالمية، وعندما سمح للإمبراطورية العثمانية المتداعية بالانضمام إلى منظمة القوى الأوروبية عام 1916م، وعندما أُعترف بالولايات المتحدة واليابان كقوتين عظميين، بالإضافة إلى دورهما في القيادة التي تهيمن على العالم، وتسير أحداثه، حيث لم تعد أوروبا وحدها[2]؛ صاحبة القرار فيما يتعلق بمصير الدول والشعوب في أي بقعة على الأرض خارج القارة الأوروبية.

وقد أدى هذا إلى تلاشي فكرة المركزية الأوروبية باعتبارها محور الكتابة التاريخية على المستوى المحلي أو القومي أو العالمي.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الدراسات التاريخية ـ بفعل تأثرها بالأيديولوجية البرجوازية ـ تتخذ لها مضامين جديدة على المستوى الإنساني، باعتبارها تدرس

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: بيير رينوفان: تاريخ العلاقات الدولية 1815 ـ 1914، ترجمة: د. جلال يحيى، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص17 ـ 38.

(2) د. سيد الناصري: مرجع سابق، ص 163 ـ 164.

تاريخ ما أنجزه الإنسان في هذه الدنيا، وما هو في قراره، سوى تاريخ العظماء الذين عملوا في هذه الأرض، فقد كان هؤلاء العظماء قادة الناس وصانعي القوالب، وكانوا النماذج والخلاّقين لكل ما حاولته أو ظفرت به جموع الناس، وإن كان ما نراه من تطورات وإنجازات ماثلة في العالم ليس في الواقع غير التضحية الملموسة الظاهرة، والتحقيق والتجسيد العمليين للأفكار التي قامت في نفوس هؤلاء الرجال العظماء الذين أرسلوا إلى الدنيا[1]، وعلى النقيض من ذلك أخذت النظرية الماركسية تسعى إلى تجذير مواقعها السياسية من خلال رؤيتها الأيديولوجية والطبقية، الأمر الذي ترتب عليه بعد ذلك ظهور مدرسة المادية التاريخية التي اكتشفت أن التاريخ تحكمه عوامل موضوعية وذاتية، بل وتأكيدها على دور الجماهير الشعبية كصانعة للتاريخ، ليس هذا فحسب، بل دعت إلى جعل التاريخ علماً بكل مميزاته وقوانينه، مثل بقية العلوم الأخرى التي تخضع لقوانين خاصة بها[2].

على أي حال يمكننا القول إن دراسة التاريخ أخذت منذ بداية القرن العشرين تتخذ أبعاداً جديدة، حيث لا يمكن أن تقوم دراسته على أساس الوثائق، وهذه الوثائق تنقسم إلى: آثار أو مخلفات خطية، أو روايات، أو نقوش. . .الخ. ولهذا يجب أن تكون الخطوة الأولى في المنهج التاريخي هي خطوة البحث عن الوثائق المتعلقة بعصر من العصور أيّاً كان نوع هذه الوثائق، وأن نضمها جميعاً في مكان واحد هي بعينها أو على الأقل ما يمكن جمعه منها، ثم صوراً لما لا يمكن وضعه في هذا المكان.

والخطأ الأكبر الذي يقع فيه المؤرخون إنما كان ينشأ دائماً عن كونهم لا تتوافر لديهم كل الوثائق المتعلقة بالحادث موضوع الدرس. ولم ينهض التاريخ نهضته الحقيقية إلاّ بعد أن هيّأت المكتبات والمتاحف ودور المحفوظات التي تضم الأشتات المختلفة لموضوع واحد في مكان واحد ميسرة بهذا للمؤرخ أن يقوم بعمله[3].

وإذا كنا لم نستطع أن نصل حتى الآن إلى نتيجة مرضية من هذه الناحية فإن التقدم الهائل لعلم الفيلولوجيا لم يتم في الواقع إلاّ بفضل المجهودات الضخمة التي

(1) انظر: حسين فوزي النجار: التاريخ والسير، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ، 1964، ص 36.

(2) لينين: موجز حياته، دار التقدم، موسكو، 1969، ص 27 ـ 28.

(3) د. فتحية النبراوي وآخرون: مناهج البحث في علمي التاريخ والسياسة، الإسكندرية، 1982، ص38.

بذلت في هذا السبيل في أواخر القرن العشرين. ولا ضير على الإنسان أن يبدأ أولاً بجمع الوثائق من أي مصدر كان، وأن تضم بعضها إلى بعض دون ترتيب أو تمييز أو اختيار أو تصنيف لأن المهمة الأولى في الواقع هي جمع الوثائق من مظانها في كل مكان. حتى إذا ما انتهت هذه الخطوة الأولى أمكن بعد للمؤرخين أن يعنوا بهذه الوثائق ويتوافدوا على دراستها ليستطيعوا عن هذا الطريق أن يصلوا إلى الأحداث التاريخية التي ليست هذه الوثائق غير آثار متخلفة عنها.

وإذا تمت هذه الخطوة الأولية بدأت الخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي وهي خطوة ـ النقد ـ بغرض الوصول إلى الواقعة التاريخية التي تعد الغاية الأخيرة. ولكنّ بين الوثيقة وبين الواقعة التاريخية المستردة طريقاً شاقاً طويلاً يقوم كله على أساس أنواع الاستدلال: فمنها ما هو استدلال خالص، ومنها ما هو برهان بواسطة أنواع المماثلة أو التمثيل أو قياس النظير، ومنها ما يقوم على استقراء، وهذه الخطوات المتوسطة بين نقطة البدء ونقطة الانتهاء هي الوصف الحقيقي للمنهج التاريخي[1].

وعلى هذا الأساس تحتل كتابة وإعادة كتابة التاريخ اليمني ـ القديم، الوسيط، الحديث، المعاصر، أهمية خاصة، وبالذات فيما يتعلق بتاريخ الحركات الاجتماعية والسياسية التي قامت في مختلف الحقب التاريخية، لكوننا لا زلنا نعاني من نقص شديد في المعلومات في مساحة واسعة من تاريخنا في أزمنته المختلفة، كنتيجة لانعدام أي موسوعة علمية، تمثل مرجعية معلوماتية أمام الباحثين.

كل هذا دفعنا لدراسة هموم ومصاعب الكتابة في تاريخ تطور المجتمع اليمني في مختلف عصوره، حتى نتمكن من المساهمة في دراسة الإشكالات التي تعترض الباحثين في هذا المجال..

أولاً

الهموم والمصاعب في كتابة التاريخ القديم

من أهم إشكاليات الكتابة في تاريخ اليمن القديم، هو ضعف المصادر الأثرية التي تشمل الوثائق الرسمية والأوراق البردية والوقفيات، فضلاً عن الكتابات الأثرية أو "النقوش" والمسكوكات والرنوك والشارات والصنج، الأمر

---

(1) د. عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، 1977، ص184.

الذي حال لزمن طويل دون كتابة التاريخ القديم بشكل علمي متسلسل.

وهذا في اعتقادنا ما دفع الدكتور عبدالعزيز المقالح ـ في نهاية الثمانينات من القرن الماضي ـ للتساؤل: أين تاريخ اليمن القديم؟ بل ويذهب أبعد من ذلك عندما يحدد بأنه يستطيع أن يثبت وبدون أدنى تحفظ؛ أن تاريخ اليمن القديم لم يكتب حتى الآن لا باللغة العربية ولا باللغات الأخرى[1].

ونحن بدورنا نؤكد بأن مثل هذا التساؤل مشروع وله ما يبرره على أرض الواقع، فقد كان للظروف العصيبة التي مرت بها اليمن خلال عهد الاحتلال التركي للمنطقة اليمنية، ومن ثم الاستعمار البريطاني في الجنوب 1839 ـ 1967م، وكذا الحكم الإمامي المتخلف في الشمال 1918 ـ 1962م، وما أصاب المنطقة اليمنية من جراء هذه السياسة، قد ساهم في طمس معالم تلك الحضارة التليدة التي بنى صرحها أجدادنا القدماء.

لكن الكتب السماوية (التوراة والقرآن) ظلت تذكر الأجيال المتعاقبة بماضي الحضارة اليمنية من خلال ذكرها لزيارة ملكة سبأ للملك سليمان عليه السلام، وذكر قوم عاد وثمود وسيل العرم، بل ووصفها اليمن بأنها أرض الجنتين.

إلى جانب هذا، كانت المصادر اليونانية والرومانية تتحدث عن خيرات اليمن ومواردها المقدسة من اللبان والبخور، بل وتضخم من غناء اليمن بطريقة أسطورية فجّة، وأبلغ مثال على ذلك ما ذكره بلينيوس وهيرودوتس وغيرهم بهذا الخصوص[2]، حيث نجد أن هيرودوتس قد قدم لنا معلومات متنوعة مستمدة من مصادر مختلفة، فمعلوماته عن التاريخ المصري القديم لم تزد عن اعتبارها نوعاً من الأساطير والقصص، التي أوردها لنا كما سمعها، ولكنه لم يأخذها على أنها وقائع مسلّم بصحتها، بل أبدى الشك في نواح منها، وسردها لمن كان مستعداً لتصديقها. ولكن ابتداءً من العصر الصاوي وكلما اقترب كلامه من العصر الذي عاش فيه؛ نقص لديه عنصر الخيال والقصص، وزاد عنصر الصدق والحقيقة التاريخية[3].

(1) مطهر علي الإرياني: في تاريخ اليمن القديم ـ شرح وتعليق على نقوش لم تنشر (34 نقشاً) مجموعة القاضي علي عبدالله الكهالي، ص1.

(2) انظر: د. صادق عبده علي: خصائص النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي في اليمن القديم، الثقافة الجديدة، السنة الثامنة عشر، العدد (4) مايو 1988م، الحلقة (1)، ص47 ـ 59، وكذا الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(3) د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص 155.

ليس هذا فحسب، بل كانت كتابات الإخباريين العرب المسلمين تفتقد إلى الموضوعية عند حديثها عن تاريخ العرب في عصر ما قبل الإسلام بشكل خاص، فالمسعودي مثلا الذي اشتهر باعتباره راوية تاريخية بارزة، تتضمن أعماله من القضايا والتحليلات ما لا يمت إلى علم التاريخ والجغرافيا اللذين عرف بهما قبل أي شيء آخر بمفهوميهما الحديث وحتى الكلاسيكي بأي صلة، والمتتبع لتلك القضايا والتحليلات والمعلومات الوفيرة والدقيقة في الوصف ذات الطابع الخيالي والأسطوري والخرافي من جهة، وما يتصل بعادات الناس ومعتقداتهم وتقاليدهم ووصف البيئات والسلالات.. الخ.

ويعتقد إن من أهم الأسباب التي صبغت تلك الكتابات بانعدام الموضوعية، تعود إلى انتشار الأمية بين العرب قبل الإسلام، ففضّل الرواةُ الحفظَ على الكتابة، واعتمدوا على الذاكرة في تناقل الروايات[1].

فمثل هذا المنهج الذي اتبعه المسعودي وغيره من المؤرخين، هو الذي جرهم إلى الخلط وعدم التمييز بين حقائق التاريخ وأحداثه الواقعية، التي دونوها من جهة، وحقائق المجتمع من جهة أخرى، وعدم القدرة على التمييز بينها، وكان ينتهي بهم في كثير من الأحيان إلى نتائج متناقضة بطبيعة الحال، يضطرون معها إلى ارتكاب أخطاء أخرى؛ هي القيام بعملية افتراضات وتخيلات ذاتية من أجل الوصول إلى حقائق تاريخية منسقة بطريقة فجة، وقد كانت مثل هذه الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون نقطة الانطلاق في تفكير (ابن خلدون) وتفنيده المرير لأعمالهم وطريقتهم في كتابة التاريخ، وتمييز المجال الاجتماعي والظواهر الاجتماعية وعلاقتها الموضوعية بالأحداث التاريخية من ناحية أخرى[2].

وعليه كان ابن خلدون من أوائل الذين اهتموا بالتعليل الصحيح للتاريخ، وأول من ألف في فلسفة التاريخ، وأحسن من كتب في المجتمعات الفطرية (البدائية) وهو في الحقيقة مؤسس علم التاريخ وموجد علم الاجتماع[3]، أما تعليل التاريخ عند ابن خلدون فيقوم على أساسين:

---

(1) د. عبدالمنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، 1953، ص 23.

(2) د. حمود العودي: التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد العربية ـ دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمني، ص42 ـ 43.

(3) فيما يتعلق بتقييم المفكرين في الغرب لأعمال ابن خلدون ونظرياته، انظر:
فتحية عبد الفتاح النبراوي: علم التاريخ ـ دراسة في مناهج البحث ـ ، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، الطبعة الأولى 1993، ص224.

1 ـ استقراء القوانين المسيطرة على سير التاريخ من حوادث التاريخ نفسها: ليس ثمة قانون خارج عن نطاق حوادث التاريخ يؤثر في تلك الحوادث.

2 ـ الإلمام بأكبر عدد ممكن من العوامل التي يمكن أن تؤثر في تطور المجتمع: إن أحداث التاريخ ترجع عادة إلى أسباب متنوعة متشابكة، ثم يكون لها نتائج كثيرة مختلفة، فدارس التاريخ إذن يحتاج إلى الإلمام بتلك العوامل كلها، ولا يكون ذلك إلا بالنظرة الشاملة في بناء المجتمع، وفي طراز المعيشة ووجوه النشاط الإنساني[(1)].

ولعل هذا ما دفع عدداً من الباحثين المعاصرين المهتمين بتاريخ العرب في تلك الحقبة؛ للدعوة إلى بذل جهود عظيمة لتنقيتها مما يشوبها من تحريف[(2)].

وتأسيساً على ذلك نصل إلى رأي مفاده أن الكتابات العربية التي ظهرت في العصر الإسلامي ذاته، وهو الذي يمثل الفترة المعاصرة التي عايشها أصحاب هذه الكتابات، بقدر ما تفقد في عموميتها القيمة التاريخية اللازمة للاعتماد عليها كمصدر من مصادر التعرف على أحوال شبه الجزيرة العربية في العصور السابقة للإسلام، وذلك لسببين:

الأول: هو معالجة الكتابة عن هذه الفترة بأسلوب الأساطير أو بأسلوب القصص الشعبي الذي لا يدخل في نطاق الكتابة العلمية، وأبلغ مثال على ذلك كتابات كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شرية[(3)]، وعلى الرغم من ذلك قيم د. عثمان موافي طابع الكتابات التي تميز بها الإخباريون فيما يلي قائلاً:

"فهنا وجه إلى المؤرخين المسلمين وإلى منهجهم انتقادات كثيرة، ولكن مهما قيل عن فقدان النقد في كتاباتهم، فإننا نشاطر هذا الباحث المنصف الرأي في أنهم كانوا يطبقون هذا المنهج عن فهم ودراية لمهمة المؤرخ على كتاباتهم التاريخية، وأصبح التاريخ عندهم مجرد رواية لأحداث الماضي، وانحصرت

(1) د. عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ، ص 11، 12.

(2) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ـ عصر ما قبل الإسلام، ج1، الإسكندرية، 1967، ص6.

(3) انظر: وهب بن منبه: التيجان في ملوك حمير، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، بدون تاريخ، كذلك انظر: د. جواد علي: العرب قبل الإسلام، ج1، بغداد، 1950، ص 44 ـ 46.

مهمة المؤرخ في النقل لا النقد، وإحقاقاً للحق، فإن هذا الحكم ينطبق على المعرفة التاريخية عامة في العصور الوسطى، لا المعرفة التاريخية الإسلامية فحسب، ومرد هذا أغلب الظن اتصال المعرفة التاريخية بالمعرفة الدينية منذ نشأتها في البيئة الإسلامية بصفة خاصة، واتصالها بفلسفة الديان في العصور الوسطى بصفة عامة، والمعرفة الدينية على كل حال، معرفة نقلية تثبت بالنقل والسماع وتتطلب القبول والتسليم وعلى هذا فهي ليست في حاجة إلى نقد لأنها فوق النقد"[1].

ثانياً: إن المعلومات الواردة في هذه الكتابات ذات طابع جغرافي: مثل المعلومات التي وردت عند عبيد بن شرية عن بعض مناطق شبه الجزيرة العربية، مثل الأحقاف والحجر ووادي القرى واليمامة، ومنها كذلك كتاب "صفة جزيرة العرب" للهمداني ـ ولعله أهم ما كتب في هذا المجال ـ إذ نجد فيه إلى جانب حديث الكاتب عن الآثار؛ وصفاً جغرافياً لمناطق شبه الجزيرة العربية وأسمائها التي عرفت بها في وقت ذكر المؤلف لها، وقد ساعد تحديد المواقع الباحثين في التعرف عليها سواء بالمقارنة مع ما جاء بالكتب الكلاسيكية التي كانت معاصرة لعصر ما قبل الإسلام أو بالمواقع الأثرية التي لا يفتأ المنقبون الأثريون يكشفون عنها بين وقت وآخر[2].

ومهما يكن الأمر، فقد كانت مختلف تلك الكتابات، التي خلفها لنا الإخباريون العرب المسلمون، والخاصة بقضية الأنساب توضح بما لا يدع مجالا للشك بأنهم صرفوا وقتاً وجهداً عظيمين من أجل توفير المعلومات الخاصة بهذه القضية، وعلى الرغم من تلك الجهود المبذولة في هذه الكتابات، أشارت النتائج بوضوح إلى انخفاض عدد العوامل ذات الدلالة؛ فقد أكد (السخاوي) على حدوث أخطاء في كثير من تلك الكتابات في هذا المجال كنتيجة للجهل، أو التعصب، أو الاعتماد على النقل دون تمحيص وتدقيق، مما ترتب عليه أن تلك الكتابات وضعت من شأن أناس آخرين. ولعل هذا ما دفع

(1) منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي، ص 231 ـ 232.

(2) د. لطفي يحيى: مرجع سابق، ص235 ـ 237. ولإثبات ما ذهبا إليه بهذا الخصوص، انظر: ابن خياط خليفة: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، دار القلم، بيروت، 1977، ص 49 ـ 50.

السخاوي للحديث عن حاجة المؤرخ لمعرفة مقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، حتى لا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع[1].

وفي الواقع فإن ابن خلدون الذي اشتهر بمذهبه النقدي يبدي شيئاً من التردد في قبول هذا الاتجاه عند المؤرخين الإسلاميين، وخاصة فيما يتعلق بتتبع أنساب العرب من جيل إلى الجيل الذي سبقه، وتواصلاً في النهاية إلى بدايات ضاربة في أعماق الماضي، لتشككه كذلك في صحة الأخبار المتعلقة بالعصور العربية الأولى كما رواها من سبقه من الكتاب، ولكنه رغم ذلك يلخص كل ما ورد من هذه الأخبار القديمة، ويحاول أن يرجح بعضها على بعض، كما يقدم لنا تنسيباً مفصلاً للعرب يرتفع بأحد شقيهم إلى قحطان، ويرتفع بالآخر إلى عدنان.

وهكذا لم يستطع ابن خلدون رغم مذهبه النقدي أن يتخلص من وطأة الاتجاه الذي تصدى له فتغور ملاحظاته حسب تعبير باحث معاصر "وسط سيل الأخبار المتضاربة" ويظهر تاريخه لهذه الأجيال من العرب وكأنه تقليدي، لا يختلف كثيراً عن تواريخ من سبقوه[2].

هذا الواقع يفند لنا ماهية تلك النتائج السلبية التي كشفت عنها تلك الدراسات، والتي سعت إلى ضرب من الاتفاق والتآزر بين نتائج باحثين متفرقين يستخدمون المنهج والأسلوب نفسه، في وقت تتباين فيه الأبعاد التي لجأ إليها كل واحد من هؤلاء الباحثين، حيث تكشف في تباينها اختلافاً في الخلفية النظرية التي يصدرون عنها، وخاصة في تصورهم لنوعية الظاهرة موضوع البحث[3].

وعلى هذا الأساس لا يمكننا الاعتماد على مثل هذه الكتابات أثناء دراستنا تاريخ الحضارة اليمنية القديمة. لكن المبالغة في رصد مبلغ ثراء المنطقة اليمنية في مجمل تلك الكتابات دفع الرحالة والمغامرين وعلماء الآثار في أوروبا لزيارة المنطقة اليمنية رغم الأخطار التي كانت تهدد حياتهم منذ القرن التاسع عشر.

ونستطيع القول أنه؛ إزاء النجاحات المتتابعة التي تحققت في هذا المجال

(1) السخاوي: مصدر سابق، ص ص4 ـ 7.

(2) د. لطفي عبدالوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 236.

(3) د. صلاح قنصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، ص 138.

خلال القرن التاسع عشر، وما تم إنجازه من تقدم في مجال الدراسات النقشية اليمنية القديمة؛ تم الاستفادة من المعطيات العلمية والمعرفية التي قدمها العلماء الأوروبيون وغيرهم من خارج أوروبا، وكذا عدد من البلدان العربية، وعلى وجه الخصوص في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين، وقد تجلت تلك الجهود العلمية خلال هذا القرن في الاتجاهات الآتية:

1 ـ تنوع الدراسات اليمنية القديمة وتعدد مجالاتها.

2 ـ انتشار الدراسات اليمنية القديمة خارج نطاق أوروبا.

3 ـ النشأة الأكاديمية للدراسات اليمنية القديمة كعلم مستقل.

4 ـ بروز الإسهامات العلمية للتنقيبات والحفريات الأثرية في الدراسات اليمنية القديمة[1].

وقد مثلت العقود الستة من القرن العشرين استمراراً للقرن السابق في الاتجاهات الأساسية التي خطت نحوها الدراسات اليمنية القديمة، غير أنه يمكن القول إن التنوع والشمول في الدراسات اليمنية القديمة كان من مهمة القرن العشرين، بعد أن تأسست القاعدة العلمية لهذه الدراسات في القرن التاسع عشر.

وقد وصل إلى المنطقة اليمنية عدد من البعثات الأوروبية فيها؛ مثل البعثة الدانمركية أو بعثة الرحالة (كارستن نيبور) عام 1763م، التي استطاعت الحصول على عدد كبير من النقوش، وسجل لنا كتاب (من كوبنهاجن إلى صنعاء 9 حصيلة النتائج التي توصلت إليها هذه البعثة، وأدى نجاح هذه البعثة ـ رغم ما تعرض له أفرادها من مآس ـ إلى استمرار تواصل البعثات إلى المنطقة اليمنية فيما بعد، خاصة بعثة الألماني الدكتور (سيتزن) في سنة 1814م، الذي توفي في اليمن قبل أن تحقق بعثته نجاحاً يذكر، غير أن البعثة الإنجليزية بقيادة الكابتن (ولستد) في سنة 1834 ـ 1835م، تمكنت من اكتشاف نقش (الهجر) أو (حصن الغراب)، كما عثرت على آثار مدينة (ميفعة). ثم جاءت بعثة (فون فريد) عام 1843م وبعثة (توماس جوزيف أرنو) في عام 1843م؛ لتعملا على دراسة اللَّهجات اليمنية القديمة.

على أن أهم البعثات الأثرية التي جاءت إلى اليمن هي بعثة المستشرق

(1) عبدالرحمن عمر عبدالرحمن السقاف: تطور المعرفة التاريخية عن حضارة اليمن قبل الإسلام، رسالة ماجستير، كلية الآداب ـ جامعة عدن، غير منشورة، 2001م، ص 132.

الفرنسي (جوزيف هاليفي) سنة 1870م، وكذا النمساوي (إدوارد جلازر) سنة 1882م، والأمريكي (جون فيلبي) في الثلاثينات من القرن العشرين، فقد تمكن (هاليفي) من اكتشاف ما يقرب من(686 نقشاً)، مكنه من كشف النقاب عن بعض الجوانب المختلفة من تاريخ الحضارة اليمنية؛ وكانت هذه النقوش أول نقوش يمنية يتم إخراجها من اليمن ومن خلالها تم التعريف بحضارة اليمن القديم، وكذا التعريف بحضارة مملكة معين، وتمكنت بعثة (جلازر) من نسخ ما يقرب من (2000نقش). واستطاعت بعثة (فيلبي) من نسخ ما يقرب من (12000نقش) لعل أهمها نقوش العقلة (وهي أهم مجموعة من النقوش الحضرمية)، كما يوجد بينها نقوش لذي نواس الحميري مؤرخة عام 633 بالتقويم الحميري الموافق 518 ميلادية، ونقش أبرهة الأشرم الذي يعود إلى عام 548م[1].

وقد فتحت هذه البعثات الباب على مصراعيه أمام علماء الآثار من مختلف الدول الأوروبية، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية التي أرسلت بعثة لدراسة الإنسان اليمني، وقد استطاعت هذه البعثة زيارة منطقة بيحان، مما مكنها من مشاهدة آثار مدينة تمنع عاصمة مملكة قتبان القديمة، وقد رصد لنا كتاب (كنوز مدينة بلقيس) مختلف النتائج التي توصلت إليها هذه البعثة.

كذلك كانت نتائج الحفريات الأثرية التي قامت بها البعثة الفرنسية بقيادة (جاكلين بيرن) في منطقة شبوة، قد ساهمت في إعطاء صورة واضحة عن حضارة مملكة حضرموت في تلك الآونة.

ويعتبر كتاب (اكتشاف جزيرة العرب) لمؤلفته (جاكلين بيرن) تعبيراً حيًّا للنشاط الثري الذي قامت به هذه البعثة، في اليمن لسنوات طويلة، وعلى السياق نفسه مثلت الأبحاث الخاصة بالبعثة الفرنسية مابين 1986ـ1997م، حجر الزاوية في تطور معرفتنا التاريخية للحضارة اليمنية القديمة.

وفي الوقت الذي كانت فيه البعثات الأوروبية تتسابق لزيارة اليمن في محاولة منها نفض غبار السنين الذي يحجب الرؤية عن المعالم الحقيقية للحضارة اليمنية القديمة، لم يكن للبعثات العربية أي نشاط يذكر في هذا الصدد. وفيما عدا رحلة (نزيه مؤيد العظم) وبعثة (جامعة فؤاد الأول) المصرية، في النصف الأول من القرن العشرين، الأولى لم تخلف لنا سوى ملاحظات عادية عما شاهده الرحالة من معالم وخرائب وبقايا آثار في المناطق اليمنية التي

(1) عبدالرحمن عمر عبدالرحمن السقاف: المرجع السابق، ص 133.

زارها، والبعثة الأخرى كان بين أفرادها العالمان الجغرافي (سليمان حزين) وعالم النقوش (خليل يحيى نامي) وكان حصيلة عمل البعثة (89 نقشا) معظمها من منطقة (ناعط) شمال صنعاء كما قاما بتنقيبات سطحية في قاعدة معبد الإله (تألب ريام) عام 1943م، ونشرت نتائج أعمال البعثة في كتاب (نقوش سامية من جنوب بلاد العرب وشرقها)[1].

بيد أننا نود الإشارة هنا بأن أهم نتائج تلك البعثات الأثرية التي قدمت إلى اليمن، أنها فتحت المجال واسعاً للدراسات العلمية لتلك الحضارة بالاعتماد على النقوش ونتائج الحفريات الأثرية، مما ساعد إلى حدٍ كبير في معرفة حياة الناس وشكل العبادات الدينية، وكيفية تقديم القرابين، وكذا فن العمارة اليمنية القديمة، والعلاقات بين الممالك في تلك العصور، بل وأعطتنا صورةً جليّة لأهم الأحداث التي مرت بها المنطقة اليمنية، ناهيك عن الصراعات التي شملت ممالك جنوب الجزيرة العربية، وفي عهد أي من الملوك. . .الخ.

وقد تميزت الآثار في بلادنا بأن بعضها كان مدفوناً تحت الركام الذي كونته عوامل الطبيعة، وبعضها بقي ظاهراً للعيان، وكان حظ الآثار المدفونة أفضل بكثير من حظ الآثار المكشوفة، لأن أيدي الجهل عبثت بكل ما استطاعت أن تعبث به، فنقلت الحجارة من أماكنها لبناء البيوت، وحطمت التماثيل الرائعة، ونقل بعضها الآخر إلى أوروبا، وأخيراً نهضت بلادنا من كبوتها في مطلع القرن العشرين، ورويداً رويداً بدأ الوعي بأهمية كنوزنا الآثارية، فأنشأت المراكز الخاصة بالآثار، وطورت المتاحف، كما أخذت الجامعات اليمنية بافتتاح أقسام للتاريخ والآثار في كليات الآداب، فضلاً عن المراكز الثقافية، للعمل على المحافظة على الآثار وحمايتها، والكشف عن المطمور منها، وكذا ترميم ما يتم العثور عليه منها وإعادة بنائها. وبهذا الخصوص أود أن تعمل الجهات المعنية على توعية المواطنين في مختلف المناطق اليمنية التي كانت في السابق مراكز حضارية في القديم بأن الآثار الموجودة في هذه المناطق ما هي إلا معالم تدل على عظمة شعبنا وتتحدث عن حضارته، حيث أصبحت الآثار في عصرنا كتاباً مفتوحاً يستقرئ العلماء منه أحوال الشعوب السابقة، وطراز حياتها وتطور تاريخها.

---

(1) د. أسمهان سعيد الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية ـ اليمن القديم ـ ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، سلسلة الكتاب الجامعي (7)، 2002م، ص 69.

وقد يجد العالم في قطعة من الفخار دلائل حضارية لا تقل أهمية عن صرح شامخ أو هيكل عظيم. فالأنباط على سبيل المثال؛ لم يتركوا كتابات كثيرة عن أنفسهم، ولكن علماء الآثار استطاعوا أن يؤلفوا مجلدات هائلة حافلة بالمعلومات المثيرة عن حياة ذلك الشعب النشيط، وقل مثل هذا عن الشعوب الأخرى التي ورثها جيلنا المعاصر[1].

ونستخلص من كل هذا، أن اليمن كانت في الماضي البعيد، مفهوماً حضارياً أكثر من أي شيء آخر، وتراث اليمن القديم بكل أبعاده الحضارية يمثل ثروة وطنية وقومية وعالمية ـ تراث عالمي ـ في وقت واحد. ولقد خلفت هذه الثروة الآثارية الحضارية؛ حضارات متألقة على الصعيد اليمني، تزهو بانتسابها إلى الإنسان المتحضر في سبأ وفي قتبان وحضرموت وأوسان ومعين ثم حمير.

وتنتشر هذه الثروة الأثرية في كل أنحاء اليمن في السهل وفي الجبل، وتُنبيء هذه الآثار بمبلغ مهارة الإنسان وهو يصارع الطبيعة في ندية، طوع بموجبها الوسيلة الحضارية، وأحسن توظيفها في تطويع الطبيعة انتصاراً لحركة الحياة، وتمثل هذا التراث الأثري الغزير في السدود التي طوعت الجريان المائي للري، وفي القصور والحصون والقلاع والقرى في أحضان الريف الزراعي قاعدة المدينة الزراعية، وفي المدن والأسوار والمعابد والتماثيل والنقوش والأواني والمذابح والمباخر والقبور. حتى يفهم كل من يستشعر معنى هذا الثراء وهذا التنوع وهذا الاستمرار في الإبداع الحضاري وتحسين وسائلة وأدواته[2].

---

(1) انظر لانكستر هاردينج: آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، ص7.
ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من النقوش العربية يمكن أن تسمى سجلات تاريخية، على الرغم من أن أغلبها وخصوصاً الجنوبي منها يتألف عادة من أسباب تقديم بعض النذور إلى الآلهة، حيث نجد أن مثل هذه النقوش تستهل باسم مقدمي النذور أو أسمائهم، وثم يليها قائمة بالنعم التي استحق الإله من أجلها النذور، على أن معظم هذه النعم شخصي فاكتسابهم حب سادتهم سبب عام جداً للنذور، والشفاء من مرض، والحصول على المحصول الجيد، وكذا موارد المياه. مثل هذه النقوش لا يمكن أن تعد تاريخية بالمعنى الصحيح، وإن كانت ذات أهمية كبيرة من حيث دلالتها على الأحوال الاجتماعية والسياسية.. ولكن هذا التقديم يصبح ذو أهمية تاريخية عندما يتصل الأمر بخدمة ذات صبغة عامة. د. عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب " فكرة التاريخ، نشأتها وتطورها"، ص115

(2) د. عبدالحليم نور الدين: مقدمة في الآثار اليمنية، منشورات جامعة صنعاء، ص 26.
ولمزيد من المعلومات انظر: د. صادق عبده علي: خصائص النظام الاقتصادي الاجتماعي في اليمن القديم، الثقافة الجديدة، السنة الثامنة عشر، العدد (5)، الحلقة (2)، 1988، ص 59 ـ 81.

وبالاعتماد على كل هذه المصادر نشطت الكتابات عن اليمن في السنوات العشر الأخيرة، وظهر في المكتبات العربية أكثر من كتاب جاد، وبعض هذه الكتب يتحدث عن ماضي هذه البلاد التي ظلت منسية طيلة نصف قرن من الزمان، وبعضها الآخر يعرض الحياة السياسية والثقافية للإنسان الحديث في اليمن المعاصر، ومنها ما هو مؤلف ومنها ما هو مترجم، ومن بين الكتب المترجمة التي استأثرت باهتمامي وأمتعتني فكرياً ووجدانياً كتاب (من كوبنهاجن إلى صنعاء) لمؤلفه الدانماركي (توركيل هانسن) وقام بنقله إلى العربية محمد بن أحمد الرعدي في لغة قوية ومشرقة[1].

وكذا كتاب (كنوز مدينة بلقيس) لمؤلفه ويندل فيلبس، وكتاب (اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة) لمؤلفه م.ب. بيوتروفسكي، فضلاً عن المؤلفات اليمنية القيمة التي عرف بها كل من: د. محمد عبدالقادر بافقيه، ود. يوسف محمد عبداللّه، ود. أسمهان سعيد الجرو، ود. إبراهيم الصلوي، ود. عبداللّه حسن الشيبة، وغيرها من الأبحاث والدراسات الأخرى التي خاضت في هذا المجال.

على أن كل هذا قطرة ماء في محيط واسع، مليء بالألغاز والغموض، لهذا لابد من الاستمرار في العمل في حقل الحفريات الأثرية، حتى نستطيع أن نرسم صورة واضحة المعالم للحضارة اليمنية القديمة، وخاصة ما يتعلق بدورها الإنساني الذي لعبته في العالم القديم، وكلنا يعلم أن معلوماتنا إلى وقتنا الحاضر لازالت تفتقد الكثير من حلقاتها، مما يعيقنا من استكمال هذه الصورة الحقيقية لحضارتنا القديمة.

وفي ضوء هذا فإن أبرز الهموم والمصاعب في كتابة وإعادة كتابة تاريخنا القديم، تتمثل في غياب مرجعية معلوماتية، وبالتالي عدم تنظيم قاعدة معلومات أولية تبدأ من الشروع التاريخي وتتطور مع الزمن، تسجل لنا آلية التطور التاريخي لليمن عبر زمنه التاريخي، فالكثير من النقوش قد تم اكتشافها ودراستها، والكثير من المخطوطات تم تحقيقها ونشرها، غير أن بناء قاعدة معلومات تاريخية متكاملة عن اليمن لم تنجز، وبالتالي أصبح من الصعب معرفة طبيعة واتجاه التطور التاريخي، وعليه فإن إنجاز قاعدة معلومات يعني إيجاد

(1) توركيل هانسن: من كوبنهاجن إلى صنعاء، عن مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب للدكتور عبدالعزيز المقالح، ص(ب).

مرجعية تعين الباحث في فهم وتفسير حقب التاريخ اليمني، وردم الهوة بين النقش والرواية في مرجعيات كتابة تاريخ اليمن.

فضلا عن ضعف المكتبة اليمنية الجامعية، وعدم إجابتها لحاجة الدراسات الأولية والعليا، وهو نقص يظهر في جهود الباحثين وطلبة الدراسات العليا بشكل خاص، ويجعل مسألة بناء أسس وطنية لمكتبة يمنية تؤسس حيث تظهر الحاجة الثقافية والعلمية والبحثية مسألة وطنية يتحمل مسؤوليتها كل يمني سواء كان في موقع القرار السياسي أو التعليمي أو المالي (وأعني به الموسرين اليمنيين)[1]، على أن تتولى الجهات الحكومية المختصة مسؤولية تأسيس هذه المكتبة، أسوة ببقية البلدان العربية التي قطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال.

ثانياً

الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن في العهد الإسلامي

لم تقتصر الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن القديم، بل جاء الإسلام في الحقبة القروسطية، ليعلن عن نفسه كنظام سياسي يمتلك مقومات أيديولوجية، بجانب كونه رسالة سماوية، في مختلف المناطق التي وصل إليها، ومنها اليمن، لهذا أصبحت المؤسسات الجديدة التي جاء بها الإسلام على أنقاض المؤسسات القديمة، لتشكل أداة الحكم والسياسة في المجتمع، لهذا كانت تعاليم الإسلام سواء في الجانب الإيماني أو في التشريعات الاقتصادية الاجتماعية، أو في ما يتعلق في مسألة التشريع، بهدف تنظيم حياة المجتمع على أسس جديدة قائمة على مبدأ العدالة الاجتماعية والمساواة، لكل مواطني الدولة العربية الإسلامية.

لكن جباة الضرائب والولاة كما يحدد ذلك العبدلي "لم يفكروا في إعادة مجد اليمن وتشييد سدودها وإنهاض أهلها، بل كانوا يجتهدون في جمع الأموال من اليمن، وتحصيل الزكاة والخراج، وأخذ الجنود في المساهمة بالفتوحات المجيدة المشهورة في التاريخ، ولم تستفد اليمن من مجد التمدن الإسلامي فائدة تذكر، ولم يتمكن اليمانيون من التفكير في أسباب سقوطهم لأن أمرهم في

---

(1) انظر د. نزار عبداللطيف الحديثي: مشكلات دراسة تاريخ اليمن، مجلة سبأ، العدد 8، ديسمبر 1999، ص194.

يد غيرهم من الحكام المستبدين [1]، لهذا كانت المقاومة الجماهيرية في المنطقة اليمنية ترتكز على مبدأ الغضب الشعبي من مختلف الإجراءات غير العادلة، التي حاول تطبيقها الولاة، الذين أرسلتهم الدولة العربية الإسلامية.

وعلى الرغم من هذا، فإن الكتابة في هذا المجال لازالت تعاني هموماً ومصاعب جمة، إن لم تكن محفوفة بالمخاطر. . .

فقد أدى انقسام المجتمع الإسلامي بعد أحداث معركة صفين بين تيارات وأحزاب سياسية عدة ومتباينة بسبب الصراع حول السلطة إلى بروز ظاهرة خطيرة في جسم الدولة الإسلامية سواء في دمشق أو في بغداد بعد ذلك. ومن ناحية أخرى، فرضت الظروف الموضوعية الجديدة التي عرفتها الحياة العربية بعد الإسلام استخدامات حضارية جديدة لعلم التاريخ في خدمة المجتمع العربي الإسلامي، وإذا كان تأثير الجانب العقيدي قد اتضح في سياق فكرة التاريخ، فإن تأثير هذه الظروف الموضوعية يمكن رصدها من خلال أنماط الكتابة التاريخية التي مارسها المؤرخون العرب المسلمون.

بيد أننا يجب أن ندرك حقيقة أن تطور الاستخدامات الحضارية لعلم التاريخ واتساع نطاق هذه الاستخدامات كان يسير في خط مواز للتطورات التي ألمت بالمجتمع الإسلامي ككل خلال مرحلة نموه الحضاري، وهنا يجب الإشارة إلى أن القرآن الكريم كان من عوامل بزوغ النزعة التاريخية لدى المسلمين، ومثلا كان لفكرة التاريخ في القرآن أثرها في صياغة الفكر التاريخي عند العرب المسلمين على الصعيد النظري، وكان للمادة التاريخية (بل وغير التاريخية) في القرآن أيضاً أثرها على الأشكال والأنماط التي اتخذتها الكتابة التاريخية العربية[2].

ليس هذا فحسب بل إن الأجيال التي أعقبت جيل الصحابة كانت بحاجة إلى معرفة الظروف التاريخية التي نزلت فيها مختلف آيات القرآن من ناحية، والبحث في الحوادث التاريخية الواردة في القرآن من ناحية أخرى. فقد اجتهد المفسرون في تفسير إشارات تاريخية إلى الأمم الماضية والأنبياء السالفين حتى يمكنهم تفسير مضمون آيات القرآن. وإذ لم يكن لدى العرب قبل الإسلام تراث

(1) أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص51.

(2) د. حسين محمد سليمان: المدخل إلى دراسة علم التاريخ، دار الإصلاح للنشر والتوزيع، الدمام، 1404هـ، ص 23.

في مجال المعرفة التاريخية (على مستوى تاريخ الإنسانية العام) يمكنهم من الوقوف على محتوى الإشارات التاريخية في القرآن، فإنهم استعانوا بتراث الأمم الأخرى، التي دخلت الإسلام، ومنهم بطبيعة الحال التراث العبراني والمسيحي، وقد ترك التراث العبراني تأثيره الواضح في ميدان التفسير في تلك الروايات التي عرفت باسم الإسرائيليات[1].

وبعد ضعف السلطة المركزية في عاصمة الخلافة العباسية، بدأت النزعة الإقليمية والرغبة في الاستقلال من جانب بعض الولاة تبرز فوق سطح الأحداث، وتجسدت هذه الحقيقة في تلك الدويلات التي قامت على حساب الخلافة العباسية في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، وعلى المستوى الثقافي برزت بعض المراكز الثقافية الجديدة لتنافس العاصمة بغداد، وازدهر النشاط الفكري في مصر، وحلب، والقيروان، وقرطبة، وأصفهان، وغيرها. وكان التاريخ واحداً من ميادين المنافسة الثقافية، وبدأت تظهر التواريخ المحلية، ثم تظهر تواريخ المدن.

لقد جدت حاجة ثقافية هي منافسة المراكز الثقافية الأخرى، إذ كان المسلمون قد صاروا أغلبية في الأمصار، وأخذت كل جماعة تحاول أن تظهر فضائل البلد الذي تنتمي إليه، واهتمت التواريخ المحلية بذكر كل بلد، على نحو ما تحدث به أبن عبد الحكم حين خصص القسم الأول من كتابه للحديث عن فضائل مصر ونيلها.. ومنذ ذلك الحين فصاعداً بدأت التواريخ المحلية تأخذ مكانها في ميدان الكتابة التاريخية، كما ظهرت مؤلفات أخرى خاصة بتواريخ المدن الإسلامية، وبعض هذه المؤلفات يقع في عدة مجلدات ضخمة تعالج تاريخ مدينة أو أخرى.

ولم يقتصر الأمر على المدن المقدسة، لاسيما مكة والمدينة، وإنما توجهت عناية المؤرخين المسلمين إلى المدن الإسلامية عامة سواء ما كانت منها عاصمة أو مدينة عادية، فظهر تاريخ بغداد للخطيب، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ حلب لابن العديم، وتاريخ أربل لابن المستوفي، فضلا عن تواريخ القاهرة والفسطاط وخططها لابن عبدالحكم، وابن زولاق والأوحدي والمقريزي، وابن ظهيرة، وابن دقماق، والسيوطي وغيرهم[2].

---

(1) د. قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ ـ قراءة في التراث التاريخي العربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص 87.

(2) د. قاسم عبده قاسم: المرجع نفسه، ص 101. انظر كذلك: د. علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص78.

خاصة بعد أن تمكنت بعض الطوائف السياسية من تأسيس دول لها لا تدين بالولاء لمركز الدولة الإسلامية، وبالذات في المنطقة اليمنية، بيد أن هذه الدول لكي تحافظ على استقلالها ومكانتها، وتدافع عنها، كان لابد لها من إقناع الجماهير التي تسوسها، بشرعية سلطتها عليهم، لهذا لجأت إلى استغلال التعاليم الإسلامية لمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية، بعد إعطائها معاني جديدة تتلاءم وتوجهات حكمها، ليس هذا فحسب، بل وأصبحت المبرر الحقيقي لكل إجراءاتها الهادفة لفرض نفوذها المذهبي سواء أكان سنياً أم شيعياً أم خارجياً. . .الخ.

مما كان له أثر بالغ على حياة المجتمع على الصعيد الاجتماعي والثقافي في الدولة الإسلامية بشكل عام، واليمن بشكل خاص، باعتبارها أكثر المناطق التي شهدت تنامي قوة الدويلات المذهبية في إطار الدولة العربية الإسلامية.

لهذا كان لابد لهؤلاء الحكام؛ أن يعملوا على تشجيع حركة التأليف بما يخدم مصالحهم، بل ويبرز أحقيتهم في حكم اليمن برمته، دون الدول الأخرى التي تنافسهم على السلطة والنفوذ. لذا لم تخلُ هذه الكتب من عملية تزوير واضحة للحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ هذه المذاهب، وأهداف نضالها، بل ومجمل إجراءاتها على أرض الواقع مع الجماهير في المناطق التي تمتلك سيادة عليها.

غير أن القاسم المشترك بين مختلف هذه الكتابات هو ازدراؤها الشديد من الحركة القرمطية، حيث تتفق الكثير من الدراسات على اتهام الحركة القرمطية بالزندقة والإباحية والكفر. .الخ، في وقت لم نعثر فيه على أي مخطوطات للحركة القرمطية نفسها، ويعود ذلك إلى أن القوى المعادية لها بزعامة الدولة اليعفرية التي قضت على الدولة القرمطية؛ لم تكتف بذلك بل بادرت إلى إتلاف مختلف المخطوطات والوثائق المتعلقة بالحركة، والتي كان بالإمكان أن تقدم لنا صورة صادقة عن نشاطها وأهدافها وطموحاتها في شتى المجالات، الجدير ذكره في هذا الصدد أن عدداً من الكتابات التاريخية حددت بأن ضياع أو إتلاف التراث الفكري لم ينحصر بالقوى الإسماعيلية وخاصة القرمطية؛ بل امتد ليشمل حركات وقوى أخرى عرفت بعدائها للقوى السنية والشيعية معاً مثل حركة الخوارج[1].

---

(1) انظر: ابن النديم: الفهرست، القاهرة، بدون تاريخ، ص 237.

لكن الحروب القبلية والمذهبية جوبهت بمقاومة عنيفة من قبل جماهير الشعب بزعامة مجموعة من العلماء الذين اشتهروا بنضالهم الديني والقومي بعد أن أعلنوا رفضهم لمختلف الشعارات المذهبية التي تتستر وراءها هذه الدول، دون أن تهتم بمصيرها المظلم في غياهب السجون أو بالموت عن طريق الاغتيال السياسي، ونذكر على سبيل المثال أبي محمد الحسن الهمداني ونشوان بن سعيد الحميري وآخرون غيرهم، ممن عانوا من وطأة الإرهاب كنتيجة لنشاطهم الشجاع في هذا المضمار، وبهذا الخصوص يحتل كتاب "الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332م" بالإضافة إلى كتاب "العقود اللؤلؤية للخزرجي"، وكتاب "صفة جزيرة العرب" وكتاب "الإكليل" لأبي محمد الحسن الهمداني من (عشرة أجزاء)، وقام بتحقيقه كل من محمد بن علي الأكوع ومحب الدين الخطيب، فضلاً عن "شرح القصيدة الدامغة" التي قام بتحقيقها محمد بن علي الأكوع.

وكتاب "بهجة الزمن في تاريخ اليمن" لتاج الدين عبدالمجيد اليماني الذي قام بتحقيقه كل من مصطفى حجازي وعبداللّه الحبشي، وكتاب "الحور العين " لنشوان بن سعيد الحميري تحقيق كمال مصطفى، وكذا كتاب" فتح القدير" و"كتاب نيل الأوطار" و"شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار" للإمام الشوكاني، وكذا كتاب "قرة العيون بأخبار اليمن الميمون" لابن الديبع الذي قام بتحقيقه محمد بن علي الأكوع. . ، وكتاب "المقتطف من تاريخ اليمن" للقاضي الجرافي، وكتاب "تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد" لنجم الدين عمارة اليمني حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع، وغيرها من الكتب والمخطوطات التي سلطت الأضواء على مرحلة من أهم المراحل في تاريخ اليمن الوسيط، لما يكتنفها من الغموض والأساطير. بالإضافة إلى مخطوطات الزعماء المعارضين لسلطة تلك الدول التي اعتمدت الطائفية والمذهبية والقبلية أساساً لحكمها في المنطقة اليمنية أهمية بالغة عند إعادة كتابة تاريخ اليمن في العصر الإسلامي.

وتأسيساً على ذلك، تتمثل أبرز الهموم والمصاعب التي يعانيها الباحثون في هذا المجال عدم توفر مختلف المصادر وبأعداد كافية، فضلاً عن عدم توفر بعض الإصدارات القديمة والحديثة للمراجع التي تتناول تاريخ هذه المرحلة وبأعداد كافية أيضاً في مختلف المكتبات ـ الجامعية بصفة خاصة والثقافية بشكل عام، خاصة المراجع اليمنية الحديثة التي تتمتع بقيمة علمية رفيعة مثل مؤلفات

د. عبدالرحمن الشجاع وغيره، ناهيك عن حساسية الموضوع في هذه المرحلة.

ثالثاً

الهموم والمصاعب في كتابة تاريخ اليمن في العصر الحديث

جاءت الثورة الصناعية في بريطانيا في العصر الحديث، لتفتح عهداً جديداً في تاريخ العالم، خاصة وأن العلاقات الإقطاعية في أوروبا أخذت تشهد تراجعاً سريعاً تواكب هذا، ورغبة الدول الأوروبية في استعمار الشعوب الضعيفة خارج قارتها بعد أن ساهمت حركة الكشوفات الجغرافية في تذليل هذه المهمة. ومن المؤكد أن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً مهماً في دفع حركة الكشوف الجغرافية إلى الأمام. إذ حظي البحارة الذين اتصفوا بالحيوية، بتشجيع الحكومات التي لم تحل مشاكلها الاقتصادية كأسبانيا والبرتغال إلا بالعثور على طريق تجاري جديد للحصول على بضائع آسيا من التوابل كالقرفة والبهار وجوز الطيب، وعلى العقاقير الهندية كالأفيون والصمغ والكافور للاستخدامات الطبية، والعطور العربية كالمسك والعنبر وماء الورد لكثرة حب نساء الأمراء لها، وعلى البخور للكنائس، ثم الحرير والبن والسجاد والأحجار الكريمة، والعاج لتكملة مظاهر الأبهة والعظمة في بلاطات الملوك، وقصور النبلاء.

كما ساهمت فيما بعد حاجة أوروبا الشديدة إلى المعادن الثمينة كالذهب والفضة في اندلاع الكشوفات الجغرافية للخلاص من الأزمة الاقتصادية التي انتابت أوروبا خلال القرن الخامس عشر، وأدت إلى تضاؤل الإنتاج وانكماش المبادلات التجارية وهبوط الأسعار، بالإضافة إلى أن طمع الحكومات الأوروبية في السيطرة وزيادة النفوذ وامتلاك المستعمرات في الأمكنة المكتشفة، أدى بدوره إلى تنافس مستمر طيلة القرن السادس عشر لاكتشاف بقية القارات[1].

ولتأكيد ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، نقول بأن حركة الكشوف لم تبدأ إلا بعد ظهور الكثير من المؤلفات، التي أكدت على الثروات الهائلة التي تمتلكها الشعوب خارج القارة الأوروبية خاصة بعد صدور كتاب "العجائب" لماركو بولو، الذي يتحدث عن الكنوز الموجودة في الشرق، بشكل أسطوري، مما شكل خلفية أساسية لمجيء المغامرين إلى الشرق، مما يؤكد

(1) د. محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي في عصر النهضة، 1982، ص 85 ـ 86.

بأن ملوك أوروبا وبالذات أسبانيا والبرتغال الذين أظهروا اهتماماً بالغاً بالدول المطلة على البحار الشرقية، وكانوا قد سمعوا بثراء الشرق، وكانت الأساطير التي تتناقلها الناس في أوروبا بخصوص غناء هذه المناطق تشعل الحماس لديهم لاحتلالها ونهب خيراتها.

وعلى الرغم من هذا يحاول الكثير من المؤرخين الأوروبيين، عبر مختلف وسائل الإعلام المتاحة لهم، إرجاع عملية الكشوفات الجغرافية إلى عوامل إنسانية، وحضارية، تحملت أوزارها الدول الغربية ابتداء من أسبانيا والبرتغال وانتهاءً بفرنسا وبريطانيا[1].

بيد أن مختلف طروحاتهم بهذا الخصوص ليس لها أساس من الصحة، خاصة إذا أدركنا بأن نشاطات البرتغاليين في المنطقة الشرقية لا تهدف إلى إحداث أي نهضة حضارية في هذه المناطق،، بل على العكس سعت لاستعبادها واستعمارها، باستخدام مختلف الأساليب اللاإنسانية، وقد أكدت مختلف الدراسات ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص عندما أشارت بأن واقع حركة الكشوف الجغرافية والنتائج المترتبة عليها قد كشف القناع الزائف الذي تختفي وراءه الدول الأوروبية وهو فرض هيمنتها على الدول الضعيفة حتى تتمكن من استعباد شعوبها ونهب ثرواتها، لهذا تصنف هذه الدراسات الاستعمار الذي جاءت به هذه الحركة على العالم بأنه استعمار وحشي[2]، وأبلغ دليل على هذا أن البرتغال حاولت أكثر من مرة احتلال عدن ما بين 1513، 1524ـ 1525 م، فضلا عن المحاولات المتعاقبة لاحتلال الأراضي المقدسة في شمال الجزيرة العربية، لكن معظم هذا الاعتداءات باءت بالفشل.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحدد بأن لندرة المصادر الغذائية دور كبير في قيام ما يسمى بالثورة الصناعية في انجلترا في القرن الثامن عشر والتي تعتبر نقطة تحول في التاريخ الأوروبي خاصة، والتاريخ الإنساني عامة، كما لاحظ بعض الباحثين أن نجاح الثورة الصناعية في انجلترا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قام أساساً على وجود كميات كبيرة من الفحم والحديد في

(1) انظر: هيربرت فيشر: أصول التاريخ الأوروبي الحديث ـ من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبدالرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، بدون تاريخ، ص 359 ـ 361.

(2) لمزيد من المعلومات انظر: د. جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج1، المكتب الجامعي الحديث، بدون تاريخ، ص 375 ـ 362.

مناجمها، وهما أهم المواد الأساسية في الصناعة، غير أن نجاح بريطانيا في استغلال مناجمها على النحو الأمثل كان باعثه الزحف المستمر على مناطق الغابات من جانب المزارعين.

وقد أدى التناقص المستمر في مساحات الغابات إلى حدوث أزمة في أخشاب الوقود في بعض المناطق، مما أدى إلى تزايد تكاليف إنتاج الحديد. ولم يكن هناك من خيار سوى أن يبحث الإنجليز عن بديل للخشب كمادة للوقود، ومن ثم تم اكتشاف استخدام الفحم في صهر الحديد وصناعته، مما أدى إلى الحصول على معدن جيد بتكاليف أرخص من ذي قبل، وهذا هو الذي ساعد على بدء عصر الصناعة، أو الحضارة الصناعية[1]، مما أتاح لأوروبا فرصة الهيمنة الاقتصادية على العالم.

ليس هذا فحسب، بل يمكننا القول بأن الكثير من المؤرخين يحاولون إرجاع احتلال العثمانيين للمنطقة العربية بشكل عام واليمن بصفة خاصة لأسباب دينية فقط، في وقت سعت فيه الدولة العثمانية من أجل خلق مؤسسات فكرية تخضع لنفوذها في الأقطار العربية المختلفة، بهدف تبرير هذا الاحتلال على أساس الحمية الدينية، هذا من جانب، وكنتيجة للغزو الاستعماري على دول الشرق من جانب آخر، بالإضافة إلى هذا لعبت مؤسساتها الفكرية المختلفة دوراً هاماً في ترسيخ النفوذ التركي على قاعدة الجبروت والملكية الفردية المطلقة.

فكان لانتشار مثل هذه الأفكار أثره البالغ في عدم تبلور تيار وطني قومي داخل البلدان العربية، حتى وقت متأخر جداً.

على أن مناهج المفكرين السياسيين العرب بدأت بالتغيير منذ ثورة تركيا الفتاة عام 1908ـ 1909م، حيث أخذت تعالج عدداً من القضايا الهامة في حياة المجتمع في تلك الآونة مثل الاستقلال، التحرر، الحرية، . .الخ، وكانت بهذا تدرك أن الاستقلال ـ السياسي أو القومي ـ لن يكون ذا جدوى إلا إذا تحقق للمجتمع التحرر من قضية الاستبداد التركي، وأصبح حراً يمتلك زمام أمره بنفسه.

على أن هذه الفئة من المفكرين السياسيين، كانت تدافع من جانب آخر عن نفوذ الدولة التركية،حينما أخذت الأطماع الاستعمارية تزداد في المنطقة العربية، دون أن تبدي أي اهتمامات بقضية الجماهير، وإمكانية نضالها وجهودها

(1) د. سيد أحمد الناصري: التاريخ وطرق البحث فيه، 1982، ص 75 ـ 86.

في هذا المضمار، مما ولد تزاوجاً في الأفكار لدى هذه الفئة من المستنيرين، فمن جهة كانت تكره تبعيتها للنفوذ التركي، الذي يفرض عليها حياة تخلف وجهل، بينما من جهة أخرى تجد نفسها مضطرة للدفاع عن الإمبراطورية التركية، لأنهم كانوا يرون أن الأخطار الاستعمارية على المنطقة العربية أشد وطأة من النفوذ التركي.

وقد استمر كثير من المفكرين على هذا النحو من التفكير حتى وقتنا الراهن، ولتأكيد ما ذهبنا إليه في هذا الخصوص، نقول بأن كتاب "الفتح العثماني الأول لليمن" لمؤلفه الدكتور سيد مصطفى سالم، وكتاب "الحكم العثماني في اليمن ـ عام 1872ـ1918م" لمؤلفه الدكتور فاروق عثمان أباظة، دليل قاطع على مثل هذا المنهاج، وتأسيساً على ذلك يمكننا الاستدلال على أن هناك تبايناً في تقييم تلك الحقبة وعليه، تكون الكتابة في هذا المجال أحد هموم ومصاعب كتابة وإعادة كتابة تاريخ اليمن، في إطار الدولة العثمانية لأنها تحتاج إلى تدقيق بالغ في اختيار المعلومات، وتحتاج أيضاً إلى تمحيص للوصول إلى النتائج الخاصة بهذه الدراسات.

خصوصاً إذا أدركنا أن الساسة البريطانيين يقيّمون سياسة الأتراك في الولايات العربية بشكلٍ إيجابي آنذاك، بقصد تشجيعها على الاستمرار في هذه السياسة لتأخذ طريقها إلى الضعف والتفكك، ليسهل الانقضاض عليها، وأبلغ مثال على هذا كتاب "ملوك شبه الجزيرة العربية " لمؤلفه هارولد.ف. يعقوب.ك.س. أي الضابط في الجيش البريطاني، والحائز وسام الجوقة الفرنسي، الذي حدد أن سياسة العثمانيين في المنطقة اليمنية يسودها الاستقلال الذاتي، على الرغم من أنه كان يدرك زيف آرائه بهذا الخصوص.

كما أن الكتابة حول تاريخ الإمامة الزيدية، والأحداث التي واكبتها فيما بين 1904 ـ 1948م لازالت محفوفة بالتناقض واختلاف الرأي، بل والتقييم العلمي الناضج للقوى المحركة لتلك الأحداث، وبهذا الخصوص يعتبر كتاب "وثائق يمنية ـ دراسة وثائقية تاريخية " والذي قام بشرحها والتعليق عليها الدكتور سيد مصطفى سالم، بادرة جيدة لدراسة الإمامة الزيدية من المناهل الأصلية.

والحقيقة أن مثل هذه الدراسات، تعتبر تجربة فريدة في هذا المجال، لأنها استطاعت عرض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الجزء

الشمالي ـ سابقاً ـ من اليمن، حتى قيام المملكة المتوكلية اليمنية.

وفي الوقت الذي كانت فيه مدن الشرق تعاني من وطأة العلاقات الإقطاعية، كانت قوى الإنتاج في أوروبا بفعل التطور المتزايد الذي حدث فيها، تشهد تمرداً ضد جميع أشكال نظام الإنتاج القديم، بفعل النشاط الإنساني الذي اتسمت به القرون الماضية، بفضل جميع الناس الذين كانت مصالحهم وأهدافهم، وإرادتهم الفاعلة، ومفاهيمهم المختلفة، تحدد اتجاهات التاريخ وترسي دعامة على الشكل الذي سار عليه.

هذا الواقع خلق صراعاً عنيفاً في أوروبا حسم في النهاية لصالح الطبقة البورجوازية لأن الحد الفاصل بينها وبين الجماهير كان من الممكن تخطيه أمام حاجة الطرفين للإطاحة بالنظام الإقطاعي الاستبدادي. خاصة أن شعارات البورجوازية في الثورات كانت تنطوي على عبارات الحرية والمساواة والعدالة، فتظهر وكأنها مصالح المجتمع برمته[1]، إذن فنتيجة لجهود الفلاحين والبروليتاريا أحرزت البورجوازية انتصاراتها الساحقة في معاركها الثلاث الكبرى: الإصلاح البروتستانتي، والثورة الإنجليزية، والثورة الفرنسية، بحيث أصبحت البورجوازية وهي على أبواب القرن التاسع عشر سيدة الموقف في أوروبا[2]. فعلى قاعدة مصالحها ساد أسلوب الإنتاج البورجوازي الذي تحدد على أساسه أشكال المؤسسات السياسية، والمفاهيم الفكرية التي بدت مخيبة لآمال الطبقة الشعبية بالمقارنة مع الوعود التي أغدقتها البورجوازية عليها[3].

ولكن باشتداد رجعية الطبقة البورجوازية التي انتقلت من عصر الرأسمالية إلى عصر جديد تمكنت فيه أوروبا من استعمار معظم أقطار الكرة الأرضية هو عصر الإمبريالية[4]؛ انطلقت ثورة أكتوبر الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، لتعلن ولوج العالم مرحلة جديدة في تاريخه المعاصر، خاصة وأن

(1) انظر: ميلاد القرحي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ـ من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، ليبيا، 1995، ص ص114 ـ 115.

(2) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:
عبدالمجيد عبدالعزيز نوار البطريق: التاريخ الأوروبي الحديث ـ من عصر النهضة إلى أواخر القرن التاسع عشر، بيروت، 1979، ص 39 ـ 59.

(3) د. محمد مخزوم: مرجع سابق، ص 297.

(4) انظر: د. يونان لبيب وآخرون: تاريخ أوروبا في عصر الإمبريالية، دار الثقافية العربية، القاهرة، 1982، ص 38 ـ 98.

مرحلة الخمسينات والستينات شهدت اشتداد حركة التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وشكلت الثورة اليمنية في الشمال والجنوب؛ أحد الأعمدة الأساسية في تاريخ الثورات على مستوى قارة آسيا بشكل عام، والوطن العربي بشكلٍ خاص.

وتأسيساً على ذلك فإن أبرز الهموم والمصاعب عند كتابة تاريخ اليمن في العصر الحديث، تتمثل في اختلاف الرؤى النظرية التي تتناول تاريخ الشعوب في القارة الأوروبية من جهة، وتاريخ الأمة العربية من جهة أخرى.

على صعيد القارة الأوروبية يمكننا قراءة تاريخها منذ أواخر العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، من خلال الحراك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري، الذي ترتب عليه ظهور تطورات مهمة وخطيرة فيها، مثل النهضة الأوروبية الذي كان أبلغ تجسيد لها تنامي حركة الانبعاث الحضاري، التي اهتمت بإحياء تراث الحضارة الكلاسيكية ـ اليونانية والرومانية القديمة ـ وفق أسس علمية جديدة عكست نفسها على تطور الأدب والفن، والنظر إلى الإنسان وفق هذا المنظور الجديد، بما يحقق رفاهيته وسعادته وحضارته، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد الشعور الوطني ـ القومي ـ عند مختلف الشعوب الأوروبية.

وقد استغل الحكام والملوك هذه التوجهات النامية عند شعوبهم لخدمة المصالح الاقتصادية وترويج الصناعة والتجارة الوطنيتين، كما أدى تواصل الحراك الاجتماعي ـ السياسي في أوروبا إلى نشوب الثورة الفرنسية على أسس فكرية جديدة في الإطار القومي والاجتماعي، مثل القضاء على السلطة الإقطاعية وإسقاط الحق الإلهي للحكام والملوك، وقيام الدولة القومية على أساس تشخيص الشعب للدولة وليس للحاكم، فضلا عن المبادئ الأخرى التي نادت بها الثورة الفرنسية مثل: العدل والمساواة والحرية والإخاء... الخ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت الدول الأوروبية الأخرى تعلن اعتناقها تلك المبادئ الإنسانية، مما شكل أحد الأعمدة الأساسية التي قامت عليها الثورة الصناعية التي دفعت بالقوى البورجوازية إلى سدة السلطة السياسية والاقتصادية في أوروبا في بادئ الأمر، وعلى مختلف أقطار العالم في القرن العشرين[1].

---

(1) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:
د. عبدالعظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص34 ـ 43.

على النقيض من ذلك، تتفق معظم الدراسات التاريخية أن وقوع اليمن وباقي بلدان الوطن العربي تحت دائرة النفوذ التركي، وإن كان قد حماها من الاعتداءات البرتغالية والإسبانية، فقد كرس فيها مظاهر التخلف والجهل، وصبغ حياتها في شتى المجالات بطابع الركود والسكون، حتى إذا ما استقلت عنه بعد الحرب العالمية الأولى وهي أكثر ضعفاً، لم تتمكن من الصمود في وجه القوى الاستعمارية القادمة من غرب أوروبا، فكانت الفريسة السهلة أمام الاستعمار الوحشي لبلدانها. ومن هذا المنطلق يمكننا تصنيف هذه الحقبة من التاريخ العربي بصفة عامة، والتاريخ اليمني بصفة خاصة بأنه يمثل (عصور الظلام).

ولعل هذا ما دفعنا إلى دراسة أوضاع اليمن في العصر العثماني باعتباره يمثل جزءاً من عصر الإسلام، خاصة وأن كثيراً من الدراسات والأبحاث ـ التي تطرقنا إليها في صفحات سابقة ـ حاولت تقييم الوجود التركي في الوطن العربي بأنه تواصل لحركة الفتوحات الإسلامية التي قامت بها الدولة العربية، حتى نتمكن من رسم صورة واقعية لأوضاع الشعوب الإسلامية، في ظل الدولة العربية والتي اتسمت بالنهضة الاقتصادية والحضارية، وبين وضع العرب في ظل الدولة العثمانية وما ترتب عليها من تدهور خطير في مجمل أوضاعها الاقتصادية والقومية والدينية. . . الخ.

رابعاً

الهموم والمصاعب
في كتابة تاريخ اليمن المعاصر

شهدت المملكة المتوكلية اليمنية ثورة عارمة في 26 سبتمبر1962م، حيث أعلنت الجماهير اليمنية بقيادة تنظيم الضباط الأحرار ثورة شعبية حظيت بدعم كل القوى المحبة للحرية والتقدم، بعد أن رزحت اليمن عهداً من التخلف في أحضان السلطة الإمامية، التي أسس قاعدتها الإمام يحيى، وأرسى دعائمها الإمام أحمد.

وعلى الرغم من هذا، كانت الكتابات حول ماهية الثورة وأهميتها، وأهدافها الوطنية التقدمية، لا تحظى بأي أهمية، باستثناء كتاب عبداللّه جزيلان "أسرار الثورة اليمنية"، الذي قوبل بنقد لاذع ليس من قبل رفاقه في التنظيم العسكري، ولكن أيضاً من قبل المؤرخين الذين خاضوا غمار تجربة الكتابة في هذا الموضوع الحيوي المهم.

لكن تطور الأوضاع في اليمن، دفع مركز البحوث والدراسات اليمني في صنعاء بإشراف أستاذنا الفاضل الدكتور عبدالعزيز المقالح، لكي يتصدى لهذه المهمة، فقام بإقناع الباحثين المتخصصين بالإضافة لمن كان حياً من قادة تنظيم سبتمبر، للكتابة حول الحركات الاجتماعية والسياسية في اليمن قبيل ثورة سبتمبر وأثنائها وبعدها. ونذكر على سبيل المثال بعض الكتب التي قام مركز الدراسات والبحوث اليمني بالإشراف على طباعتها مثل كتاب "حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين" لمؤلفه الدكتور أحمد قائد الصائدي، وكتاب "ثورة 1948م ـ الميلاد والمسيرة والمؤثرات" الذي أعده مركز الدراسات نفسه، وكتاب "ثورة اليمن الدستورية" تأليف لجنة ضباط رؤساء القيادة العسكرية لثورة 1948، ، وكتاب "ثورة 26 سبتمبر ـ دراسات وشهادات للتاريخ ـ تأليف لجنة من تنظيم الضباط الأحرار، فضلاً عن المؤلفات الأخرى التي تناولت تاريخ المقاومة اليمنية أثناء حصار صنعاء، وغيرها من الكتب التي عالجت قضايا التاريخ اليمني في مختلف عهوده.

ولكننا نود أن نشير بأن مختلف هذه الدراسات والأبحاث لا تزال في طور التجميع، إلى وقتٍ تنضج فيه الظروف لتحليل هذه القضايا وفق أسس سليمة.

وعلى الرغم من هذا، كانت الدعوة لإعادة كتابة التاريخ اليمني المعاصر تؤكد اهتمام القيادة في الوطن اليمني بكتابة تاريخ الحركة الوطنية في اليمن وما آلت إليه من أحداث جسام تمثلت باشتعال فتيل الثورة الشعبية التي قضت على أوكار الرجعية في الشمال، وركائز الاستعمار البريطاني في الجنوب، بطريقة علمية مسؤولة.

على أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى أن إعادة كتابة تاريخ تطور المجتمع اليمني بشكلٍ عام، والثورة اليمنية بشكلٍ خاص في جنوب اليمن قد اتخذ شكلا مغايراً لما كان عليه في الشمال، قبل إعلان وحدة الوطن اليمني في مايو 1990م، حيث لم تلعب الأجهزة الثقافية في جنوب اليمن ـ جامعة عدن، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، مركز البحوث التربوية. . . الخ ـ دوراً بارزاً في هذا المضمار، كنتيجة للظروف الصعبة التي كانت تعمل في ظلها هذه المؤسسات، فضلا عن المصاعب المادية التي عرقلت أعمالها من أجل نشر ثقافة وطنية في المجتمع.

كما أن أشد ما يؤسفنا عدم تواجد الوثائق الخاصة بتاريخ نضال الجبهة القومية في الفترة ما بين 1963 ـ 1969م، في المراكز الثقافية المذكورة آنفاً في

حين أن آلاف الوثائق توجد بحوزة المناضلين الذين عاصروا تلك الأحداث، ولم يتم تسليمها إلى المراكز الثقافية والعلمية بغرض المحافظة عليها من الضياع والتلف، حتى تكون في متناول الباحثين اليمنيين، الذين سيتخصصون في كتابة تاريخ الثورة اليمنية، بهدف اكتشاف السمات الخاصة بهذه الثورة، على ضوء واقعها المعقد خلال تلك المرحلة، خاصة وأن الجبهة القومية كان لها نظام صارم في عمل الخلايا إبّان نضالها السري ـ العلني، مكّنها من الاستمرار في النضال حتى تحقيق الاستقلال الوطني في 30 نوفمبر1967م.

بل نستطيع القول بأن نظام السرية بكل خصائصه كان وراء صمودها، حتى في أحلك المؤامرات، التي عانت منها الجبهة القومية، وبالذات عقب صدور قرار 13 يناير 1966م بشأن الدمج القسري، لأن الجبهة القومية استطاعت بفضل نظامها هذا إبقاء قاعدة عريضة من مناضليها بعيدين عن أنظار حلفائهم وأعدائهم في آنٍ واحد، في وقت كانت عناصر جبهة التحرير معروفة لقيادات وقواعد الجبهة القومية، بل والاستخبارات البريطانية، مما ساهم في ضعف جبهة التحرير وتلاشي دورها السياسي فيما بعد على مستوى الساحة السياسية بُعَيْد الاستقلال الوطني.

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول بأن الجبهة القومية استطاعت بفضل التجربة الناضجة القائمة على نظام القنوات والمراتب، بالإضافة إلى سرية العمل في الخلايا داخل عدن وخارجها، من أن تحقق نجاحاً عظيماً في نضالها، ضد الاستعمار وعملائه على صعيد مختلف الجبهات.

وعليه كان لابد للباحثين داخل اليمن وخارجها، من الإطلاع عليها وترجمتها في واقع أبحاثهم، حتى تتمكن بعض الحركات الثورية في قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية آنذاك، من الاستفادة من هذه التجربة في واقع نضالها في بلدانهم، خاصة تلك البلدان التي تتشابه ظروفها الاجتماعية ـ السياسية، مع ظروف تلك الحقبة من تاريخ تطور الحركة الوطنية في الجنوب اليمني.

لهذا اتسمت الكتابة في تاريخ الثورة اليمنية قبيل الوحدة المباركة، على أن معظمها ثمرة للجهود الشخصية، بينما صدرت بعض هذه الكتابات تحت إشراف حكومي أو حزبي، على أن قرار تشكيل لجنة لإعادة كتابة تاريخ الثورة اليمنية في الجنوب في النصف الثاني من الثمانينيات في القرن الماضي، كانت ستترك أثراً سيئاً، لأن مثل هذه الكتابات سوف يغلب عليها الصبغة الحزبية، لأنها ستلجأ في

مؤلفاتها إلى الاستفادة من واقع تجربتها السابقة في هذا المضمار، والقائمة على التنافس القبلي، الذي حدد آفاق ومصير الثورة في ظل أوضاع تمايزت بالصراعات الدورية بين أجنحتها المختلفة، لكن هذا لا يعني مطلقاً أن المؤرخين لم يخوضوا تجربة الكتابة في مرحلة النضال المسلح، وحتى وقتنا الحاضر، حيث ظهرت كتابات متعددة في هذا المجال، مستندة على بعض وثائق الجبهة القومية، التي تم الحصول عليها بطريقة أو بأخرى، بل كانت وثائق ومنشورات الأحزاب السياسية في مدينة عدن، مادة خصبة استفاد منها الباحثون في تاريخ الثورة اليمنية والذين شكلت كتاباتهم أرضية فعلية لمجمل الكتابات المستقبلية.

لكن الواقع الثقافي والأكاديمي والعلمي، بعد قيام دولة الوحدة 1990م، أخذ يشهد تغيرات جذرية عكست واقع المتغيرات السياسية والاجتماعية في اليمن، ففي الإطار السياسي انتقلت السلطة من الطابع الشمولي القائم على مركزية الحزب الواحد، إلى التعددية السياسية والحزبية، حيث أصبح بمقدور كل القوى أن تعبر عن أهدافها وطموحاتها، ورؤيتها لمستقبل اليمن. بينما في الميدان الاجتماعي انتقلت السيادة الاجتماعية من قوى قبلية محدودة في كل شطر على حدة، إلى قوى جديدة تمثل كامل تراب الوطن.

لهذا كان من الطبيعي أن تتجسد هذه المتغيرات في الواقع الثقافي الجديد، من خلال السماح بالتعددية الثقافية، التي تسمح باستقبال الساحة الثقافية اليمنية لكمية كبيرة من الكتب والأبحاث والدراسات، كان يحظر دخولها إلى اليمن قبل ذلك. في وقتٍ أدى فيه انتشار دور النشر، وتعدد المراكز الثقافية، فضلا عن التطورات المذهلة التي شهدتها الجامعات اليمنية، وبخاصة جامعتي صنعاء وعدن، إلى توفر المناخات المناسبة لدفع البحث العلمي في اليمن خطوات إلى الأمام، خاصة بعد فتح مجال الدراسات العليا في مساق الماجستير في معظم التخصصات.

المأخذ الوحيد لنا في هذا الخصوص، أن تصاعد الطموح الأكاديمي ـ العلمي لدى هذه الجامعات ـ صنعاء وعدن ـ لتدشين العمل في مساق الدكتوراه في برنامج الدراسات العليا، يتمثل في كون الحركة العلمية والثقافية في بلادنا لا تزال تعاني ـ فضلا عن افتقادها للشروط الحضارية ومؤسسات المجتمع المدني، وعدم ارتفاع نسبة الإنفاق المالي على تطوير البحث العلمي ـ لفقر حاد في مكتباتها، الأمر الذي يترتب عليه بصفة دائمة وجود تخلخل في بنية القاعدة المعرفية والمعلوماتية في مختلف العلوم المراد دراستها.

وفي ضوء هذا سيؤدي عدم تراكم المعلومات والمعارف بشكل متدرج ومتسلسل إلى عدم الاستفادة من أطروحات الدكتوراه، التي سيتم إجازتها في الجامعات اليمنية، وعليه نعتقد أن على الجامعات اليمنية قبل الشروع في افتتاح برنامج الدكتوراه في كلياتها، أن تعمل على تشكيل لجان علمية تنحصر مهامها في حصر المصادر والمراجع والأبحاث، والدراسات اللازمة، وشرائها إن كانت متوفرة في الأسواق. أو تصويرها إن لم يكن هناك مجال لشرائها، خاصة في التخصصات التي ستشملها الدراسة في مساق الدكتوراه، في بادئ الأمر، ثم الاهتمام بتوفير المستلزمات العلمية للتخصصات الأخرى.

خاصة وأننا ندرك أهمية تراكم المعارف والمعلومات، للخروج بالاستنتاجات الجديدة في أي من الموضوعات التي تم بحثها في الماضي.

وفي ضوء تجاربنا المتواضعة في هذا المضمار، يمكننا القول أن فقر المكتبات الثقافية والجامعية، قد عرقل من عملية الخروج باستنتاجات جديدة أسوة بالأبحاث الأخرى، التي يتم إعدادها في الجامعات العربية، حيث نكتشف بعد مجهود مضني في كتابة أحد الأبحاث، بأن الاستنتاجات التي استخلصناها منها، قد تم تسجيلها قبل سنوات طويلة في مؤلفات لم تكن في متناول الباحث اليمني.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة نرى أن معالجة مثل هذه الإشكاليات سوف يؤدي إلى التخفيف من حدة الهموم والمصاعب، عند كتابة وإعادة كتابة تاريخ اليمن في مختلف الحقب التاريخية.

الخاتمة:

ونستخلص من ذلك، أن التطور الإنساني في عصرنا الراهن، شهد انتقال المجتمعات من حياة البدائية والتخلف وشيوع الأسطورة، والقبلية إلى عالم الحضارة والتقدم العلمي والمدنية، نتيجة نضال طويل ومتواصل ضد الطبيعة والتقاليد والعادات البالية لدى الشعوب في مختلف القارات.

ومن المفارقات المدهشة أن القارة الأوروبية التي كانت تعيش عصور الظلام في القرون الوسطى، استيقظت من غفوتها، وأخذت شعوبها تسعى لبناء حياتها من منظور مختلف عما كان سائداً في السابق، سواء من خلال نبذ التعصب الديني أو السياسي، أو من خلال تعميم التقاليد الحضارية والمدنية، التي تتناقض مع الحياة السياسية القائمة على الدكتاتورية والانفراد بالسلطة، عن طريق إشاعة الحياة الديمقراطية، وخلق وعي شعبي يدافع عنها، ويدرك أهميتها

في شتى نواحي حياته، تمشياً مع مبدأ التداول السلمي للسلطة، أو من خلال مختلف الدساتير التي تنظم شؤون المجتمع.

أما في الشرق، فقد أخذت الدول العربية والإسلامية التي كانت تعيش نهضة حقيقية، وتتمايز بإنتاجها العلمي والثقافي الذي حفظ تراث الإنسانية جمعاء من التلف والضياع، تصاب بالانهيار والتمزق والضعف إلى درجة أن معظم البلدان العربية والإسلامية وقعت في قبضة الاستعمار العالمي.

ونستدل من ذلك أن الاحتلال الأجنبي للوطن العربي، لم ينجح في تحقيق أهدافه إلا في المراحل الحرجة التي عانى فيها من حالة الارتباك السياسي، فضلا عن ضعف البنى الاجتماعية ـ الاقتصادية بداخله، وافتقاده لمشاريع حضارية مستقبلية.

وفيما يتعلق بالمنطقة اليمنية، ظلت العلاقات القبلية والطائفية والمذهبية، تشكل عاملاً جوهرياً في تمزيق أوصالها وتشتت قواها، خاصة وأن المنطقة اليمنية عاشت عهوداً طويلة من الظلم والاسترقاق، تعاني من ويلات الاستعباد والاحتلال، وهذا ما دفعها للنضال من أجل استئصال هذا النفوذ الأجنبي، لكنهم فشلوا في هذه المهمة، مما اضطرهم في العصور القديمة إلى الاستنجاد بالإمبراطورية الفارسية، وكانت النتيجة احتلال الفرس للمنطقة اليمنية، وعندما لم تستطع المقاومة الشعبية اليمنية طرد الفرس، سارعوا إلى اعتناق الدعوة الإسلامية لما سمعوه عن المبادئ الإسلامية السامية التي جاء بها الإسلام، وأيضاً على أمل التحرر من نير الاحتلال الفارسي. . .الخ؛ لكن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها، ولم تكن في حاجة إلى عداوات جديدة، لذا أراد الرسول ﷺ إبقاء الأوضاع كما هي عليه ـ خاصة بعد اعتناق الفرس للإسلام أيضاً ـ في مختلف المناطق اليمنية التي دخلت في إطار الدولة العربية الإسلامية الناشئة كنتيجة لأسباب سياسية خاصة بها، دون إحداث أي تغيرات في إطارها، مما أغضب الأرستقراطية اليمنية التي أعلنت حركتها الارتدادية عن دين الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وبعد استتباب الأمر للدولة العربية الإسلامية، أخذت المقاومة اليمنية تزداد اشتعالاً في كل مراحل تاريخ الإمبراطورية العربية الإسلامية (في عهدي بني أمية وبني العباس) حتى تمكن عبدالله بن زياد من الاستقلال باليمن عن الدولة العباسية في سنة 818 ميلادية بمساعدة اليمنيين له.

لكن الإجراءات القاسية التي قام بتطبيقها خلفاء عبدالله بن زياد، دفع

اليمنيين لتأسيس بعض الدول المستقلة في المنطقة اليمنية ما بين 818 ـ 1538م، على أمل تحسين ظروف حياتهم في مختلف مجالات الحياة.

بيد أن استمرار الحروب الداخلية بين الدول المستقلة، بالإضافة إلى تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، دفع الجماهير للاستنجاد بالدولة الأيوبية في مصر في البداية، ومن ثم بالدولة العثمانية بعد ذلك، وإن كان للعثمانيين دوافعهم الخاصة من وراء استجابتهم لاستغاثة الدولة الطاهرية في عدن ولحج وأبين، وهذا ما تؤكد عليه مختلف الكتابات التي خاضت في هذا الموضوع، خاصة ما كتبه كل من: سيد مصطفى سالم، وفاروق عثمان أباظة، وقد ظلت هذه الوضعية ترافق حياة اليمنيين حتى تاريخهم المعاصر. فمن المعروف أنه قبيل ثورة 26 سبتمبر 1962م، اتصل تنظيم الضباط الأحرار بالحكومة المصرية لمعرفة موقف جمال عبدالناصر إذا ما نجحت الثورة في اليمن.

كما أن ثورة 14 أكتوبر 1963م في جنوب اليمن؛ لم تنفجر إلاّ بعد مضي أكثر من عام على انتصار ثورة 26 سبتمبر، وفي وقت كانت تدرك فيه بأن دعماً دولياً يقف إلى جانبها، بل وسيقدم لها كل ما يحتاجه نضالها لطرد الاستعمار البريطاني من أراضيها، وذلك لأسباب ذاتية موضوعية، الأمر الذي ترتب عليه انتصار الثورة واستمرار بقائها، كما أشارت إلى ذلك مختلف الوثائق الخاصة بالجبهة القومية، على أن قولنا هذا يجب أن لا يفهم منه؛ أن النضال التحرري لشعبنا اليمني خلال مسيرته التاريخية، كان يعتمد على الدعم الخارجي فقط، بدليل أن ثورة 14 أكتوبر في جنوب اليمن استمرت في قيادة العمل الثوري بعد انقطاع الدعم والمساعدات الدولية عنها عقب انفصال الجبهة القومية عن جبهة التحرير بعد مؤتمر (خمر) في نوفمبر 1966م، وحتى تحقيق الاستقلال الوطني.

كذلك استطاعت الثورة السبتمبرية في الشمال الصمود أمام الاعتداءات الرجعية الاستعمارية على أراضيها بعد انسحاب القوات المصرية من اليمن، ليس هذا فحسب، بل استطاعت الجماهير الشعبية أن تحول دون سقوط صنعاء في حصار السبعين، بعد أن ظنوا بأنها لن تتمكن من دحر قوات المتآمرين عنها.

وقد تمكن الشعب اليمني من تتويج انتصاراتها العظيمة بعد إعلانه الوحدة المباركة في 22مايو 1990م، حتى تتمكن اليمن من استعادة دورها الاقتصادي والحضاري المتميز في عالم يعج بالفوضى والفتن.

الباب الأول

الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم

الفصل الأول: مظاهر النهضة الاقتصادية في اليمن القديم

الفصل الثاني: مظاهر النهضة الحضارية في اليمن القديم

الفصل الثالث: مظاهر النظام السياسي والاجتماعي في اليمن القديم

الفصل الرابع: المقاومة اليمنية للغزو الحبشي الأول

الفصل الخامس: قصة أصحاب الأخدود

الفصل السادس: المقاومة اليمنية للاحتلال الحبشي الثاني

خاتمة الباب الأول

الفصل الأول

مظاهر النهضة
الاقتصادية في اليمن القديم

تمهيد

*** نشوء الممالك اليمنية القديمة**

أولاً: العلاقات الزراعية

ثانياً: الصناعات الحرفية

ثالثاً: العلاقات التجارية

تمهيد

تمتع اليمنيون في مختلف مناطقهم في العهود القديمة بالثراء العظيم من جراء تلك الحضارة التي شيدوها، وأحكموا بناءها على صرح من العلوم المختلفة، التي اشتهرت بها، بل وكانت عنواناً على مدى الرقي الذي بلغته. وعندما نعود إلى التاريخ القديم نجد أن المؤرخين العرب يذكرون اليمن ويقصدون بها القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، الممتدة من الخليج العربي شرقا حتى البحر الأحمر غرباً[1]، ومن أواسط الجزيرة العربية شمالا حتى البحر العربي والمحيط الهندي جنوبا. وكانوا يذكرون (عمان) أنها مخلاف من مخاليف اليمن. أما المؤرخون من القدماء اليونان فيذكرون اليمن - في الإطار العربي الواسع لشبه جزيرة العرب -. . . وهم بذلك يعنون البلاد الواقعة بين خليج العرب في الشرق والبحر الأحمر من الغرب والبحر العربي من الجنوب[2].

كما عرفت اليمن عند الجغرافيين القدماء بأنها (الأرض العربية السعيدة) لما عرفت بها من خير عميم، وثراء تجاري وفير، لموقعها على طريق اللبان التجاري البري بين سواحل البحر العربي وسواحل البحر المتوسط، ولم تكن اليمن لدى العالم القديم واضحة الحدود والمعالم، فربما كانت هي الهند عندهم أو الحبشة، أو بلاد (التبت) أو جزيرة العرب كلها أو جنوبها، أو الجنوب الغربي منها، وكان اليمنيون أنفسهم يحرصون على الاحتفاظ بأسرار تجارتهم قدر الإمكان فيما بينهم. فكان القدماء في حوض البحر المتوسط يسمعون عن وفرة ثراء اليمن، وجودة بضائعها، ولكنهم يجهلون الكثير عن موقعها، وربما كان جل علمهم أنها تقع إلى الجنوب وهي آخر اليابسة، أو آخر الأرض المعمورة، حيث يوجد المر والكاسيا والقرفة

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، تحقيق نبيل خالد، دار الكتب العلمية، بيروت، 987، ص7.

(2) عبدالله أحمد الثور: مختصر من تاريخ اليمن، دار الهناء للطباعة، 1983، ص12.

وأشجار اللبان التي لا تسوق في مكان غيرها، وتحرسها الثعابين[1].

وذكر المؤرخ (بلينيوس) الروماني في القرن الأول الميلادي شرحاً يتعلق بهذه التسمية، قال: كسبت بلاد العرب صفة (سعيدة) لأنها فياضة بحاصلات يستعذبها أهل الترف ويباهون في اقتنائها، جهازاً لموتاهم ـ ويقصدون بذلك اللبان[*] ـ إلى أن يقول: هكذا انصرف المترفون إلى حرق هذه الحاصلات أمام أجساد أعزائهم الراحلين إلى دار الفناء بعد أن كان استعمالهم قبل ذلك ينحصر في مواسم العبادة لآلهتهم. . ويبتز الهند وقبائل سارا، وعرب الجزيرة، من أموال إمبراطوريتنا مبلغ مليون (ستريسه) ـ النقد الروماني القديم ـ في كل حول ـ هذا على أقل حساب، وتلك ثروة طائلة نبذرها على هوى مترفينا ونسائنا[2].

ومن هذا المنطلق نحدد أن تسمية اليمن جاءت من الاسم القديم. . (يمنت) أو (يمنة)، الموجودة في النقوش القديمة، غير أن المؤرخين اختلفوا في تفسير معنى هذه التسمية، وأصولها العريقة.

وفي الواقع جاءت الحضارة اليمنية على أنقاض العلاقات القبلية بفعل مختلف العوامل المحيطة بالإنسان اليمني، المناخ، التضاريس، الموقع الجغرافي. . . الخ لكي تدفعها إلى أولى خطوات التقدم نحو بناء الحضارة، تجسد ذلك عن طريق نشأة المدن، باعتبارها نقطة البداية في تكوين الحياة الاجتماعية، ومن ثم تكوين الدولة، وما يرتبط بها من تطور.

وبهذا الخصوص يؤكد علماء الاجتماع أن انتصارات الإنسان على الطبيعة والبداوة لم تبدأ إلا بعد أن قام الإنسان بتأسيس المدن التي أدت إلى اختراع القوانين والنظم السياسية والاقتصادية لحماية الجماعات الكبيرة التي لم تعد أعراف العشيرة والقبيلة من القرية كافية لحمايتها ورعايتها من صخب المدينة واضطرابها، ولهذا فقد ارتبط اسم المدينة بالتمدن والتمدين[3].

---

(1) د. يوسف محمد عبدالله: تسمية اليمن ب ـ اليمن، اليمن الجديد، العدد (5)، وزارة الإعلام والثقافية، صنعاء، أغسطس 1985م، ص16.

(*) حول أهمية اللبان في الحضارات القديمة، انظر: عبدالقادر الغساني: أرض اللبان في سلطنة عمان، عمان، بدون تاريخ، ص 205.

(2) عدنان ترسيسي: اليمن وحضارة العرب ـ دراسة جغرافية كاملة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص15 ـ 16.

(3) د. عبدالعزيز المقالح: صنعاء القديمة، صورة وصفية من الذاكرة، مجلة الإكليل، العدد 2 ـ 3، صنعاء، 1983، ص7 ـ 8.

ومن الواضح أن اتحاد القبائل في نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد تحول إلى دولة، نتيجة لتطور وسائل الإنتاج، ونمو التفاوت في الممتلكات وظهور الملكية الفردية للأرض، كما أن بناء المدن الكبيرة والمعابد ومنشآت الري في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وكذلك النقوش التي تم نحتها بصورة رائعة على الحجر والبرونز والتماثيل البرونزية للنبلاء وغير ذلك، يجعلنا نؤكد بثقة أن سبأ في هذه المرحلة قد شهدت تكون المجتمع الطبقي والدولة[1].

وقد أطلق بيستون وصف (ثقافة صيهد) على الحضارة اليمنية في أدوارها الأولى، نسبة إلى قيام الحواضر الرئيسة القديمة حول تلك الرملة: مأرب (حاضرة سبأ) وتمنع (حاضرة قتبان) وشبوة (حاضرة حضرموت) وقرناو(حاضرة معين).

ولا ندري متى بدأت على وجه التحديد، تلك القبائل (أو الشعوب كما تقول النقوش) صاحبة الممالك القديمة تقيم حواضرها في ذلك المكان، ولكننا على ثقة من أن ذلك جاء نتيجة طبيعية لاشتغالها بالتجارة البرية. فقد جمعت تلك الحواضر بين صفات المحطات على طريق القوافل، والمراكز التجارية التي تجمع فيها السلع ومنها توزع، والقواعد الإدارية التي تصرف منها شؤون الدولة.

وكانت تلك الحواضر تقام على مخارج الآتية القادمة من المرتفعات المحيطة بالرملة، ففي أطراف الجوف قامت قرناو، وعلى وادي أذنة قامت مأرب، وفي بيحان قامت تمنع، وعند نهاية سلسلة أودية عرمة ـ العطف ـ المعشار قامت شبوة، وكانت المزارع تحيط بتلك الحواضر، وقد أنشئت من أجلها أنظمة ري متطورة، كان في الصدارة منها سد مأرب الشهير[2].

وإذا ألقينا نظرة دقيقة على الخريطة التاريخية لليمن القديم لتبين لنا أن معظم مواطن الحضارة قامت في مراحلها الأولى على منافذ الأودية القادمة من المرتفعات الغربية التي تنفذ إلى الصحراء حول مفازة (صيهد). . .

والعامل الأساس في ذلك التمركز هو السيطرة على طرق القوافل، التي

(1) أ.غ. لوندن: تطور نظام الدولة السبئية، تعريب أبوبكر السقاف، اليمن الجديد، العدد (1)، يناير 1987، ص43.

(2) محمد عبدالقادر بافقيه وآخرون: مختارات من النقوش اليمنية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985، ص 20 ـ 21.

تبدأ رحلتها التجارية من موانئ (عدن) إلى (قنا) متجه إلى (ميفعة) و(شبوة) و(تمنع) و(مأرب) و(قرناو) في طريقها إلى الشام حتى يصل إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن ميناء قنا ازدهر خلال المرحلة الأولى لقيام الحضارة اليمنية، وذلك لكونه كان نقطة انطلاق للقوافل التجارية إلى جنوب شرق آسيا[1]، في وقت كانت شبوة عبارة عن محطة لتجمع القوافل التجارية إلى الشام.

(1) د. أسمهان الجرو: تاريخ الأودية وأثرها في تطور النهضة الزراعية، مجلة سبأ، العدد 4، أكتوبر 1988، ص1.

نشوء الممالك اليمنية القديمة

نشأت في اليمن عدد من الممالك القديمة التي كان لها شأن عظيم في ذلك العهد. لكن هذه الممالك كانت عبارة عن قبائل أو دول لم تتوحد سوى في القرن الرابع الميلادي. وتعد دولة سبأ أشهر الممالك اليمنية القديمة التي قامت إلى الشرق من صنعاء، واتخذت من مدينة مأرب عاصمة لها، وتمتاز مدينة مأرب بأنها محطة تجارية عظيمة بين حضرموت في الجنوب والحجاز في الشمال.

وبالإضافة إلى مأرب لعبت مدينة صرواح ـ الواقعة بين صنعاء ومأرب ـ دوراً مهماً في تاريخ اليمن القديم لكونها مركزاً لمعابد الإله المقه (القمر) في ملكة سبأ، وتعد العاصمة الدينية لمملكة سبأ، كما يعتقد بأنها كانت العاصمة القديمة لسبأ.

وقد مرت مملكة سبأ بخمسة عهود خلال تطورها: ـ عرف العهد الأول بأنه عهد "مكارب سبأ"، بينما عرف العهد الثاني بأنه عهد "ملوك سبأ"، وفيما بين 110 ـ 115 ق. م دخلت سبأ المرحلة الثالثة من تطورها عندما استطاع بنو ذي ريدان السيطرة على السلطة وتأسيس مملكة حمير[1].

وقد شهدت اليمن خلال هذه المرحلة أحداثاً مهمة كانت لها أخطر النتائج فيما يتعلق بسيادتها الوطنية أولاً، ومكانتها الرفيعة في العالم القديم ثانياً، وقد تمثلت هذه الأخطار فيما يلي:

1 ـ المقاومة اليمنية للحملة الرومانية بقيادة أليوس جاليوس 24 ق.م.

2 ـ اكتشاف سر الرياح الموسمية من قبل الرحالة الهنود والعرب، بيد أن اليونانيين والرومان تمكنوا من الاستفادة من هذا الاكتشاف، في منافسة التجارة العربية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي. مما أدى إلى ضعف أهمية الموانئ اليمنية في طرق التجارة البحرية العالمية[2].

---

(1) حول امتداد المنطقة الجنوبية المعروفة ب ـ (سرو حمير) انظر: عيدروس بافقيه: جغرافية الجمهورية اليمنية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1997، ص 52.

(2) علماً أنه كانت اليمن حتى أواخر الدولة الحميرية، همزة وصل للتجارة بين الشرق والغرب، تصدر منها البخور والتوابل، بواسطة موانئها في البحر العربي وخليج فارس في الشرق=

3 ـ الحروب الأهلية الداخلية، التي قادها بنو ذي ريدان للسيطرة على السلطة من أيدي السبئيين، خاصة وأن هذا النزاع قد أدى إلى تدمير البلاد وتحول كثير من الأراضي الزراعية إلى صحاري، وقد استفاد الريدانيون من ذلك النزاع، وتمكنوا من انتزاع العرش من السبئيين وأسسوا على أنقاضه مملكة حمير[1]؛ أو (دولة سبأ وذي ريدان).

بينما امتد العهد الرابع لمملكة سبأ من القرن الرابع الميلادي وحتى القرن الخامس الميلادي، واشتهر الملك شمريهرعش في هذا العهد بحروبه الطويلة في الداخل والخارج. وتلقب ملوك هذه المرحلة ب ـ(ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة).

وكانت مملكة معين إحدى تلك الممالك، وعاصمة هذه المملكة على الأرجح هي قرنا أو قرناو، واشتهرت بكونها دولة تجارية من الطراز الأول، لهذا تمكنت بفضل نشاطها التجاري من إقامة مستوطنات (جاليات) في مناطق كثيرة من العالم القديم، خاصة بعد أن ضمت إليها منطقة يثل(براقش) وبقية مدن الجوف.

وكذلك مملكة قتبان التي اتخذت من مدينة تمنع عاصمة لها، وشكلت

= والجنوب، وبواسطة موانئ البحر المتوسط في الشمال، وأهمها ميناء (غزة)، كما كانت همزة وصل لنقل تجارة الهند والصين، القادمة عبر المحيط الهندي ـ حينما كان يتمتع بما يتمتع به البحر الأبيض المتوسط حالياً من الحركة التجارية، والازدهار ـ وقد حافظت هذه الحكومات على مركزها التجاري ببقاء البحر الأبيض مغلقاً، وعلى أن يبقى لها نفوذها المطلق على الموانئ البحرية فيها، وكانت القوافل اليمنية هي وحدها التي تنقل بضاعات الشرق إلى بلدان الغرب والعكس، وقد ظلت على هذه الحالة حتى كان القرن الأول للميلاد حينما اهتدى (هيبالوس) البحارة اليوناني إلى معرفة اتجاه الرياح الموسمية في المحيط الهندي، واكتشف أن اتجاهها نحو الغرب لا يكون إلا في فصول معينة من السنة، وكذا اتجاهها نحو الشرق، فكان لهذا الاكتشاف الخطير أثر في تحويل الطريق البري، إلى طرق بحرية، حيث أخذت السفن الهندية وغيرها تعبر المحيط الهندي، ومنه إلى الهند رأساً، وبهذا ضعفت التجارة في اليمن. . . أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الأولى، 1963، ص 139.

(1) د. محمد أبو المحاسن عصفور: تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، 1984، ص 260.
وفيما يتعلق بملوك هذه الدول القديمة في اليمن، انظر: حسن صالح شهاب: تاريخ اليمن البحري، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن، دار الفارابي، بيروت، 1977، ص 260.

تهديداً خطيراً للكيان السياسي لسبأ [1]، ولعل هذا يفسر لنا أسباب تدمير مملكة سبأ للعاصمة القتبانية تمنع، الأمر الذي ترتب عليه فقدان مملكة قتبان سيطرتها على الأجزاء الساحلية منذ القرن الأول ق. م. مما أفقدها الطرق التجارية البحرية مع العالم الخارجي، وساعد هذا مملكة حضرموت إبان ضعف مملكة قتبان، . . .لكي تجعل من أراضيها منطقة نفوذ تابعة لها حوالي عام 150م، بعد أن عاشت هذه المملكة أزهى عصورها في الفترة ما بين 350 ـ 50 ق. م.

ومن الضروري أن نقول: لابد أن وادي بيحان كان في ذروة ازدهار الحضارة القتبانية جنة وارفة الظلال تنتج كميات وافرة من الحبوب والخضار والفواكه، ذلك لأن أقنية الري التي تم اكتشافها وبهندسة بديعة، حيث غدا بوسعنا أن نحدد تاريخ بناء هذا الجهاز بكل دقة من نقوش وجدت على أحد المصارف القديمة، شيدت في حوالي القرن الخامس ق.م، كما وجدنا نقشاً آخر على مصرف شيد فيما بعد ومنه عرفنا أن شبكة الري قد تم إنجازها في القرن الأول بعد الميلاد. . ويبدو أن ذلك النظام البديع من القنوات قد ظل صالحا إلى أن انهارت آخر الممالك في جنوب شبه الجزيرة العربية، وحينئذ اندثرت آثار هذا المشروع الكبير[2].

أما بالنسبة لمملكة أوسان. . فمازال تاريخ هذه المملكة قيد الغموض لقلة النقوش المكتشفة، التي تتحدث عنها. وقد نشأت هذه المملكة جنوب مملكة قتبان ـ ويعتقد أنها كانت جزءاً منها فيما سبق ـ واعتمدت على أسلوب التوسع ـ الحرب والاعتداء ـ كطريق لبقائها وتوسيع نفوذها، إلى درجة أنها تمكنت من فرض نفوذها على الساحل الأفريقي الشمالي "زنجبار" الذي عرف بالساحل الأوساني[3].

ويحدثنا نقش النصر (Gl 1000) بأن حروب كرب إل وتر مع أوسان كان سببها الأراضي التي اغتصبتها أوسان من الممالك المجاورة، فما كان من هذه الممالك إلا أن وحدت جهودها تحت زعامة سبأ، واستطاعت بهذا التحالف القضاء على مملكة أوسان.

---

(1) انظر: محمد عبدالقادر بافقيه: قتبان، الموسوعة اليمنية،ج2، مؤسسة الثقافية، صنعاء، 1992م، ص 755 ـ 756.

(2) وندل فليبس: كنوز مدينة بلقيس ـ قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب عمر الديراوي، دار نوبا للطباعة، 1985، ص141.

(3) انظر: محمد يحيى الحداد: تاريخ اليمن قبل الإسلام، الطبعة الأولى، دار التنوير، منشورات المدينة، بيروت، 1986م، ص 195 ـ 196.

وأيضا مملكة حضرموت التي اشتهرت شبوة كعاصمة لها، فقد استطاعت مملكة حضرموت توسيع منطقة نفوذها إلى إقليم ظفار (عمان) إلى الشرق، وسقطرى على الساحل. ونود أن نشير هنا أن (قنا) كان الميناء الرئيس لمملكة حضرموت. . . فمنذ العصور القديمة كان يستقبل السلع من البر والبحر، فمن البر كانت مئات القوافل تحمل إليها سلع حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعود منها ببخور اليمن وطيوبها وأحجارها الكريمة، وتوابل الهند، وسلع شرق أفريقيا النفيسة التي جاءت على متن السفن، وظلت مزدهرة حتى سقوط حضرموت في القرن الرابع الميلادي بيد الحميريين أيام شمريهرعش. . .، كما كانت منطقة شبوة هي الأخرى من أخصب المناطق اليمنية وقد أتضح ل ـ د. جاكلين بيرن بأن الماء ـ يأتي إلى قرية الهجر في شبوة ـ عن طريق وادي العطف الذي يتقاطع بشكل عمودي مع وادي شبوة ومن ثم يتفرع إلى فرعين يمران بالمدينة تحت أسمين المهباد Mhbad والمعشار Mashar، وتقود المياه باتجاه السفح في عرض الوادي.

وكانت المياه تحت الجبل تمر عبر قناة تصل إلى الأراضي المروية للضفة الشرقية ومن الواضح أن قناة أخرى تمر في وسط الوادي، كانت توصل المياه أمام شبوة إلى مصرف للمياه رفعت عنه الأنقاض عام 1977م، حيث اكتشف النقشان المعماريان اللذان تم الحديث عنهما سابقا، هذا المصرف يوزع المياه إلى قسمين: الأول يذهب في القناة الشرقية نحو الأراضي المروية، بينما يذهب الثاني باتجاه سور المدينة في الجهة الغربية الذي تهدم بفعل التآكل الذي تحدثه السيول، ماراً أول الأمر بجانب الجزء المتآكل في السور ثم تحت الهضبة الشمالية الغربية حيث لا يزال السور قائما[1].

ومهما يكن الأمر، فإنه في مطلع العصر الميلادي أخذت الممالك القديمة تفقد ذاتيتها، قتبان في أواخر القرن الأول، وسبأ في أواخر القرن الثالث الميلادي وحضرموت مطلع القرن الرابع، وفي أواخر القرن الرابع وبداية الخامس نشأت للمرة الأولى دولة يمنية موحدة ضمت كل أراضي جنوب الجزيرة العربية، الأمر الذي انعكس في اللقب الطويل للملوك الحميريين[2]. . . "ملك سبأ وذي ريدان

(1) مجلة ريدان، حولية الآثار والنقوش اليمنية القديمة، العدد الأول، تصدر عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، منشورات بيترز، لوفان ـ بلجيكا، ص 79 ـ 80.

(2) م.ب. بيوتروفسكي: اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، منذ القرن الرابع حتى العاشر الميلادي، تعريب محمد الشعيبي، دار العودة، بيروت، 1978، ص 72.

وحضرموت ويمنة وأعرابهم في الهضاب والتهائم"، وبهذا تكون مملكة سبأ قد وصلت إلى المرحلة الخامسة من تطورها.

ولكن قبل الانتقال إلى النقطة الأخرى، وجب علينا أن نوضح وجهة نظرنا فيما يتعلق بالعهد الأول والعهد الثاني من دولة سبأ على ضوء النقوش التي تم اكتشافها حديثا.

وعلى ضوء هذا يمكننا القول بأن دول اليمن القديم، عرفت لقب (ملك) في عهدها الأول، وأبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص ما ورد في نصوص آشورية تعود إلى القرن الثامن ق.م، فيما يتعلق بتقديم هدايا من قبل ملكين سبئيين إلى ملكين آشوريين هما سرجون الثاني (710 ق.م) وسنحريب (685 ق.م)[1].

وحتى نقش "النصر" الواقع في معبد "المقه" في صرواح، والذي اعتبره المؤرخون ـ نتيجة لأهمية المعلومات التي سجلها ـ ذروة نظام المكاربة السبئيين بل وخاتمة لهذه المرحلة بتعبير أصح. خاصة وأن كرب إل وتر آخر مكارب دولة سبأ، استطاع بعد انتصاره على أوسان أن يعلن نفسه مالكا.

نقول رغم ما ساد بهذا الخصوص، فإن هذا النقش ـ نقش النصر ـ يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن كرب إل وتر كان قبل دخوله الحرب مع أوسان، يتمتع بلقب "ملك" وللتدليل على ما ذهبنا إليه بهذا الشأن سنورد بعض النصوص الواردة في نقش النصر على ما هي عليه... "يوم هاجم نشن وأحرق مدنهم، ونهب عشر وبيحان (بيحن) وكل أوديتهم لما تمردوا ذات مرة (باحد منشأم): وحاصر نشن ونشق (نقشم) وفقا لنبوءة عثتر ثلاث سنوات وأخضع نشق وأرضها " لالمقه " ولسبأ، وقتلى نشن كانوا ألفا. واكتسح سمه يفع ونشن واسترد أراضي كان ملك سبأ قد وهبها لهم فوهبها هو "لالمقه " ولسبأ، ... واستولى على ماء (عذب) صلم وماء حمرت وحرم ملك نشن ونشق من ماء مذاب وأزال نضع سور مدينتهم نشن حتى أساسه.

... وانتزع ماء ذفقعن من سمه يفع ونشن واقطعه يذمر ملك هرمم وانتزع من سمه حرة ذات ملك وقه وأقطعها نبط على ملك كمنهو وكمنهو من حرة ذات ملك وقه إلى حد حدده كرب إل. وسور نشق ووضعها تحت إشراف سبأ لالمقه ولسبأ "[2].

---

(1) د. عبدالله باوزير: تاريخ اليمن القديم، ص2.

(2) د. محمد عبدالقادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، بحث ضمن مشروع كتاب تاريخ المجتمع اليمني، جامعة عدن، بدون تاريخ، ص 65 ـ 66.

وعلى ضوء ما ورد في نقش النصر يمكن القول بأن كرب إل وتر كان "ملكا" قبل هذه الحرب. وإلا كان من المفروض أن تحمل كلمة "مكرب" م ك ر ب، بدلا من كلمة م ل ك، الواردة في النقش. ليس هذا فحسب، بل ورد في النقش السالف الذكر بأنه وجد إلى جانب ملك سبأ ملوك آخرون كان في مقدمتهم ملك نشن ونشق، وهي ممالك صغيرة وجدت على الأرجح على طريق البخور التجاري.

وبهزيمة أوسان وحلفائها أمام سبأ أصبح لملك سبأ السيادة على هذه الممالك، لهذا استحوذ على لقب "مكرب" كلقب إضافي للدلالة على أن ملك سبأ أصبح يتمتع بنفوذ واسع على الممالك الصغيرة[1].

وعلى هذا الأساس لا نعتقد بأن لقب "مكرب" يعني تمتع الحاكم بسلطات مزدوجة ـ روحية ودنيوية ـ. ويدفعنا هذا لإلغاء ما يسمى بمرحلة المكاربة في دولة سبأ ـ والمقصود بذلك أن هذا اللقب قد عبر عن مرحلة سابقة لعهد الملوك في سبأ ـ التي حاول المؤرخون إبرازها على هذا النحو.

ومن جانب آخر استطاع هذا النقش أن يؤكد أن مدن نشن ونشق كانت تؤلف مملكة مستقلة بعيدة عن مملكة معين، على الرغم من أن معظم المراجع تحاول ذكر هذه المدن على أنها مدن معينية.

ويمكننا الاستدلال من نقش النصر أيضا بأن سلطات ملك السبئيين الذي أصبح "مكرب" قد تمكن من إعادة مختلف الأراضي التي اغتصبتها أوسان من الممالك الأخرى خاصة حضرموت وقتبان. وقد استمر لقب "مكرب" في التداول، خاصة بعد أن استطاع كرب إل وتر التوصل إلى اتفاق يخوله حكم ملوك مهزومين أو حكم مناطق أخرى تقع في دائرة نفوذها.

وتأسيساً على ذلك، يرى البعض أن لفظ "مكرب" أطلق على حكام سبأ بعد أن ضموا إلى دولتهم قبائل أخرى على شكل اتحاد قبلي، وهذا التفسير يتقارب مع ما جاء في المعجم السبئي فكلمة "مكرب" رئيس مجموعة قبائل اتحادية، ومهما يكن من أمر فإن النقوش القديمة قد أطلقت لقب مكرب على عدد كبير من الحكام الذين يعتبرون عهدهم أقدم عهود تاريخ سبأ، والدليل على ذلك أن نقوشهم قد كتبت بالخط الحلزوني الذي أعتبره علماء الخطوط من أقدم الخطوط السبئية[2].

---

(1) لمزيد من المعلومات حول سلطة المكارب، انظر: أ. غ. لوندن: دولة مكربي سبأ، ترجمة قائد محمد طربوش، مجلة الإكليل، العدد 23، صنعاء، 1995، ص11.

(2) د. أسمهان سعيد الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن=

مظاهر النهضة الاقتصادية في اليمن القديم

انتشرت الزراعة في اليمن انتشاراً واسعاً حتى أصبح سمة بارزة لاستقرار حياتهم المعيشية، لكن هذا لا يعني مطلقاً أن الناس في المناطق اليمنية المختلفة تعيش في أراضي زراعية تمتلك الشروط والمميزات نفسها، ذلك لأن الزراعة في الوديان تختلف في ظروفها عن الزراعة في القيعان أو الهضاب المرتفعة.

وتأسيساً على ذلك يمكننا القول، أن الظروف التضاريسية المتباينة في المنطقة اليمنية أدت إلى نشوء جماعات من الناس تعيش في مناطق زراعية متباعدة وفق شروط كل منطقة على حدة.

وعلى الرغم من هذا؛ كان "اليمنيون القدماء شعوباً زراعية، تعيش على زراعة الأراضي الطموية في الأودية أو في المدرجات الزراعية على سفوح الجبال، أو ممارسة الري الثانوي في السهول والنجود العالية"[(1)]. ذلك لأن اليمانيين "هم أهل فلاحة منذ أقدم العصور، خاصة وأن ظروف اليمن الجغرافية من عوامل مساعدة كخصب الأرض وكثرة المياه من الأمطار، والعيون والآبار"[(2)]، قد ساعد على انتشار الزراعة وتنوع محاصيلها[(3)].

وقد تحدث: أ ـ ولفنسون بهذا الخصوص قائلا: . . . وتعد بلاد اليمن ذات الهضاب الكثيرة والجبال الشاهقة، والسهول الفسيحة، من أخصب بلاد اللّه على الأرض، حيث تكثر الينابيع الفياضة، والأنهار المتشعبة في الأودية والسهول، فهي دائما تربو فيها وتنبت مختلف الأنواع من الزرع وتنتج من الثمرات والغلال ما اشتهر أمره وذاع صيته، في مختلف الأقطار من قديم الزمان. وكان لكثرة أنواع المظاهر الطبيعية لهذه الأرض أثر كبير لاتساع العقل،

= القديم)، سلسلة الكتاب الجامعي ـ 7 ـ ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، عدن، 2002، ص88.

(1) طبيعة النظام الملكي في اليمن القديم، تعريب وتلخيص سلطان ناجي، بحث منشور في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق (المجلد) 15، (1972 م)، ص20.

(2) أغناطيوس غويدي: محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة وتقديم إبراهيم السامرائي، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت، 1986، ص66 ـ 67. كذلك انظر: عبدالإله عياش: أزمة المدينة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980، ص19.

(3) حول هذا الموضوع، انظر: د. لطفي عبدالوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، عام 1979م، ص299.

ونمو الخيال عند شعوب العرب باليمن منذ زمن بعيد. . .وأن أمة هذا شأنها لابد أن يكون بينها وبين الأمم الأخرى القريبة منها والبعيدة اتصال وثيق، وعلاقة متينة؛ بحكم الحاجة الشديدة إلى تبادل المنافع المادية والأدبية[1].

وبهذا غدت مظاهر تمدن اليمن السعيد الإنساني البحت كثيرة، منها ما تحدثت عنها الحضارات الراقية في القدم، وهو صنعهم للتاريخ في معرفة مواعيد الزراعة، ومواسم الأمطار، وهطولها، وحصاد الثمار، واختزانها[2].

وبهذا الصدد يقول استرابو: ". . . وبلاد العرب السعيدة مأهولة بجماعات من الفلاحين الذين يشبهون فلاحي سوريا واليهود. . . وهذه البلاد كثيرة الأمطار في الصيف، ولذلك كانت أرضها تنتج الغلة مرتين في العام ـ كما الحال في الهند ـ وأهل هذه البلاد يشتغلون ـ عدا اهتمامهم بعسل النحل ـ بتربية المواشي من جميع الحيوانات، ماعدا الخيل والبغال والخنازير، وكذلك يعتنون بتربية جميع الطيور الداجنة ماعدا الدجاج والبيض فليس عندهم منها شيء"[3].

وعلى هذا الأساس شكلت الزراعة في اليمن ميدان إنتاج فعلي لخيرات وفيرة، اضطر اليمنيون للحفاظ عليها إلى أن يسعوا لإقامة منشآت ري ضخمة، ساعدت الناس على الاستقرار في الأراضي الخصبة، وبناء الحضارة. وقد لعبت التجارة دوراً مساعداً في هذا المضمار لكن هذه القاعدة لم تكن ثابتة في المناطق اليمنية المختلفة، خاصة المناطق الشرقية التي لعبت التجارة فيها عامل استقرار للأهالي، في وقت كانت الزراعة لها أهمية محدودة في هذه المناطق. وعليه يمكننا القول بأن "القسم الجنوبي كان يعيش عيشة استقرار وتغلب عليه الحضارة. . لهذا استطاع اليمنيون تشييد ملك راسخ"[4].

وقد عرفت الحضارة اليمنية مظاهر التكاتف والتعاون الجماعي، على أسس طوعية متكافئة، ومعزز بروح الواجب والمسؤولية المشتركة التي تفرضها قوى الطبيعة القاسية، وضرورات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتبادل

(1) أ. ولفنسون (أبو ذؤيب): تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ط1، 1980، ص228 ـ 229.

(2) القاضي محمد بن علي الأكوع: قصيدة البحر النعامي للأشهر الحميرية وما يرافقها من أغذية، الإكليل، العدد 2، صنعاء، 1980، ص19.

(3) أ. ولفنسون، مرجع سابق، ص236.

(4) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص5 ـ 6.

المصالح والمنافع المشتركة على النطاق الاجتماعي. . . ومن أجل ذلك سخر اليمنيون الأقدمون ـ على اختلاف فئاتهم وتفاوت حصصهم من المال ـ طاقاتهم الذهنية والجسدية، للتغلب على المعضلات الطبيعية القاسية، فأقاموا المنشآت العامة والخاصة على نحو: السدود والمدرجات الزراعية، والطرق، وحفر الآبار والبرك. . التي ينتفع بها بشكلٍ جماعي، وعدم ترك الفرد يواجه تلك المعضلات منفرداً[1].

أولاً

العلاقات الزراعية

إن ملكية الأرض وطرق استغلالها قد تعددت، وبإمكاننا تمييز بعض الأنماط التي انتشرت في العلاقات الاقتصادية في الأراضي الزراعية وهي كالتالي:

1 ـ أراضي الدولة:

كانت الدولة تحصل على تلك الأراضي بطرق مختلفة، خاصة وأن الدول كانت في تلك الحقبة تعتمد على انتهاج سياسة الغزو، لتوسيع رقعة أراضيها.

وعلى هذا الأساس كانت الدولة تحصل على أراضيها من القبائل[2]، والدول المغلوبة، بالإضافة إلى هذا، تعمد الدول في أحيان كثيرة إلى استصلاح الأراضي البور المنتشرة في داخل حدودها، كما تقوم بشراء الأراضي التي تمتلك أهمية استراتيجية وأمنية لها، خاصة تلك الأراضي الواقعة على طرق القوافل، أو الأراضي القريبة منها، وتشكل خطرا أكيدا عليها إذا ما هاجمها العدو.

2 ـ أراضي الأقيال والأذواء:

وهي عادة ما تتكون من الهبات والهدايا التي يمنحها الملك لكبار رجال

(1) ولمزيد من المعلومات حول النقوش التي تروي لنا أمثلة عن العمل الجماعي الذي فرضته الجغرافيا وباركته الآلهة: بناء وترميم السدود، بناء البرك والمدرجات الزراعية. انظر: أسمهان سعيد الجرو: المبدأ الأخلاقي لحقوق الإنسان في الديانة اليمنية القديمة، مجلة سبأ، العدد9، ديسمبر 2000م، ص 35.

(2) فيما يتعلق بإعطاء معنى محدد للقبيلة وأهميتها في تلك الحقبة، انظر: عبده عثمان غالب: عرض موجز لتاريخ الآثار اليمنية، مجلة دراسات يمنية، العدد 25 ـ 26، صنعاء، أغسطس ـ ديسمبر 1986م، ص 150 ـ 152.

دولته وقادته العسكريين، مقابل خدماتهم الجليلة لمملكته، وهذا لا يمنع أن يقوم كبار رجال الدولة بشراء الأراضي الخصبة المحيطة بملكياتهم، في وقت كانوا يسعون إلى وضع أيديهم على الأراضي التي تسودها العلاقات المشاعية، في هذه القبيلة أو تلك التابعة لمملكته.

بيد أن أهم ما يميز أراضي الأقيال أنها كانت تتمتع بحمايتهم، ليس هذا فحسب؛ بل إن كبار ملاك الأراضي من الأغنياء والأذواء الضعفاء، كانوا يضعون أراضيهم تحت حماية الأقيال الذين أصبحت لهم حقوق حماية على هذه الأراضي.

3 ـ أراضي المعابد:

وقد انتشر هذا النوع من الملكية في اليمن القديم، ذلك لأن الملوك كانوا يعتمدون في فتوحاتهم على تأييد الآلهة لهم في هذه الحروب، وعندما يحرزون انتصارات على أعدائهم، يقدمون جزءاً من هذه الأراضي التي تم الاستيلاء عليها للمعابد. فضلاً عن الأراضي التي كان يهبها الملك لكبار رجال الدين في المعابد، وكانت تودع باسم المعابد، بالإضافة إلى أن الأهالي كانوا يرفدون المعابد بمزيد من الأراضي عن طريق النذور أو الهبات، عندما يسعون لقضاء حاجاتهم المختلفة سواءً شفاء مريض عزيز عليهم، أو لكي يحصلوا على ربح وفير من وراء إحدى الرحلات التجارية. . .

ومهما يكن الأمر فإن استمرار ملكية المعابد للأرض كان يرتبط بهذا الشكل أو ذاك بقوة الدولة ومقدرتها على مركزة السلطة وفق القوانين السارية فيها، وإلا فإن الأذواء والأقيال من كبار رجال الدولة يعملون على ضم جزء منها أو كلها لمصلحتهم، وهذا كان غالبا ما يحدث إبان ضعف الدولة المركزية.

4 ـ أراضي المشاعة:

كان "الشعب" في المجتمع اليمني القديم يتمتع بحقوق وامتيازات عامة، خاصة فيما يرتبط بملكية الأراضي، التي كانت من حق القبيلة أو "الشعب"، مما يعني أن جزءاً من الأراضي كانت ملكية مشاعة، ولا تتوقف العلاقات المشاعية في حدود الأرض فقط؛ بل كانت المرعى، والمناطق الحدودية ـ وهي ما يعرف بمناطق الحمى ـ ملكية عامة لأن الجميع كان يستفيد منها[1].

---

(1) لمزيد من المعلومات حول مشاعية الملكية للأرض في الممالك الشرقية القديمة، انظر: نينا=

وهذا النوع من الأراضي لم تمتد إليه أيدي الأذواء والأقيال، إلا بتكون الدولة الطبقية، التي شجعت الأرستقراطية على ضم هذه الأراضي. ونقصد بذلك الأراضي المحيطة بالعاصمة، بينما ظل جزء من الأراضي التي تسودها العلاقات المشاعية في المناطق الداخلية حتى وقت قريب.

وعلى كل، فقد ازدهرت الزراعة في اليمن وبوجه الخصوص في عصر الدولة السبئية، عندما اهتم مكارب سبأ باستصلاح الأراضي للزراعة، وحققوا أعظم مشروعات الري في العصر القديم، وأعني بها إنشاء شبكة السدود لحجز مياه الأمطار والسيول والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي. وقد كثر عدد السدود في اليمن حتى قيل أنه كان بيخصب العلو ـ أحد مخاليف اليمن ـ ثمانون سداً[1].

وقد اكتشف في أراضي اليمن "كتابات في الخط المسند تعتبر قوانين أصدرتها الدولة اليمنية قبل الإسلام نظمت بموجبها حقوق السقي والاستفادة من الماء، كما وجدت كتابات أخرى تدل على أن بعض المقاطعات كانت تدار من قبل مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عليها إدارة العمل، وكان على هيئة مجلس زراعي لمشروع تعاوني يضم أهل تلك المقاطعة، ولكل عضو من أعضائه عمل معين يقوم به".

ومما لاشك فيه أن "لغة المسند وهي لغة قديمة لأهل اليمن تحتوي على مصطلحات زراعية وأسماء لآلات وأدوات استعملت في الزراعة منذ القدم، وقد دخل كثير من هذه الألفاظ في لغة عرب الشمال العدنانين كما نصت على ذلك المعجمات اللغوية"[2].

= فيكتورفنا بيغوليفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، 1985، ص 296 ـ 299.

(1) د. عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ـ تاريخ الدولة العربية منذ عصر الجاهلية وحتى سقوط الدولة الأموية، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص3.

(2) محمد زهير البابا: اليمن: الفلاحة لعرب قبل الإسلام، الإكليل، العدد (1)، يناير 1980، ص19.

وأضاف جواد علي في دراسته: أصول الحكم عند العرب الجنوبيين، ص18 ـ 19. " بأنه لم يكن من حق الفلاح حصاد زراعة دون إشراف المسؤولين عليه، وكانت الضرائب تقدر والمحصول لم يجمع بعد، وللحكومة مخازن تخزن فيها ما تأخذه من محصول عيني، تدخر منه للحاجة وتعرض الفائض في الأسواق المحلية والعالمية للبيع، والحكومة حكومة حكم وتجارة سوق تبحث عن الربح مثل أي تاجر من التجار. وللمزيد من التفاصيل حول العمل=

ثانياً

الصناعات الحرفية

ظهرت الصناعات الحرفية في المدن المستقلة، التي تمتاز فيها الحياة الاجتماعية بالتعقيد والتناقض الطبقي. وقد عرف اليمنيون القدماء الصناعات الحرفية بمختلف أشكالها، خاصة "صناعة الجلود والأنطاع في صنعاء ونجران وجرش وصعدة وزبيد وصناعة المنسوجات وعلى الأخص الشروب المقصبة في سحوال وعدن وصنعاء. وصناعة السيوف اليمانية والرماح اليزنية والحطبة الردينية السمهرية"[1]. كما أتقن الأهالي الصناعات الفخارية على مختلف الأنواع.

كما كان عمال الخزف حاذقين ومهرة في حرفتهم، أنتجوا الأواني العادية والبسيطة للطباخة، وكذا الأواني الجميلة للموائد، وأواني أخرى لحفظ المياه والحبوب وغيرها، وقد عرفوا سرّ تغطية الصناعات الفخارية بمواد خاصة، واستعمالهم معها الطلاء الأحمر اللون، وأضافوا إلى الطين مسحوقاً ناعماً لتحضير بعض الأواني الخاصة مثل: كؤوس المعابد، وزينوا جدران الأواني بالزخارف المختلفة، وكذلك بالرسومات.

ومن البديهي أن صانعي الخزف أورثوا تجارتهم ومعارفهم في هذه الصناعة إلى من جاء بعدهم من الأجيال، إلا أن كل فترة زمنية لها خصائص تختلف عن ما قبلها، فكل جيل جديد من الصناع الخزفيين يضيفون ما عندهم إلى ما يحصلون عليه من آبائهم شيئا ما جديداً في أسلوب تصنيعه، أو في شكل الآنية أكانت هذه الإضافة من تلقاء أنفسهم واستقلاليتهم، أم بتأثير ومساعدة شعوب أخرى في مجال الصناعات الخزفية[2].

وكانت الحرف المتخصصة بإعداد النقوش تحتل مكانة خاصة، فهناك

= التعاوني في اليمن الحضاري القديم، انظر: محمد يحيى الحداد: وضع اليمن العام في تاريخه القديم، مجلة الحكمة، العدد 97، فبراير ـ مارس، 1982، ص15 ـ 18.

(1) د. عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص.12 وللمزيد من التفاصيل فيما يتعلق بهذا الخصوص انظر بيستون وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، مكتبة لبنان، بيروت، دار نشريات بيترز لوفان الجديدة، 1982، ص 117 ـ 137.

(2) نتائج أعمال البعثة اليمنية السوفيتية لعام 1984م ـ دليل المعرض ـ المركز اليمني، ص 28 ـ 29.

حرفي خبير يقود مجموعة من الحرفيين لقياس الأحجار وإصلاحها والنص المكتوب بأيديهم حتى تكون الحجرة المعلومة تكفي للنص الذي سوف يكتب فيها المسند، ومجموعة أخرى من الحرفيين تستلم هذه الأحجار بعد القياسات المطلوبة لتساويها بالشكل الصحيح، ومجموعة ثالثة تلمعها ثم تسلمها بشكل جاهز جميل، ومجموعة أخرى تستكمل تزيين حوافي الحجارة... الخ[1].

وفي الوقت نفسه اشتهر اليمنيون بالحدادة والنجارة، حتى يتمكنوا من تلبية حاجاتهم من الأدوات الزراعية اللازمة، بالإضافة إلى لوازم البناء وصناعة السفن. لكن الصناعات الحرفية لم تشتهر بها مملكة معين، التي كانت دولة تجارية شأنها شأن مملكة فينيقيا في الشمال.

وبما أن الصناعات الحرفية كانت نوعية جديدة في إطار الأنماط الاقتصادية ـ الاجتماعية السائدة في اليمن القديم، والتي كانت تتعايش فيما بينها رغم تباينها في مجتمع واحد، ونحن نقصد بهذه الأنماط العلاقات المشاعية التي تمتلك جذوراً لها في المناطق الداخلية البعيدة عن العواصم، والمناطق المحيطة بها، والعلاقات العبودية التي انحصر تواجدها في العاصمة والمدن المزدهرة، ولكن بشكل محدود للغاية. والعلاقات شبه الإقطاعية التي كان يمثلها الملك والأرستقراطية (الأقيال والأذواء) الذين يحتكرون كل شيء لمصلحتهم، وعليه كان لابد للقبائل والعشائر المختلفة من أن تقابل أصحاب الصناعات الحرفية بمنتهى الامتنان، خاصة وأن الفئات العليا في المجتمع اليمني القديم كانت تعمل على تشجيع الازدراء من مختلف الفئات الشعبية الكادحة.

وبالفعل أدت هذه الأساليب إلى عزلة كل فئة اجتماعية تشتغل بنوع معين من الصناعات الحرفية، عن فئة اجتماعية أخرى، تمارس عملها في مهنة أخرى. ومع مرور السنين احتكرت كل أسرة لنفسها مهنة معينة. وبهذا تحولت الصناعات الحرفية إلى مهنة وراثية يرثها الأبناء عن الآباء، ولا يسمح للغريب بتعلم أسرار هذه المهنة التي يمارسونها.

وبهذا يمكن القول أن الفئات التي كانت تعمل في الصناعات الحرفية كانت فئات مستضعَفة من اليمنيين، أو من الفئات المستجلبة من الخارج. لكن مختلف تلك الأساليب القائمة على تحقير العمل الحرفي أثرت بشكل سلبي على تطور الحرفة في اليمن.

(1) نتائج أعمال البعثة السوفيتية اليمنية 1984م، نفسه... ص42 ـ 43.

ثالثاً

العلاقات التجارية

تعد بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة في العالم القديم، إذ كان موقع بلاد اليمن الجغرافي من أهم الأسباب التي أدت إلى نشوء الحضارة في ربوعها قبل أن يظهر لها أثر في المناطق الشمالية من جزيرة العرب[1]، لهذا فإن توسط اليمن بين أمم العالم القديم جعلته واسطة للتجارة بينها منذ أقدم أزمنة التاريخ، وكان بين اليمن والهند علاقات تجارية لا يعرف أولها، وكان للهند محاصيل وصناعات يحتاج إليها المصريون والآشوريون وغيرهم، فكان اليمنيون ينقلون هذه المحتاجات إلى تلك الأمم في سفنهم البحرية، وكان لليمنيين على الشواطئ موانئ متعددة. . . ومن المدن الساحلية المشهورة في اليمن مدينة (عدن) و (قنا) و (ظفار). . . وفي مسقط ترسو السفن الصاعدة في خليج العرب إلى بابل، وكانت هذه السفن تحمل الذهب والقصدير والأحجار الكريمة، والعاج، والأفاويه، والبهارات (توابل)، والقطن، وأنواع الطيب التي أخذت شهرة واسعة.

وفي اليمن وجد البخور واللبان، وقد قيل إن شذا الغابات العطرية كان يفوح من مسافات بعيدة. وكان اليمنيون يزودون الهياكل بالبخور والطيب، لضرورة استعمالها في الهياكل بسبب كثرة الروائح الناتجة عن تقديم القرابين التي تذبح فيها[2].

كانت هذه المكانة الرفيعة التي تميزت بها اليمن قد أدت إلى انتشار الخرافات والأساطير فيما يتعلق بتجارة اليمن القديم. يقول "هيرودوت" ويلقب بشيخ المؤرخين، وعاش فيما بين 490 ـ 442 ق. م، في كتابه عن التاريخ: " . . . وبلاد العرب الجنوبية في نهاية المعمورة، وفيها وحدها يوجد اللبان والمر والدار صيني واللاذن، ويكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات ماعدا المر، فهم لأجل جني اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعا من الصمغ يسمى ستينكس، وهو الصمغ الذي يأتي به الفينيقيون إلى بلاد الإغريق ليشردوا أسراب كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس الأشجار، وتتجه

---

(1) أ. ولفنسون: مرجع سابق، ص228.

(2) زيد بن علي عنان: حضارة اليمن القديم، الإكليل، العدد 2، صنعاء، 1980، ص116 ـ 117.

تلك الحيات بمجموعاتها شطر مضر، ولا تبرح مكانها إلا بواسطة دخان الميعة. . . .في أثناء جني بقية النباتات؛ يلبس العرب على أبدانهم جلود الثيران والماعز.

وتنبت القرفة في بحيرات قليلة العمق يعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش وهي تزعج العرب بصياحها وأصواتها المرعبة، ولكنهم لا يعبأون بها، ويدفعونها عنهم، ويتقدمون لجني القرفة"[1].

ومن المنطق الاقتصادي البحت. . . كانت اليمن تؤلف منطقة مرور بين الهند إلى البحر الأبيض المتوسط، فلقد كانت البضائع ترد من الهند إلى حضرموت مباشرة ثم تجتاز المراكز العربية في الجنوب، إلى أن تصل غزة والبحر المتوسط، بعد أن تكون قد مرت بالمدن القديمة في جنوب غرب الجزيرة العربية[2].

هيأ هذا لليمنيين القدماء (السبئيين والمعينيين) كي يسيطروا على تجارة اليمن القديم. وعلى أساس هذه الأرضية الاقتصادية نشر اليمنيون نفوذهم السياسي إلى شمال الحجاز خاصة (ديدان ومعان) بالإضافة إلى أن السبئيين كانوا يدركون بأن تجارتهم عبر البحر الأحمر تقتضي السيطرة على هذا الممر المائي. ليس هذا فحسب بل " كان للنشاط التجاري في اليمن أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في عصر الجاهلية، منها دولة الأنباط، والتدمريين، ومملكة المناذرة في الحيرة"[3].

---

(1) تاريخ هرودوت، الجزء 3، ص 107 ـ 113. نقلا عن أ. ولفنسون: مرجع سابق، ص233 ـ 234.

(2) عفيف بهنسي: الفن العربي قبل الإسلامي في اليمن، الإكليل، العدد1، صنعاء 1982، ص. 232 انظر كذلك: جرياز نفتش وآخرون: التجارة والطرق التجارية في حضرموت القديمة، ج1، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، سيئون، 1988، ص 99.
"وقد كانت تلك القوافل التي تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا منذ الألف الثاني ق. م، تحمل توابل الهند ورقيق أفريقية وأفاويه اليمن، وعروضها من اللبان والطيب، وتعود محملة بعروض البلاد التي تبحر فيها" د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط 6، القاهرة، 1974، ص26.

(3) د. سيد عبدالعزيز سالم: دراسات في التاريخ العربي ـ تاريخ الدولة العربية، مرجع سابق، ص. 6 كما تحدث د. جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص494، بهذا الخصوص قائلا: "بأنه كان لليمن نفوذ على القبائل معد القوية والكثيرة العدد، وأن تبابعة اليمن كانوا ينصّبون الملوك والحكام على تلك القبائل".

كان "للدولة الحميرية أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانئ اليمن وبين موانئ الهند والصين والصومال وسومطره، بحيث كانت التجارة شبه احتكارية في يدها. وفي اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل برية تسيطر عليها اليمن. . . تجتاز الحجاز شمالا حتى موانئ البحر المتوسط، وكان لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط[1].

كل هذا ساعد اليمنيين في مد نفوذهم التجاري إلى المحيط الهندي، ووصلوا الهند وسواحل أفريقيا الشرقية"، بفضل توسع مداركهم بالفلك والأنواء، حيث ساعدتهم تلك المعارف رغم بساطتها على تنظيم رحلاتهم البحرية باستخدام مواسم واتجاهات هبوب الرياح الموسمية، فصاروا بذلك بحارة مهرة[2].

واستطاعت الحياة الاقتصادية التجارية المزدهرة المستقرة أن تضرب جذورها. . . في حياة الفرد متسمة بادئ ذي بدء بالقضاء على الروح القبلية وانتزاع الناس من حياة البداوة والترحل إلى حياة الاستقرار. . كما عملت تلك الحركة التجارية على تطوير وسائل الزراعة تلبية لحاجيات التجارة المتزايدة باستطراد. . وبهذا القدر من عطاء الطبيعة وذلك القدر من الإحساس بأهمية التمدن من أجل الانتعاش الاقتصادي والرفاهية المادية، كان من الضروري اكتساب والتقاط مقومات حضارات الشمال وإعادة صياغتها بأسلوب يمني أملته طبيعة الظروف الجغرافية والمناخية والاجتماعية للأرض وللمجتمع اليمني[3].

وقد عملت الدولة اليمنية القديمة على إعطاء جل اهتمامها للتجارة، ويعود ذلك لكونها عصب الحياة الاقتصادية في الدولة اليمنية القديمة، وقد كانت قبيلة "أمير" تهتم بتربية الإبل التي تستخدم كوسيلة لنقل التجارة بين المناطق اليمنية المختلفة على المستوى الداخلي، كذلك لاستعمالها في نقل التجارة خارج اليمن، بين الهند والحبشة والصومال ومصر، والشام بعد دخولها إلى جزيرة العرب بالقوافل في طرق خاصة[4].

وفي الواقع لعب التجار المعنيون دوراً مهماً في نقل البضائع التجارية بين

---

(1) د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط 5، القاهرة، 1970، ص48 ـ 49.

(2) د. حسين قاسم عزيز: التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام، مجلة الكلمة، العدد 43، مايو ـ يونيو 1977عدن، 1975، ص76 ـ 77.

(3) انظر: ثريا منقوش: دولة معين اليمنية، مجلة الحكمة، العدد 45، عدن، 1975، ص36.

(4) انظر: جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، بدون تاريخ، ص411.

المناطق الداخلية التي كانت تجتاز الموانئ الجنوبية الغربية إلى عدن، الواقع تحت نفوذ الدولة القتبانية. بينما تمكنت مملكة حضرموت من السيطرة على تجارة البخور، وفي وقت كان اللبان ينقل من المناطق المختلفة بالجمال برا إلى شبوة.

وكانت " دول اليمن " تستأجر بدو الحجاز للخدمة في نقل تجارتها كما كانوا يؤدون لها الإتاوة " الخراج"، وقد رسخ هذا في اعتقادهم عظمة تلك الدولة لما فيها من أسباب الحضارة وأصبحوا بتوالي الأجيال يعدون الإذعان لها فرضاً[1].

وهنا نود الإشارة إلى أن السيادة التي اكتسبها عرب الجنوب، كانت نابعة من المكانة الاقتصادية التي تمتعت بها اليمن، خاصة "وأنهم كانوا أبرع في الصناعة والتجارة وجباية الأموال، على حين كانت البداوة في الشمال تغلب على المدن أيضا"[2].

لكن هذا لا يعني بأن المنطقة الشمالية لم تشهد قيام الممالك القوية التي تمتعت بقدر وافر من الحضارة، خاصة مملكة "نزار" و"مكة" ومنطقة "الفاو" وربما غيرها على طريق البخور[3]. وبالإضافة إلى هذا كان بين العرب والمصريين اتصال قديم وعلاقات تجارية فمن عهد الدولة الرابعة كان المصريون يذهبون إلى الجهات الجنوبية من بلاد العرب... في طلب الأفاويه والعلوك التي تمضغ وتحرق بخوراً، وسائر الطيوب التي كان يحتاج إليها الكهنة في التحنيط والعبادة، وكانوا ينظرون إلى هذا القطر نظرة احترام وتقديس[4].

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية، ج1، بدون تاريخ، ص 59.

(2) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافاتهم، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت 1968، ص44.

(3) لمعرفة المزيد عن طريق البخور، انظر: فرايا ستارك: البوابات الجنوبية لبلاد العرب، ترجمة محمد علي باحشوان، مجلة اليمن، العدد 2، السنة الثانية، جامعة عدن، عدن، 1990 وص 148.

(4) سلامة موسى: مصر أصل الحضارة، المطبعة العصرية بمصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 148. كما تحدثت ثريا منقوش بهذا الخصوص قائلة: "وكان لأهل اليمن صيت ذاع عند اليهود في الشؤون التجارية لأن قوافلهم التجارية كانت ترد إلى أسواق اليهود والكنعانيين، حيث كان لمتاجرهم فيها شأن كبير. ويستخلص من هذه النصوص الواردة في صحف أشعيا وحزقيال أن أهل سبأ كانوا من أعظم تجار الشرق الأدنى فيما بين القرن العاشر والخامس قبل الميلاد، وكان تجار اليهود يرحلون إلى جنوب الجزيرة لجلب الذهب والفضة وأنواع العطر وخشب الصندل والعاج والقرود والطواويس. وقد اشتهر ملك اليهود سليمان بن داؤود بعلاقته التجارية مع أهل الجزيرة، حيث كان يرسل مراكبه إلى شواطئ البحر الأحمر".

لقد عاش التجار اليمنيون في مصر ومنهم زيد إيل الذي وجدت له مقبرة في الجيزة، وتابوته في المتحف المصري، والذي كتب عليه نقش معيني يتحدث فيه هذا التاجر عن المعاملات التجارية بينه وبين الكهنة المصريين، يقدم لهم البخور مقابل الأقمشة المصرية، كما وجدت بعض النقوش العربية الجنوبية القديمة على صخور الصحراء الشرقية، وخاصة على جوانب الطرق القادمة من الموانئ المصرية القديمة على البحر الأحمر، والمؤدية إلى وادي النيل. . . من كل ما سبق نستطيع أن نقول أنه كانت هناك علاقات تجارية ربطت بين مصر واليمن، وأن هناك تجارا يمنيين ذهبوا إلى مصر، وتجار مصريين أتوا إلى اليمن، ولقد أثرت هذه العلاقات التجارية في الفنون، ودائما هي الحضارات تؤثر وتتأثر، فقد تأثرت الفنون اليمنية بالفن المصري القديم. . . لأن الفن في كل عصر هو الشكل الذي يعبر عن الارتباط الحضاري[1].

ولشهرة اليمن التجارية في العالم القديم، كان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر الفرعونية، " إذ كان المصريون يستخدمون اللبان والبخور في المعابد، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى "[2].

لكن الدور الاقتصادي المهم الذي لعبته اليمن في العالم القديم أخذ يضعف بالتدريج خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، رغم أنه وصلت إلينا من تلك الأزمنة أسطع الدلائل على هذا الدور، حيث " تتحدث النقوش عن كيفية تنظيم وترميم منظومات الري على يد الملوك وكم من الجهود بذلوها في ذلك الزمان، وأي أهمية كانوا يولونها لهذه الأعمال في عداد سائر الأحداث الجارية أثناء حكمهم "[3].

رغم هذا فإن اليمنيين كانوا يسعون من وراء تجارتهم مع العالم

---

(1) أبو العيون بركات: تمثال من البرونز في جامعة صنعاء، الإكليل، العدد (1)، صنعاء، 1987، ص69. وجد زيد إل في عهد متأخر، وذلك في عهد الملك بطليموس، في عام 264 قبل الميلاد.

(2) د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية، مرجع سابق، ص31 ـ 32. حول الأهمية الدينية للمنتجات اليمنية، خاصة الطيوب، انظر: جاك ريكمانس: حضارة اليمن قبل الإسلام، ترجمة علي محمد زيد، مجلة دراسات يمنية، العدد 28، صنعاء، 1987، ص 112 ـ 115.

(3) م. ب. بيوتروفسكي: مرجع سابق، ص 99.

الخارجي إلى تحقيق عائدات كبيرة، تزيد من ثروات الأقيال والأذواء ووجهاء البلاد، لهذا كان لابد من أن يعملوا على زيادة تعاملهم بالنقد. . . كما فرض هذا طرقا جديدة في عملية التبادل التجاري، فأصبح التبادل التجاري بعد أن كان بضاعة مقابل بضاعة على طريقة المقايضة ـ الشيء بالمثل ـ أكثر تطوراً كنتيجة طبيعية لبداية دخول التمدن إلى المنطقة اليمنية بشريطها الساحلي، وسهولها ووديانها.

ولقد ساعد دخولها على انتقال المجتمع اليمني إلى مرحلة أكثر رقيّا، فأصبحت صيغة التعامل التجاري للمجتمع اليمني القديم، بضاعة ـ نقدا، بدلا عن بضاعة مقابل بضاعة. وساهم إدخال العملة النقدية بشكل أساسي في توطيد سلطة الدولة والملك، كما تجسدت في النقد قيم اجتماعية واقتصادية، بعد أن أصبحت الوسيط العام في الحياة التجارية[1].

بل إن اليمنيين أنفسهم قاموا بسك نقود خاصة بهم، حيث تذكر بعض المصادر أن سك النقود يعود إلى نحو 2500 ق.م. . . وتذكر بعض المصادر أنها وردت في كتابات سبئية وقتبانية إشارة إلى أن النقود كانت مستعملة في تلك الأيام، ويترجع أقدمها إلى نحو 400 ق. م، وقد ورد ذكر بعضها مع أسماء ملوك سبئيين وقتبانيين في تدوين عقود زراعية أو ضرائب. . .ولا شك أن التعامل بالنقد في اليمن قبل الإسلام قد تعارفت عليه مدن الدويلات الحضارية، بعد أن صارت تتمتع بمكانة ممتازة مع شعوب الحضارات الغربية وغيرها، مما أهلها للمبادرة بسك عملة مستقلة ذات طابع محلي، بعد أن ظلت فترة من الزمن

---

(1) انظر: ثريا منقوش: قضايا تاريخية وفكرية من اليمن، ص17. كما تحدث الأستاذ فلندرز بتري عن " تداول العملة الفضية في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية في عهد (نارام سين) وهو الابن الثالث للملك سرجون الأول المشهور مؤسس أمبرطورية أكاد " راجع سيرة فلندرز بتري: الحياة الاجتماعية في مصر القديمة، ص32. وهذا يعني أن المؤلف كان يجهل بأن القاطنين في هذه المنطقة هم اليمنيون، وليس إمبراطورية أكاد، ويجهل الصلات التجارية القديمة التي ربطت بين اليمنيين والمصريين الفراعنة، لهذا لم يورد أي معلومات بهذا الخصوص، سوى ما جئنا على ذكره سابقا.

ويذكر المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم: "أن أهل مكة كانوا يستعملون الدنانير المطوقة ويشبهها بالدراهم اليمنية فهي كالمكية تقبض عدا. (درهم قفلة) يساوي الدينار منها ثلثا مثقال ويؤيد ذلك ما أورده الهمداني في كتابه: صفة جزيرة العرب، حيث قال "إن الدرهم المطوق يعادل الدرهم القفلة. د. كريستوفر تول: مصطلحات في المعايير والأوزان من كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني، ص59.

تتعامل بالنقود ذات الطابع اليوناني، الذي يحمل رموز وأسماء ملوك الجزيرة العربية[1].

على الرغم من هذا فإن سك النقود في اليمن قديم جدا، ويعود إلى ما قبل الميلاد، لكن المصادر المختلفة لم تستطع أن تحدد بداية التداول بالنقود. فقد أدى تداول النقد في اليمن إلى ازدياد هيمنة الدولة على مختلف أوجه الحياة بما فيها التجارة الداخلية، ذلك لأن "أساس الوحدة السياسية وانتشار التجارة يتوقف أولاً وقبل كل شيء على سهولة نقل القيم المدفوعة، فالحنطة تكفي للتعامل داخل حدود المدينة الواحدة، والنحاس يفي بحاجات مجموعة صغيرة من المدن، والفضة لقطر قائم بذاته، والذهب لإمبراطورية تضم أكثر من قطر واحد. أما الورق فمجالها العلاقات المتبادلة بين شتى أقطار العالم"[2].

ومهما يكن الأمر، فإن التجارة الخارجية المتطورة كانت تعكس نفسها على الأوضاع الداخلية، لأن الاستقرار الاقتصادي في الدولة يؤدي إلى استقرار الأوضاع السياسية، بل ويزيد أواصر الاتصالات بين القبائل أو (الشعوب)، بعضها بعضا، لهذا تنمو المعاملات التجارية الداخلية وتتطور وفق القوانين العديدة التي أصدرتها الدولة القديمة لتنظيم التجارة في مجالاتها المختلفة على الصعيد الداخلي والخارجي، وأبلغ مثال على ذلك هو القانون التجاري الذي أصدرته مملكة قتبان لهذا الغرض.

وخلاصة القول أنه بقدر ما كانت الدولة اليمنية القديمة تستطيع أن تفرض وجودها في المنطقة؛ كان بإمكانها إخضاع مختلف المناطق الواقعة تحت نفوذها لسلطتها المركزية، مما يؤدي إلى انتعاش التجارة الداخلية في هذا المجال الواسع دون خوف أو قيد.

بيد أن هذا الحال كان يتغير أثناء ضعف الدولة بسبب الركود الاقتصادي الذي كان يحدث عقب تدخل الأجانب في الشؤون الداخلية لليمن، ليس هذا فحسب؛ بل كانت الحروب القبلية الدائمة بين الشعوب المختلفة، تحد من النشاط التجاري بين هذه المناطق، وفي اعتقادنا كانت هذه الوضعية نادرة الحدوث، وتتعلق بالأزمان السياسية التي تمر بها البلاد.

---

(1) انظر: محمد عبدالله باسلامة: مدخل إلى المسكوكات اليمنية القديمة، الإكليل، العدد 1، 1987، ص 98 ـ 99.

(2) فلندرز بتري: مرجع سابق، ص34.

لكن بعض الكتابات التي حاولت التطرق لأوضاع التجارة الداخلية إبان تلك المرحلة، حددت بأن التجارة الداخلية لم تزدهر في اليمن لأسباب عدة منها:

1 ـ عدم اكتمال تقسيم العمل الاجتماعي بين الحرف والزراعة.

2 ـ غلبة الاقتصاد الطبيعي حيث الإنتاج يوجه أساساً للاستهلاك وليس للتبادل.

3 ـ بقاء مخلفات قوية للتنظيمات القبلية، الأمر الذي عرقل عملية الاتصال بين مختلف الجماعات، ويضيف أعباء جديدة على عملية تبادل البضائع.

4 ـ وعورة التضاريس في اليمن، وهي تضاريس جبلية تضيق عملية الاتصال بين المناطق المختلفة.

5 ـ كثرة الحروب بين الممالك اليمنية وبين القبائل في كل دولة، الأمر الذي يؤثر سلباً على التجارة المحلية[1].

وفي اعتقادنا أن مثل هذه الآراء ليست نابعة من دراسة جادة لتاريخ الحضارة اليمنية القديمة بما فيها من رفعة وتقدم، مكنها من ممارسة تأثيرها على مختلف الشعوب التي تتعامل معها، على الرغم من أن تلك الشعوب تمتلك مقومات حضارية خاصة بها.

وعلى هذا الأساس نعتقد أن الأسباب الواردة سلفاً، والتي أدت إلى عدم ازدهار التجارة في اليمن القديم، هي أسباب لا تصلح إلا لمجتمع يعيش حياة بداوة حقيقية في مجتمع تتفكك علاقاته المشاعية؛ مبشرة بولادة المجتمع الطبقي. وهذه المميزات لايمكن أن تتوافق وتطور المجتمع في تلك الحقبة القديمة من الزمن.

وبغرض إعطاء رؤية واضحة بهذا الخصوص، نقول إن اليمن القديم شهد قيام ممالك يمنية عدة، اتسمت كل منها بطابع حضاري في منهج الحياة ودستورها وقوانينها...

فدولة معين:

اتسمت بنشاط تجاري واقتصادي في تصدير منتجاتها الاقتصادية "البخور والمر واللبان والصمغ" وغيرها من السلع اليمنية وغير اليمنية... وذلك نتيجة

(1) محاضرات في تاريخ اليمن القديم: كرسي التاريخ في معهد عبدالله باذيب، عدن، بدون تاريخ، ص16.

لما توصلت إليه من حضارة اقتصادية وتجارية مكنتها من التحكم بطرق المواصلات التجارية في شبه الجزيرة العربية وشواطئها.

أما مملكة حضرموت:

فقد استطاعت توسيع منطقة نفوذها... فمنذ العصور القديمة كانت تستقبل السلع من البر والبحر، فمن البر كانت مئات القوافل تحمل إليها سلع حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعود منها ببخور اليمن وطيوبها وأحجارها الكريمة، وتوابل الهند، وسلع شرق أفريقيا النفيسة التي جاء ت على متن السفن، وظلت مزدهرة حتى سقوطها في القرن الرابع الميلادي بيد الحميريين أيام شمريهرعش...

وكذلك مملكة قتبان:

التي اتخذت من مدينة تمنع عاصمة لها، فقد عاشت هذه المملكة أزهى عصورها في الفترة ما بين 350 ـ 50 ق. م، ومن الضروري القول: إن وادي بيحان كان في ذروة ازدهار الحضارة القتبانية جنة وارفة الظلال.

أما الدولة السبئية:

فقد أثبتت لنا جدارة الشعب اليمني في الإبداع الفكري والتطور الحضاري في ناحيتين:

الأولى:

الحكم الديمقراطي " الشورى " وما توصلت إلية من غايات أساسية في جدارة لإدارة شؤون الدولة في أي إطار سواء أكان مركزياً أو لا مركزي.

الثانية:

ومن هذا المنطلق تمكن الشعب اليمني من بناء حياته الزراعية والاقتصادية والسياسية على أسس علمية وفنية في بناء السدود والقنوات والحواجز المائية والخزانات، ونحت التماثيل وبناء القصور الفخمة، والنشاط الزراعي الذي أحال اليمن إلى جنة خضراء.

والدولة الحميرية:

وجدت في عهد حضاري شامخ غير أن الأحداث اليمنية، وما صاحبها من تناحر قبلي جعلها تدخل في غمرة الأحداث السياسية... لهذا تمزق الشعب

اليمني في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وأصبحت الحضارة أثراً بعد عين[1].

ولتنظيم التجارة بأسلوب حضاري رفيع؛ ظهرت لدى دول اليمن القديم تشريعات متطورة، تضمنت قواعد القانون الدولي الخاص، وتشهد الآثار التي احتفظت ببعض الوثائق القانونية المكتوبة، بتطور التشريع في اليمن القديم. بما في ذلك مجال ما نطلق عليه اليوم القانون الدولي الخاص، وتحكي هذه الوثائق بأنها وجدت في مملكة معين " أحكام قانونية" تنظم العلاقات التجارية والمواريث وجمع الضرائب، وقوانين مماثلة طبقت أيضا في مملكة سبأ، ومملكة حمير....

تلك القوانين ليست مجرد تجميع لقواعد العرف الحقوقي أو حقوق مكتوبة على أساس الأعراف: بل أصدرت تلك التشريعات مجالس تشريعية متخصصة تضمنت قواعد وضوابط إلزامية لكل الدول الأجنبية.. وكانت هناك قوانين خاصة تتعلق بتجارة الأحجار الثمينة، والبخور وغيرها من السلع التجارية اليمنية، وكل هذه القوانين دونت كتابياً وتعد واقعة نشر القوانين نفسها دليلا على التطور الرفيع لنظام التشريع في تلك الدول اليمنية القديمة.

كما أن التواجد المستمر للتجار الأجانب في مدن اليمن القديمة، وبخاصة مدينتي نجران وعدن، بأعداد كبيرة استدعى ضرورة إصدار نظم قانونية دقيقة حمت قواعدها؛ الأجانب أنفسهم كما حمت ممتلكاتهم، فوجود مثل هذه النظم القانونية ساعد في الاجتذاب الكبير للتجار الأجانب إلى اليمن.. أضف إلى ما تقدم أن دول اليمن القديم امتلكت صلات نشطة مع الأسواق الأجنبية، تشهد على ذلك النقود الأجنبية التي عثر عليها بكميات كبيرة، الجزء الأكبر منها ـ نقود إغريقية ورومانية ـ. وهنا لابد من التنويه إلى أن اليمن امتلكت نقودها المعدنية الخاصة بها، وهيّأ هذا لسلطة ممالك اليمن القديمة بسط نفوذها حتى على قسم من الساحل الأفريقي، ارتكزت ليس على القوة العسكرية؛ بل على التفوق الاقتصادي، كما يتضح من خلال قصة ملكة سبأ مع سليمان ملك أورشليم، التي وردت في القرآن الكريم[2].

(1) عبد الرحمن الحضرمي: اليمن من التفكك السياسي إلى ثورة سبتمبر، الإكليل، العدد 5، صنعاء، 1981، ص51 ـ 53.

(2) محمد أحمد علي: أهم مصادر القانون الدولي الخاص باليمن منذ ما قبل الميلاد إلى ما قبل وضع التشريع المعاصر، الإكليل، العدد 1، صنعاء، 1987، ص38 ـ 39.

إن تلك التشريعات القديمة خاصة في مرحلتها الأولى (كانت تسن باسم الملك ومجموعة من كبار دولته) وكانت السلطة التشريعية العليا بيد هيئة تشريعية كان الملك أحد أعضائها فقط. وصحيح أنه قد وجدت هناك كتابة ترجع إلى بداية المرحلة الثانية؛ تشير إلى أن ملك سبأ وذي ريدان قد أصدر مرسوماً باسمه فقط، إلا أن هذا الإجراء الفردي يعتبر أمراً شاذاً[1].

---

(1) انظر: طبيعة النظام الملكي في اليمن، تعريب وتلخيص سلطان ناجي: مرجع سابق، ص4.

الفصل الثاني

مظاهر النهضة الحضارية في اليمن القديم

أولاً: الفن والعمارة في اليمن القديم

ثانياً: الثقافة في اليمن القديم

ثالثاً: الديانة في اليمن القديم

مظاهر النهضة الحضارية
في اليمن القديم

إن مناقشتنا لمظاهر النهضة الحضارية في اليمن القديم، سوف تنحصر في معالجة التطورات الثقافية والدينية من خلال التالي:

أولاً
الفن والعمارة في اليمن القديم

يعتبر الفن المعماري أهم أركان الحضارة اليمنية القديمة، خاصة وأن سد مأرب؛ كان يمثل أهم صرح لتلك الحضارة، وتومئ الدلائل إلى أن حضارة وادي سبأ في مشرق اليمن؛ لعبت دوراً كبيراً في نشوء فكرة السدود، وتطوير أنظمة الري في الأودية الجافة، ولقد اقترن ذكر سد مأرب بسبأ. والواقع أنه ليس في تاريخ اليمن القديم ما يضاهي تاريخها، فسبأ الأرض والشعب والدولة هي عمود التاريخ اليمني القديم وتكوينه السياسي الكبير... وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن[1].

ولم يحاول أحد أن ينكر أن أهم الآثار التي تميز بها فن المعمار اليمني، وامتلك بها خصائصه الذاتية هي بناء السدود.. وسد مأرب الذي يسد الجبال الواقعة شمال وادي دنا أو أذنة[2]، كان يسمح بري أكثر من خمسة ألف هكتار طبقا للتحديدات والتوضيحات الدقيقة التي أخذ الخبراء مقاييسها من الصور الجوية قبل بناء السد الجديد. ولا تنبع المهارة التقنية والهندسية لهذا الأثر العمراني فقط من ضخامة السد أو دقة البناء أو اتجاهات الجدران القوية، بل أيضا من المهارة العلمية، ووضوح الرؤية في حجز المياه المتدفقة نحو الصحراء

(1) د. يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن القديم وآثاره، بحوث ومقالات، الجزء الأول، وزارة الإعلام والثقافية، صنعاء، 1984، ص74.

(2) انظر: فلاديمير شيندروف: اليمن مشاهدات وانطباعات، تعريب سعيد محمد عبده، دار الهمداني للطباعة والنشر، ط1، عدن، 1983، ص 29 ـ 30.

والبحار خلال فصل الأمطار، وإعادة توزيع تلك الكميات من المياه خلال فترات الجفاف؛ بغية تحقيق مستوى مضمون من الرخاء الاقتصادي[1]. ويقدر أن السد بني في بداية الألف الأول ق. م أي ما بين 850 و900 ق. م. تقريباً.

وقد أقيم سد مأرب لحجز المياه الموسمية المنحدرة من المرتفعات في اتجاه الشرق في منطقة خصبة تمتد ما بين سطوح المرتفعات الجبلية حتى صحراء الربع الخالي[2]، بالإضافة إلى هذا كان سد مأرب (يؤدي غرضين، غرض تخزيني إذ يتم تصريف المياه من فتحتين حسب الحاجة، وغرض آخر هو رفع مستوى المياه إلى خمسة أمتار لري الجنتين، وقد تهدم السد عام 542م كما تبين لـ جلازر ـ مستشرق نمساوي زار اليمن في القرن التاسع عشر ـ، وذلك بسبب تآكله مع الأيام[3].

أول من رأى أنقاض السد هو الهمداني (توفي 945م) وقد وثق العلماء من صحة رواياته، وأخباره، بعد المشاهدة لأنقاضه التي لا تزال قائمة حتى الآن... ففي العام 1843م تمكن الصيدلاني الفرنسي توماس جوزيف أرنو (Tomas Joseph Arnoud) من الوصول إلى مأرب ويعتبر أول من نقل نقوش يمنية قديمة إلى أوروبا حيث نسخ عدداً منها، وهو ما يقرب من ستة وخمسين نقشاً جمعها عام 1845م[4]، بعد أرنو جاء الفرنسي جوزيف هاليفي، والنمساوي جوزيف جلازر، ويرجع جلازر تهدم سد مأرب إلى غزو الأحباش اليمن، بينما يرجحه آخرون إلى ثورة الهمدانيين وانتصاراتهم، أو إلى تحول التجارة من طريق بري عبر مأرب إلى طريق بحري عبر البحر الأحمر، واستئثار الرومان بالتجارة البحرية، مما أضاع على الحميريين ما كانوا يجنون من ثروات، فأهملوا ترميم السد، فتهدم[5].

ولا ريب أن سد مأرب تصدع مرات عدة لأسباب منها السيول الكبيرة التي

---

(1) د. عبدالرحمن الحداد: حوار تاريخي حول أصالة الثقافة والفنون في اليمن القديم، اليمن الجديد، العدد1، صنعاء، يناير 1987، ص55. وكذلك انظر محمد أبو المحاسن: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص49.

(2) د. حمود العودي: التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد النامية ـ دراسة تطبيقية في المجتمع اليمني وعالم الكتب، ط2، القاهرة، 1981، ص29.

(3) د. عفيف بهنسي: الفن العربي قبل الإسلام في اليمن، ص23.

(4) د. أسمهان الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مرجع سابق، ص65.

(5) د. عدنان الترسيسي: مرجع سابق، ص 62 ـ 62.

تنتج عن أمطار غزيرة، وفيضانات نادرة، مما يدخل عموما في الكوارث الطبيعية مثل تصدع السد بسبب الإهمال، وضعف السلطة، وحينئذ تكون الكارثة أدهى وأمر. ومما هو جدير بالذكر أن تحول طرق التجارة من البر إلى البحر، وتحول مراكز الحضارة من الوديان في مشرق اليمن إلى القيعان في الهضبة اليمنية، وانتقال العاصمة من مأرب إلى ظفار، وبالتالي بعد السد عن مركز الثقل الحضاري يعتبر من الأسباب الرئيسة لازدياد مرات انكسار السد في العصور المتأخرة من تاريخ اليمن القديم[1].

وفي اعتقادنا أن مجمل هذه الأسباب لم تؤدِ فقط إلى تهدم سد مأرب، بل وإلى انهيار الدولة اليمنية القديمة، بمجدها وحضارتها، خاصة بعد أن شهدت اليمن هجرات واسعة، كانت نتيجتها ضعف التجارة خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين.

ولسنا ننكر أن اليمن ـ في جنوب الجزيرة العربية ـ كانت أثناء الفترة التي يدور حولها البحث قد فقدت قدراً من التقدم النسبي لاقتصادها الزراعي الذي أحرزته قديما أيام كان سد مأرب عامراً سليماً ولكن اليمن لم تفقد ـ مع ذلك ـ طابعها المتميز كبلد زراعي تكونت لها بالممارسة الطويلة تجارب غنية في تجاوز التبعية المطلقة لعوامل الطبيعة[2].

ومن جانب آخر مثل قصر غمدان أبهى قصور ذلك العهد، عظمة ذلك الفن الهندسي الرفيع، ولعل أقدم ذكر لقصر غمدان في النقوش اليمنية القديمة هو ما ورد في نقش دونه الملك السبئي (شعرم أوتر) وذكر فيه كلا من قصري (سلحين) مأرب، (وغمدان) صنعاء، وكان سلحين آنذاك مقراً للعائلة التقليدية الحاكمة في مأرب إبان الصراع على اللقب الملكي اليمني "ملك سبأ وذي ريدان" أي ملك سبأ وحمير. كما كان قصر غمدان في صنعاء مقراً للملوك من قبيلة (ذي جرة) ومحلها اليوم سنحان قرب جبل كنن.

---

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج1، دار الفارابي، الطبعة الرابعة، بيروت، 1987، ص195

(2) د. يوسف محمد عبدالله: أوراق. . . ، مصدر سابق، الجزء الأول، ص93. وبتحطم السد تحولت الروايات إلى أسطورة، وعلى سبيل المثال هذه الأبيات الشعرية التالية:

لا تحتقر كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب
قد هد عرش بلقيس هدهد ... ودك الفأر سد مأرب

والأساطير في كتب الأخباريين المسلمين لا حصر لها، وتحتاج منا لدراسة وتمحيص وحذر عند الاستناد عليها.

ولما كان الملك (شعرم أوتر) قد وحد المملكتين فقد دعا القصرين في نقش واحد، ويحدد علماء النقوش اليمنية القديمة تاريخ هذا النقش بنهاية القرن الثاني الميلادي[1].

ومنذ ذلك الحين أصبح قصر غمدان قصر العائلة الملكية لدولة سبأ وذي ريدان، وقد ترك لنا الهمداني وصفاً لقصر غمدان؛ أنه كان مكوناً من عشرين طابقاً، وهو ما يؤكد براعة اليمنيين في العمارة لأنهم أنجزوا روائع مبنية بالحجارة عدا الطين. وتؤكد بعض الكتابات التي عثر عليها أن الملك "إل شرح يحضب 85م" قد أضاف إلى السطح الأخير غرفة مغطاة ببلاطات مرمرية شفافة، حتى أن الملك كان يستطيع أن يرى من سريره أنواع الطيور التي كانت تمر.

وكانت تعلو هذه الغرفة من زواياها الأربع أربعة تماثيل لأسود برونزية فاغرة ـ مجوفة ـ تزأر بفعل الرياح التي تخترقها. .الخ. . . وكان لهذه الغرف عدد من النوافذ ذات إطارات من الرخام وأبوابها من الأبنوس المفرغ تحجبه ستائر من الحرير[2].

وقال ابن شريه " . . . وكان لكل غرفة أربعة أبواب قبالة: الصبا والدبور والشمال والجنوب. وعند كل باب أسد من نحاس، فإذا هبت الريح من أي باب زأر ذلك التمثال الذي هو قبالة الباب، فإذا تناوحت الأرواح؛ زأرت جميعها [3]. غير أن الروايات المتعددة؛ تحولت إلى أساطير مع مرور الزمن، وسطرها الأخباريون كما هي عليه، مؤكدة بأن قصر غمدان لم يبنَ إلا بواسطة الجن[4].

---

(1) د. السيد عبدالعزيز سالم: مصدر سابق، ص67 ـ 68. الجدير بالذكر أن الهمداني ذكر عدد آخر من القصور الملكية، انظر: الإكليل، ج8، حرره وعلق علي حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة، بيروت، دار الكلمة، صنعاء، بدون تاريخ، ص 11 ـ 13.
وقد تطرق فيليب حتى لقضية السد قائلا: " وتناولت مخيلة العرب المتأخرين الرائع عن أخبار السيل العرم وانفجار السد المنيع، فعللت به حالة التأخر والانحطاط في تاريخ الجزيرة العربية الجنوبية، والتقهقر والانحلال في مرافق الزراعة، وانقضاء عصر الازدهار والتقدم القومي، وهو انحلال ترجع أسبابه كما رأينا إلى اتصال الرومان بالبحر الأحمر. . . وإلى المؤثرات الدينية التي صحبت دخول الدين الجديد. . وما تلى ذلك من الخضوع لنير الأجانب " فيليب حتى وآخرون: تاريخ العرب المطول، ص85.

(2) د. يوسف محمد عبدالله: صنعاء المدينة العربية الإسلامية، ص283 ـ 284.

(3) د. عفيف بهنسي: مصدر سابق، ص25 ـ 26.

(4) القاضي حسين أحمد السياغي: معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، صنعاء، 1980م، ص12.

وقد نفى الهمداني أن بناء تلك الآثار هو من بناء الجن. . . واحتج لذلك بحجتين؛ إحداهما أن المدة بين عودة بلقيس من فلسطين إلى اليمن وموت سليمان عليه السلام الذي قيل إن الجن رفعت أيديها عنه سبع سنين، وقد ثبت في مساند اليمن أن محافدها كان يتناوب على إكمال بنائها الجيل وبنوهم ثم أحفادهم، حتى ذكروا أن قصر سلحين بني بسبع وسبعين سنة. والحجة الثانية أن علقمة بن ذي جدن وأمثاله من قدماء الشعراء كانوا يقولون في شعرهم إن هذه يتولاها الناس وليس الجن[1].

وقد هدم قصر غمدان بعد دخول اليمن في عهد الدولة الإسلامية، وذلك في أوائل القرن السادس الهجري؛ بأمر من الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه باعتباره أثراً وثنياً. وفي اعتقادنا أن هدم قصر غمدان لا يرجع مطلقا لمثل هذا المبرر، خاصة وأن الجيوش العربية الإسلامية تمكنت من السيطرة على بلدان مختلفة لكننا لم نقرأ أبدا عن هدم القصور بحجة أنها رمز للوثنية.

وعليه كانت الأوامر القاضية بهدم قصر غمدان نابعة من الصراع العدناني القحطاني، الذي أخذ يشتد أثناء حكم عثمان بن عفان رضي الله عنه[2]، على أننا نود أن نوضح أن ذلك التراث الفني، وبناء على التنوع البيئي الشديد، جاء متأثراً بظروف وخصائص المكان والواقع الجغرافي الطبيعي الذي احتوى كل مركز من مراكز

(1) انظر: أحمد عبدالله الرازي الصنعاني، تاريخ مدينة صنعاء، حققه ووضع فهارسه حسين عبدالله العمري، عبدالجبار زكار، الطبعة الأولى، صنعاء، 1984، ص 14 ـ 16.

(2) محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني: الإكليل، الكتاب العاشر، ص23. بدخول اليمن عهد الدولة العربية الإسلامية، غدت في طي النسيان، ليس هذا فحسب بل كانت هناك محاولات جادة لطمس مختلف معالم الحضارة اليمنية " وهذا ما جعل الهمداني يحدد موقفه السياسي بطريقة مباشرة في قصيدته (الدامغة) وفي شرحها، فهو يتبع فيها تاريخ الكيان اليمني منذ القدم كما ترسخ في وجدان اليمنيين، سواء كحقائق تاريخية أم كأساطير، تدل على التعلق بمفهوم محدد للدولة اليمنية وبأرض محددة تحققت عليها هذه الدولة اليمنية الموحدة، وبإنجازات حضارية عظيمة لا تزال بعض آثارها شامخة تدل عليها وتكون الحصيلة النهائية طموحا موحدا نحو إعادة هذا الكيان اليمني إلى التشكل من جديد، والفعل في حركة التاريخ.

علي محمد زيد: النظرية السياسية في الفكر الهمداني، مجلة الإكليل، العدد3، السنة الأولى، عام 1981م، ص47 ـ 48.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه فيما يتعلق بالصراع العدناني القحطاني، ولمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع، انظر: أحمد بن محمد الشامي: دامغة الدوامغ، من مطبوعات معهد الإمام الهادي للتأليف والنشر، (1)، 1966، الصفحات 9 ـ 32

الثقل الحضارية اليمنية. بل ولقد تأثر الانفتاح والتأهل لمنطق الأخذ والعطاء المتبادل بين الحضارة اليمنية والحضارات الأخرى على الصعيد الخارجي.

وانفتاح اليمن على العالم القديم، الذي تمثل في عالم المحيط الهندي، وعالم البحر المتوسط، بحكم الموقع الجغرافي، والاتجاه الحصيف إلى العمل في الوساطة التجارية أمر مؤكد لا يستحق الجدل... وقيل إن هذا الانفتاح على العالم الخارجي، الذي لم يتوقف على المدى الطويل، وربما قبل أن تبدأ الألف الأولى قبل الميلاد وقد أباح للفنون اليمنية أن تطل وأن تتعرف، وأن تتأثر وتؤثر في الاتجاهات الفنية المصرية والآشورية والبابلية والفارسية واليونانية والهندية[1].

ثانياً

الحياة الثقافية في اليمن القديم

تنتمي اللغة اليمنية القديمة إلى مجموعة اللغات التي تتحدث بها الشعوب السامية، مثل البابليين والفينيقيين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب التي خصتها التوراة بالذكر على أنها من نسل سام بن نوح ﷺ، ففي الأسطورة التكوينية - نسبة إلى سفر التكوين - التي نجدها في التوراة، أن الإنسان ينحدر من أبناء نوح الثلاثة " سام - حام - يافث " الذين شاء عباقرة بني إسرائيل أن يجعلوهم وحدهم - بعد غرق كل ذي حياة في الطوفان - آباء النوع البشري كله.

وتضيف الأسطورة؛ بتسلسل النوع الإنساني من هؤلاء البطاركة المحترمين، بطريقة جد غريبة... إذ تصور أن نسل يافث... بكونه أحب الأولاد الثلاثة إلى أبيه... مسح باللون الأبيض.. وأقطعت لسلالته الأرض، التي عرفت فيما بعد بأوروبا، وأن سام ثاني الثلاثة من محبة أبيه مسح باللون "نص نص" وأقطعت لسلالته الأرض التي عرفت فيما بعد بآسيا.. وأن حام العاق والمغضوب عليه بسبب كشفه عورة أبيه، مسح باللون الأسود.. واقتطعت لسلالته الأرض اليتيمة التي عرفت فيما بعد بأفريقيا.. وحكم عليه قاضي القضاة بأن يكون عبداً لأخويه.. فتكون سلالته من قبيل الاستطراد، عبدة أيضا "[2].

---

(1) عبدالحليم نور الدين: ملامح الفن اليمني القديم - رسم، نحت، نقوش، اليمن الجديد، العدد 7، أكتوبر 1985م، ص 72.

(2) د. جورج حنا: الإنسان العربي قديمه وجديده، دار العلم للملايين، بيروت، 1964، ص18.

وأحسن مثال للغات الجنوب ما خلفه السبئيون من النقوش بالحرف المسند... والعرب يسمون لغة قدماء اليمنيين "المسند". ولمن أقام حول اليمن من العرب لغات لعلها فرع من لغة اليمن، وكان لكل إقليم منها لسان تختلف عن سائر الأقاليم وله اسم خاص يعرف به،.. ويقسم علماء الساميات مجموعة اللّهجات العربية الجنوبية إلى قتبانية، ومعينية، وسبئية وما يتصل بها من مهرية وشحرية.

وقد سمّي الخط السبئي بالمسند لأن حروفه مكونة من خطوط عمودية وأفقية ومائلة ومستقيمة، ويكتب من اليمين إلى اليسار، وأحيانا يعود السطر من اليسار إلى اليمين ـ خاصة في الفترة الأقدم ـ وإن كان هذا قليلا. ويفصل بين كل كلمة وأخرى خط عمودي، ولهم قواعد خاصة في الكتابة، فتحذف حروف العلة ـ الألف والواو والياء ـ إذا جاءت وسط الاسم[1].

ويجب التنويه هنا أن النقوش الصخرية المعبرة عن الحياة اليومية، تختلف اختلافاً كبيراً عن النقوش الإنشائية المعمارية، فهي غالباً ما تكون قريبة مما يدعون بالكتابة (الثمودية) فهي تتميز بحرية أكبر من ناحية رسم الحروف بأشكال مختلفة، وكذا اتجاه الكتابة، وسهولة استبدال حرف بآخر.

وهذه الكتابة اليومية دليل رئيس على الانتشار الواسع للكتابة، وعلى كثرة العارفين بها، فالنقوش في المعابد يمكن أن يوصي بها الأميون، فالخطاط يقوم بالمهمة عنهم، لكن النقوش التي في الصخور يكتبها أناس قادرون، قادمون من مختلف الفئات في المجتمع كالموظفين، وجامعو الضرائب، والتجار، والصيادون، وغيرهم.

وقد ساعد هذا، العلماء على اكتشاف ليس فقط عدة مئات من النقوش، ولكن وجدت عدة نقوش مختلفة فيما بينها، لتشهد التطور الكتابي الذاتي، وعلى أسلوب خاص بها، والحاوية العديد من المصطلحات والتعابير، إضافة إلى ذلك عثر على نصوص آتية من فئات مختلفة من المجتمع، من النذور المهداة إلى المعابد، وحتى الكتابة على عسيب النخيل[2].

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، ص41، ولمزيد من المعلومات حول اللغة والثقافة عند العرب في عصر ما قبل الإسلام؛ انظر عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 164 ـ 165.

(2) زيد علي عنان: مصدر سابق، ص119. ويقول الأستاذ وندل فيلبس: في كتابه كنوز مدينة =

ولأول مرة في تاريخ دراسة جنوب الجزيرة العربية نجد أن مثل هذه النصوص، وحدها تنتمي ـ على أغلب الظن ـ إلى مابين القرن الأول والقرن الرابع الميلادي.

وهذا الاكتشاف يدلنا على وجود كتابة سريعة، وتشبه التي يستخدمها المواطنون في المكاتبات الرسمية والشخصية، إضافة إلى كتابة المسند المستعملة في الأغراض الدينية (لسدنة المعابد) والرسمية المكتوبة بالأحجار. وهذه النقوش واحدة من الإثباتات على المستوى الرفيع للحضارة اليمنية، والإثبات القاطع لهذا الاستنتاج والشهادة على الانتشار الواسع لمعرفة الكتابة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وهو ما وجد على الصخور من نقوش ومخربشات عديدة، التي بُدئ العمل في البحث عنها، وتسجيلها وقراءتها في هذا الموسم، وفي أثناء هذا العمل صيغت مناهج علمية لدراسة المخربشات الصخرية لأول مرة، وهذه المناهج تمكننا من الحصول على معلومات غنية عن جوانب الحياة المختلفة، والنواحي الأيديولوجية لليمنيين القدماء[1].

وعلى سبيل المثال، نجد الكتابة الرسمية في حضرموت تتمثل في النقوش على البلاطات الحجرية، التي كانت تغطي جدران المعابد المبنية من المدر، وهذه البلاطات كانت تطلى بطلاء أحمر، وعليها كانت ترسم بدقة خطوط وأماكن الحروف، وبعد ذلك تنحت النقوش غالباً، على البلاطات وهي ملصقة على الجدران[2].

وبهذا الصدد نقول: إن الخط المسند كان هو السائد في كل بلاد العرب، قبل ظهور اللغة العربية بزمن كبير، ويذهب المستشرق (موريتز) الألماني إلى أن أصل الكتابة بالحروف الهيروغليفية، كان في اليمن، وهو يعتقد أن اليمنيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيين، كما هو الرأي السائد، بل ويذهب

= بلقيس، ص119 ـ 120، أن بعثته الأثرية اكتشفت في وادي " الفارة " نوعا من النقوش القديمة لم يعرف كنهها بعد محفورة على الصخور. وكانت هذه النقوش منحوتة في اسطر ثلاث، من اليسار إلى اليمين بدلا من طريقة الكتابة الإغريقية القديمة التي تبدأ من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين في السطر الثاني وهكذا، وتدعى طريقة دوران الثور أو خط سير المحراث، وهذه الطريقة هي التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية القديمة.

(1) حضرموت القديمة والمعاصرة ـ الأبحاث الميدانية لعام 87م، ج2، إصدار المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف ـ ص 97 ـ 103.

(2) نتائج أعمال البعثة السوفيتية اليمنية لعام 86 م، دليل المعرض، ص 7 ـ 8.

(موريتز) إلى أبعد من هذا قائلا: إن الفينيقيين إنما بنوا كتاباتهم على الكتابة العربية اليمنية ثم إن اليونان أخذوا الكتابة عن الفينيقيين، وعنهم أخذ الرومان، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، ولهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية[1].

بل إن النقش الذي اكتشفه جوزيف هاليفي في نقب الهجر ـ منطقة نجران ـ عام 1772م عرّف الباحثين اللغويين أن اللغة الجنوبية في شبه جزيرة العرب قريبة من اللغة الأكادية ـ البابلية والآشورية ـ واللغة الحبشية في بعض الجوانب مثل تكوين الأسماء وتعريف الأفعال وبعض المفردات والضمائر. ولكن وجود جمع تكسير بها يجعلها تقترب أكثر من لغة العرب الشماليين واللغة الحبشية[2].

وفي اعتقادنا كانت الكتابة اليمنية القديمة تختلف من منطقة لأخرى حسب المتحدثين لهذه اللَّهجة أو تلك في حدود ضيقة. لكن هذه اللَّهجات التي كان يتكلم بها عرب الجنوب تختلف أيضا عن لهجة قريش وعرب الشمال، إلا أن هذا الاختلاف لم يكن عند ظهور الإسلام كبيرا. ذلك أن سكان الجنوب بما كان لهم من قوة ورقي استطاعوا أن يوجدوا الفوارق الكبيرة بين اللغتين في الألفاظ لتجانس اللَّهجتين في النطق[3].

بيد أن السيادة الاقتصادية التي كان يتمتع بها اليمنيون، لم تمكنهم من فرض لغتهم الخاصة، بينما استطاعت العدنانية فرض اللغة العربية على الشعوب، وهم قوم لا حظَّ لهم من سيادة أو ثروة، ولا حضارة على قوم ـ أي اليمنيين ـ هم السادة وهم الساسة، وهم المترفون، وهم المتحضرون[4].

كما كان لعرب الجنوب في العهد الجاهلي مدارس ومعاهد للتربية والتعليم، وكانت لهم دور كتب يختلف إليها الطلاب ورواد العلم: وكان التعليم عندهم ينقسم إلى قسمين ـ ابتدائي وعالي ـ وهناك من الدلائل ما يدل دلالة قاطعة على أنه كان لكل من القسمين مدارس ومعاهد خاصة به. وكان الأطفال في القسم الابتدائي يدرسون الهجاء والمطالعة والحساب وقواعد اللغة. كما كان

---

(1) حضرموت القديمة والمعاصرة، مرجع سابق، ص 98.

(2) سعيد عوض باوزير: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص16.

(3) د. لطفي عبدالوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة (مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص149.

(4) سعيد عوض باوزير: مرجع سابق، ص21. وللمزيد من التفاصيل انظر: أ.ج. لوندين: الثقافة العربية الجنوبية في القرن السادس، الثقافة الجديدة، العدد 2، مارس 1987، ص14 ـ 17.

الطلاب في القسم العالي يدرسون الهندسة العملية والحساب وعلم الفلك والطب، وفن العمارة والنقش والأدب والتاريخ[1].

كما عرف الحميريون أسماء الشهور والأيام، وكان أبو محمد لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني قد صنف كتاباً ضمنه تلك الأبحاث التي هي التاريخ وأسماء الشهور وأسماء الأيام، التي ابتكرت أيام حضارة اليمن الخضراء القديمة. ولكن للأسف الشديد فقد هذا الكتاب ضمن مجموعة مؤلفاته المفقودة[2].

وعلى هذا الأساس نحدد بأن تلك الحضارة تدل على كمال وقوفهم على العلوم التي لابد منها لحفظ النظام، وعليها مدار المعاش والانتعاش وسياسة المدن والجيوش، وتأسيس المدن، وإجراء المياه، وغير ذلك... وكانت لهم اليد الطولى في كثير من الصناعات، وكان للتبابعة والجبابرة منهم مذاهب في أحكام النجوم وغيرها[3].

وخلال الحفريات الأثرية اكتشف العلماء أعدادا كثيرة من التماثيل التي صنعت بدقة متناهية من الذهب (ذي ذهب كما في النقوش اليمنية والمقصود البرونز) والرخام... وغير ذلك، كما لاحظ العلماء ولع اليمنيين بالزخرفة بمختلف أشكالها، حيث كان اليمنيون يحفرون الرسوم على جدران منازلهم من الخارج، أو يعملون على اقتناء الرسوم اليدوية من الأخشاب والنسيج لكي يدخلوا البهجة على زوارهم. بالإضافة إلى اكتشاف المومياء في شبام الغراس (شرق صنعاء) يعطينا دليلا على عظمة تلك الحضارة التليدة.

وخلاصة القول؛ إن الحضارة اليمنية حضارة تاريخية ذات دلالات واضحة، بل إن تراثها وتاريخها وتقاليدها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأنها كانت حضارة إنسانية بالمفهوم الواسع، وبازدياد عمل التنقيبات الأثرية سينكشف الغموض عن الدور الإنساني الرفيع الذي لعبته الحضارة اليمنية القديمة بين

---

(1) انظر: طه حسين: تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول، ـ العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، بيروت، 1981، ص104.

(2) سعيد عوض باوزير: مرجع سابق، ص24.

(3) القاضي محمد بن علي الأكوع: قصيدة البحر النعامي للأشهر الحميرية وما يوافقها من أغذية، ص10. بل أن الخلافة الإسلامية أيام عمر بن الخطاب (عندما أخذت تؤرخ بالتاريخ الهجري استفادة من علم اليمنيين بهذا الخصوص ـ انظر: عبدالرحمن بن الديبع: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء 1979، ص20 ـ 21.

بلدان الشرق القديم. ذلك لأن إنسانية حضارة ما؛ هي انعكاس لاجتماعية قومها، واجتماعية قوم ما أو حضارة ما؛ هي انعكاس لتفهم قومها حضارتهم وحضارات الأقوام الأخرى، ومدى استعدادها لتوثيق التفاعل بينها وبين غيرها من الحضارات[1].

ثالثاً

الحياة الدينية في اليمن القديم

مارس اليمنيون في البداية عبادة وثنية بجانب عبادات فلكية تجسدت بأجرام سماوية، هي القمر والشمس والزهرة. وبرغم هذا فقد اختلفت مسميات تلك المعبودات من مملكة لأخرى، حيث كان السبئيون يطلقون على القمر (المقه)[2]، بينما عرف ب ـ (عم) عند القتبانيين والأوسانيين، و(سين أو سيان) عند الحضارمة، و(ود) في معين... أما الشمس فقد عرفت بـ (ذات نكرح) و(ذات حميم) و(ذات بعدن) و(ذات صخرن) عند كل من سبأ، وحضرموت، وقتبان ومعين، والزهرة عرف بـ (عثتر) عند كل الممالك.

وقد ارتأى عدد من المؤرخين أن الديانة اليمنية القديمة القائمة على عبادة الأوثان؛ قد تأثرت بوثنية بلاد الرافدين، لأن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين، وعن عرب أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب وقوامها ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة، أما القمر فقد كان الإله الأكبر ويليه الشمس وهي اللات والآلهة، وكانت في نظرهم زوجة القمر، ومنها ولد عشتر وهو الزهرة[3].

وقد آمن اليمنيون شأنهم شأن الفراعنة في مصر بحياة أخرى بعد الموت ـ البعث ـ وقد دل على ذلك ما وجده علماء الآثار من الأواني الحياتية مع الموتى

---

(1) سعيد عوض باوزير: مرجع سابق، ص18.

(2) انظر: علي محمد الصليحي: الكيان السياسي والديني في اليمن القديم، دراسات يمنية، العدد 38، صنعاء، 1989، ص 220 ـ 222.

(3) د. جورج حنا: الحقيقة الحضارية، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1958، ص9. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: د. أسمهان سعيد الجرو: الفكر الديني عند عرب جنوب الجزيرة العربية (الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي) مجلة أبحاث اليرموك، العدد الأول، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، 1998م، ص ص 219 ـ 250.

في المدافن، ولعل أبلغ تجسيد لذلك ما تم العثور عليه في العديد من المقابر؛ مثل السيوف والرماح والخناجر[1]، فضلاً عن الكؤوس والأختام وغير ذلك[2].

لكن ذلك لم يمنعهم من بناء حضارة؛ متسمة بحب اليمنيين للحياة الدنيوية ونعيمها، وما بناء السدود والقصور إلا تأكيد رائع على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، بل ولأن هذا البناء كان يمثل أحد الأركان الأساسية التي قامت عليها الحضارة اليمنية، على عكس الحضارة الفرعونية التي مثل بناء الأهرامات فيها قمة البناء الحضاري الفرعوني في ذلك العهد، وفي وقت حاولوا من خلاله ترجمة ذلك الإيمان العميق بحياة الخلود الأخرى بعد الموت. وما الأهرامات إلاّ مقابر عظيمة للملوك يستطيعون أن يخفوا بداخلها أموالهم وممتلكاتهم دون خوف من أن تنالها أيدي اللصوص. والباحث في تاريخ الحضارة اليمنية ـ المصرية، يستطيع من هذا المنطلق أن يحدد بدقة متناهية ملامح كل حضارة على حدة.

كما شاعت بين اليمنيين بعض المعتقدات المتمثلة بالشعوذة والأرواح الشريرة وتقديم القرابين من الحيوانات دون البشر[3]... الخ.

إن التطور الحضاري وما تلاه من رقي في اليمن كان قد رافقه تطور ثقافي في حياة المجتمع اليمني قديما شمل أو يكاد يكون قد تمحور في جانب الحياة الدينية وتطور الوعي الديني. فما أن حل المجتمع الطبقي والعلاقات الطبقية على المجتمع المشاعي والعلاقات العشائرية القروية القديمة حتى تلاشت الديانات البدائية ذات الطابع التعددي مفسحة المجال لمستوى أرفع من الوعي الديني يرقى في تطوره إلى مصاف التوحيد... ليكون المهد الفعلي لظهور وانتشار الأديان التوحيدية في الجزيرة العربية[4].

---

(1) انظر: محمد عبدالقادر بافقيه: المستشرقون وآثار اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988م، ص 839 ـ 840.

(2) د. منذر عبدالكريم البكر: دراسة في الميثولوجيا العربية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، العدد 30، الكويت، 1988، ص 129 ـ 130.

(3) لمزيد من المعلومات، انظر: إبراهيم الصلوي: أعلام يمنية قديمة مركبة ـ دراسة عامة في دلالاتها اللغوية والدينية، مجلة دراسات يمنية، العدد 38، صنعاء، 1989، ص 123 ـ 125.

(4) انظر د. سيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية منذ العصر الجاهلي وحتى سقوط الدولة الأموية، ص30. انظر كذلك: جاكلين بيرن: الفن في منطقة الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام، ترجمة محمود داؤود، دراسات يمنية، العدد 23، 24، صنعاء 1986، ص 28 ـ 30.

الفصل الثالث

مظاهر النظام السياسي والاجتماعي في اليمن القديم

تمهيد عام

أولاً: تطور نظام الألقاب الملكية

ثانياً: النظام الضرائبي

ثالثاً: العلاقات العبودية

رابعاً: سقوط الدولة اليمنية القديمة

مظاهر النظام السياسي والاجتماعي في اليمن القديم

تمهيد عام:

حاول العالم النمساوي (جوزيف جلازر) ومن بعده الرحالة الإنجليزي (جون فيلبي) في بحوثهما التأكيد على أن معين هي أولى الممالك اليمنية القديمة، وظلت هذه الفرضية أو هذا الرأي سائدا لفترة طويلة من الزمن، غير أن التنقيبات الأثرية في السنوات الأخيرة دحضت هذا الرأي مؤخرا، حيث تأكد أن سبأ هي أقدم الممالك؛ بالاستناد على جملة من الأدلة وهي:

1 ـ المصادر القديمة من خارج اليمن كالكتابات الآشورية والتوراة كانت تتحدث عن سبأ ولا تشير إلى معين. وحتى المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) تخبر عن سبأ أكثر مما تخبر عن معين.

2 ـ إن نقشاً قديماً كنقش النصر لكرب إل وتر من صرواح ويعود تاريخه إلى ما قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، وربما اعتبر أقدم النقوش اليمنية الطويلة على الإطلاق. يذكر دولاً مثل أوسان وحضرموت وقتبان إلى جانب سبأ ولا يذكر مملكة معين. بل ويذكر مدن الجوف كنشان ونشقم وعرار على أساس أنها مدن سبئية. وبعد نقش النصر بزمن تتحدث النقوش السبئية والمعينية عن مملكة معين وملوكها إلى جانب ملوك سبأ.

3 ـ إن دراسة تطور خط المسند، قد بينت وفق معطياتها أن أقدم أشكال الخطوط اليمنية القديمة هي تلك التي عثر عليها في مأرب وصرواح وغيرها، وليس النقوش المعينية التي عثر عليها في الجوف باللّهجة المعينية.

4 ـ إن أقدم النقوش التي عثر عليها في الجوف كتبت بلهجة سبئية وليس بلهجة معينية، والفرق بين اللّهجتين واضح ومعلوم.

5 ـ إن ما يعرف من معلومات نقشية عن ازدهار مملكة معين ربما لا يتعدى

القرن الرابع ق.م. وإن أكثر ما نعرفه عن حضارة معين يعود إلى القرنين الثالث والثاني ق.م، بينما تتجاوز معلوماتنا عن سبأ تلك الفترة بزمن[1].

وتأسيساً على ذلك يمكننا القول أن اليمن استطاعت أن تكون الدولة، وأن تخلق مجتمعا طبقيا منذ عهد سحيق.

لذا كان لكل الدول اليمنية القديمة نظام متقارب، حيث كانت الدولة تتألف من ولايات لامركزية ترتبط بالحكومة المركزية وكانت معظم هذه الدول تجارية أكثر منها حربية ما عدا حمير فقد فرضت عليها الدولة الرومانية والدولة الفارسية ومطامعهما أن تكون دولة حربية، وكانت نظمها الاجتماعية ذات طابع تعاوني إقطاعي، وكانت الضرائب على ثلاثة أنواع: لمنفعة خزانة الملك؛ وللكهنة والمعابد؛ وللشيوخ والأذواء والحكام[2].

أولاً

تطور الألقاب الملكية

كان نظام الملكية في المجتمع اليمني القديم؛ نظاماً وراثياً ينتقل من الآباء إلى الأبناء، ويتولاها في العادة الابن الأكبر. وللملك مطلق التصرف، وسلطان واسع، أوامره قوانين، وإرادته مطاعة. على الرغم من أنه يستمد قوته من حقه المقدس، إلا أنه مع ذلك كان يستشير في أمور الدولة كبار رجال الدين ورؤساء القبائل في أمور السلم أو الحرب، وفي النظر إلى المشكلات التي تتعرض لها الدولة، حيث يجمعهم مجلس يسمى "مسود"، ولم تكن لآراء تلك المجالس سوى القيمة الاستشارية دون إلزام الملك بقبولها، وهو أسلوب متقدم لم يكن معهودا في النظم القديمة[3].

وعلى الرغم من أن البعض يرى أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تعرف شكل الحكومة المركزية، وإنما كانت فيها وحدات سياسية مستقلة على أسس قبلية، يتفاوت تنظيمها تبعا لتباين اتساع نطاق نفوذها. لكن هذا الرأي لا يمكن

(1) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، الجزء الثاني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ص35.

(2) عزالدين كشار: تطور الوعي الديني في اليمن ـ من أبسط أشكاله حتى التوحيد، الثقافة الجديدة، العدد (5)، عدن، 1985، ص16.

(3) القاضي عبدالله الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، دار الكلمة، صنعاء، ط3، 1985، ص 83.

أن ينقص من شأن الممالك العربية التي ظهرت قبل الإسلام، أو يضعف من قدرتها وإسهاماتها في تشييد البنيان الحضاري الذي بدأته البشرية منذ آلاف السنين[1]، وهذا الرأي لايمكن أن يصح إلا في حالة واحدة فقط؛ وذلك عندما بدأت اليمن تجارتها مع العالم كمدن ومناطق وقبائل، وفي وقت كان الأذواء وزعماء القبائل والعشائر هم السادة في تلك الأرض.

وفيما يتعلق بالأقيال[2]، فإنهم في بداية ظهورهم كانوا أمراء حلّوا مكان بعض ملوك القبائل الذين كانت تعج بهم اليمن في العهد السحيق (نقش RES 3945) وقد كان هناك إلى جانب الأقيال والأذواء فئات أخرى[3]، خاصة في دولة سبأ؛ وهم غالبا رؤساء عشائر تلك القبيلة أو الاتحاد القبلي. الذين يتميزون بلقب (كبير) مضافا إلى اسم العشيرة ـ أو الأسرة ـ مثل "كبير خليل" و"كبير إقيان"، وشبيه بهم أيضا الزعماء الذين كان يكتفى في تمييز مكانة الواحد منهم بلفظة "بن" إضافة إلى اسم العشيرة مثل "بن جدن" و"بن حزفر".

ولعل من بين أمثال أولئك الزعماء جميعا من كان ينطبق وصف الأسبوء الذي قد لا يعني أكثر من جمع "سبئيين" مضافا على وزن الأفعول المعروف. والذي يكتب على النقوش "أسبان" في مرحلة من المراحل على الأقل يتقدمون في المكانة على الأقيال في مملكة سبأ (جام 629) مثلا.

على أن "بن" لم يكن دخولها مقتصراً على أسماء عشائر سبأ، فهي تتقدم على السلالات القبلية، فيقال على سبيل المثال "بن همدان" لأقيال حاشد مع ذكر لقب "قول" أي "قيل" وجمعه "أقوال" بعد ذلك أو بدونه[4]. بينما نجد قمة السلطة السياسية كانت تتكون من مجلس أعلى يضم ثمانية أشخاص يمثلون ثمانية بيوت أو أقاليم ـ قبائل ـ، وكان الملك لا يصلح إلا بهم؛ فإذا أجمعوا على عزل ملك عزلوه، كما يجمع الأخباريون والمؤرخون كذلك بأنه عندما

---

(1) د. عبدالله باوزير، مرجع سابق، ص42. انظر كذلك: لنكولوس رودكاناكيس: الحياة العامة للدول العربية الجنوبية، ترجمة فؤاد حسنين، مكتبة النهضة، القاهرة، 1958، ص 113 ـ 149.

(2) د. إبراهيم الصلوي: القيل، الموسوعة اليمنية، ج2، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، 1992، ص 778 ـ 782.

(3) انظر: أنور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة، دار الفكر، بيروت، 1970، ص 40 ـ 41.

(4) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1983، ص15.

مالت سلطة الملوك الحميريين المتأخرين إلى الضعف لسبب أو لآخر؛ مال هؤلاء الثمانية أو "المثامنة" وهو الاسم الذي عرفوا به تاريخيا مع غيرهم من الأقيال والأذواء من خارج البيت الحميري؛ إلى الاستقلال بأقاليم الدولة والتصرف بشؤونها كيفما يشاؤون... وشاعت قبل ذلك وبعد ذلك ألقاب "ذو" و"قيل" للدلالة على هذه الزعامات الإقليمية شبه الإقطاعية[1].

ومن خلال هذا يمكننا أن نحدد بأن نظام القيالة في اليمن بدأ بالظهور في الألف الأول قبل الميلاد، وكانت أراضي مملكة سمعي ـ شمال صنعاء ـ هي مهد نظام القيالة منذ عهد كرب إل وتر، وقد استمر هذا النظام حتى دخول اليمن في الدولة العربية الإسلامية.

ورغم أن النقوش لم تحدد بدقة علاقة الأقيال بالملك، لكن الأقيال ـ على الأرجح ـ كانوا يدينون بالسيادة الكاملة للملك، رغم أن بعض الأقيال كانوا ملوكا، كما أورد ذلك نقش النصر، وأبلغ مثال على هذا ملك منطقة "سمعي"... الخ، وتفسير ذلك هو أن اليمن القديم كان يتكون من تجمعات قبلية رئيسة مستقلة (شعوب) تحتل كل منها مساحات محددة من الأرض، ومن اتحادات قبلية تضم عدداً من القبائل والعشائر، أو اتحادات دول ذات سيادة. وكان اسم الشعب هو اسم القبيلة الزعيمة (سبأ، همدان، حمير، ... الخ) التي تربط بين أفرادها الروابط الاقتصادية وروابط العمل، وأصبحت العلاقة بين القبيلة الزعيمة والقبائل المنضوية تحت لوائها أقرب في حياتها إلى نظام الدولة كأمة. وهذا التعبير الجديد أخذ ينتشر مكوناً النظام الاتحادي، وقد انضمت إلى هذا الاتحاد مع مرور الزمن قبائل أخرى كانت في السابق تدين بالولاء لملك صغير من أسرة في مستوى طبقة الأشراف أو أسرة ملكية سابقة[2].

وكان على رأس (الشعب) حاكم محلي يحمل لقب ملك، فالملكية هنا ملكية قبلية، وهناك إله يلتف حوله الشعب بمختلف قبائله؛ مع وجود آلهة محلية لكل قبيلة، فعندما يبرز (الشعب) لأسباب سياسية واقتصادية أو لقوة عسكرية، ويحرز هيمنة على مجموعة من القبائل (الشعوب) المجاورة؛ يؤدي ذلك إلى نشوء تجمع اجتماعي سياسي جديد، فتأتي عندها الحاجة إلى التمييز

(1) محمد عبدالقادر بافقيه: الأقيال والأذواء، اليمن الجديد، العدد 2، فبراير 1987، ص48 ـ 49.
(2) علي صالح الكهالي: الحياة السياسية والدينية في اليمن القديم والحجاز ـ القرن الرابع حتى السادس الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، 2002 م، ص17 وما بعدها.

بين لقب الملك الأعلى (ملك الملوك) وألقاب الملوك التابعين [1]. وتم ذلك من خلال تطور أدى إلى قيام نظام القيالة وانتشاره، فاختفى مع مرور الوقت لقب الملك في الشعوب التابعة، ليحل محله لقب (قيل)[2]، لكن في فترات لاحقة وخاصة في فترات الضعف؛ ظهر من هؤلاء الأقيال من أطلق على نفسه لقب (ملك) سعياً ـ على ما يبدو ـ للوصول إلى حكم الدولة الأم.

بعد ذلك أصبحت أقوى هذه القبائل (الشعوب) هي المحور الذي تدور حوله القبائل الأخرى، والمركز الذي تتركز فيه القوى الإدارية والسياسية. وهذه الاتحادات القبلية التي كانت تتوحد طوعاً أو كرهاً عن طريق الحرب أو الضم أو الغزو؛ كانت تتأثر بطبيعة العلاقة بين القبائل والعشائر التي يتكون منها الاتحاد، الذي يعتمد في بقائه وقوته على متانة العلاقة، والوحدة والمنفعة، أو المصلحة المشتركة لكل الوحدات القبلية التي يتكون منها الاتحاد[3].

منذ القرن الثامن قبل الميلاد تقريباً تحول هذا الاتحاد إلى دولة بعد أن توافرت جملة من المقومات، لعل أهمها ظهور الملكية الخاصة وتعدد أشكالها، وبناء المدن والمعابد والمنشآت العامة، وتطور الكتابة، فظهر على رأس هذه الدولة المكربون، وهو لقب ملكي يجمع السلطة الدينية والزمنية كما أسلفنا. كانت هذه أولى مراحل الحكم وأقدمها في اليمن القديم، وقد ساعد على ذلك اللاّمركزية، كونها سمة من سمات الحكم أملتها طبيعة الأرض، وكذا النزوع إلى الوحدة والاتحاد الذي كان السمة الثانية التي أملتها الطبيعة أيضاً[4].

تؤكد أقدم النقوش اليمنية أن أول من حكم اليمن القديم هم المكربون، الذين حكموا حكماً مزدوجاً، أي حكماً دينياً ودنيوياً، قبل أن يتحول الحكم إلى الملوك. وقد اختلفت التفسيرات لمعنى الكلمة، ففي حين يرى البعض أن المقصود (مقرب) أي التقرب إلى الآلهة أو الشخص المقرب من الآلهة، عندما كان الملوك يجمعون بين السلطة الدينية والزمنية، يرى آخرون أن لفظة (مكرب) أطلقت على الحكام الأوائل بعد أن ضموا إلى قبائلهم قبائل أخرى على شكل

---

(1) د. أسمهان الجرو: دراسات في التاريخ الحضاري. . .) ص240 وما بعدها.

(2) محمد عبد القادر بافقيه: في العربية السعيدة. . دراسات تاريخية قصيرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1 ـ 1993م ص77.

(3) فضل أبو غانم: القبيلة والدولة في اليمن القديم، ص70.

(4) محمد عبد القادر بافقيه: في العربية السعيدة. . .دراسات تاريخية قصيرة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ج1، 1987م، ص45.

اتحاد قبلي [1]. وهذا التفسير يتفق وما جاء في المعجم السبئي، فكلمة (مكرب) تعني رئيس حلف قبلي في الفترة الأقدم، أو رئيس مجموعة قبائل اتحادية [2]. ويرجح أن المكرب هو ملك خضعت له قبائل غير قبيلته الأصلية، لها ملوكها القبليون في إطار اتحادي [3].

ويلاحظ أن الانتقال من لقب (مكرب) إلى لقب (ملك) لم يكن قسرياً، وإنما تم بعد أن أحكم الملوك قبضتهم على القبائل أو الممالك الصغيرة، فتغيرت صيغة العلاقة الاتحادية القديمة، وزال معها لقب الملك في القبائل التابعة ليحل محله لقب جديد هو القيل، وانتفت الحاجة إلى لقب مكرب [4]. حيث ازدادت قبضة الملوك على الممالك الصغيرة قوة، فتغيرت صيغة العلاقة القديمة، وزال معها بالتدريج لقب الملك في الممالك الصغيرة التابعة، فظهر بالمقابل أو طغى لقب القيل فيها، فقام نظام القيالة، وهو نوع من الإقطاع القبلي المحلي، الذي يقف على رأسه ملك واحد، وانتفت الحاجة إلى لقب المكرب [5].

لقد عبرت النقوش عن التحالف بين القبائل والآلهة والملك بلفظة (حبلم) المشتق من الجذر (حبل) الذي يعني: ميثاق [6]، وكان إقامة العهد مع الآلهة من الطقوس الدينية المهمة، التي ظهرت في النقوش اليمنية منذ القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، وتنص صيغة التحالف على العبارات الآتية: "حين أقام المكرب (لتلك القبائل) وحدة حقيقية وميثاقاً وعهداً مع الآلهة والأسياد"، لقد ذكرت تلك الصيغة في عدد من النقوش (CIH 366, CIH 957, RES 3949)، ومن الملاحظ أن المكرب هو من يكتب الوثيقة، كما لا يذكر النقش أسماء آلهة القبائل المختلفة الداخلة في إطار ذلك الاتحاد، بل يرمز إليه بالآلهة، ولا تحدد اسم سادة القبائل بل لفظ الأسياد [7].

وعلى هذا الأساس كانت صيغة الحكم في الدولة السبئية تتجاوز رابطة

(1) أسمهان الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب الجزيرة العربية ـ اليمن القديم، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية: أربد ـ الأردن، 1996م، ص89.

(2) المعجم السبئي: مادة (كرب) ص78.

(3) بافقيه: في العربية السعيدة، ج1، ص45.

(4) علي الكهالي: المرجع السابق، ص18.

(5) بافقيه: في العربية السعيدة، ج 1/ 45.

(6) المعجم السبئي، 65.

(7) د. أسمهان الجرو: دراسات في التاريخ الحضاري، ص 240.

الدم إلى رابطة العبادة تحت راية "المقه"، وفي علاقات اجتماعية شبه إقطاعية، وقد أكد نقش النصر على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص بيد أننا نود أن نضيف؛ بأن الأقيال رغم تبعيتهم للملك لكن الملك ذاته بين قومه وفي دولته كان عبارة عن "قيل" لهذا كان الملك يأمر حاشيته ورجال دولته بطاعة الأقيال الذين يدينون له بالولاء.

وعلى هذه الأرضية نحدد أنه لم يكن ملوك العربية الجنوبية ملوكا مطلقين؛ لهم سلطان مطلق وحق النهي لإدارة الدولة على نحو ما يريدون، لكن كانوا ملوكا يستشيرون الأقيال والأذواء ورؤساء القبائل وكبار رجال الدين فيما يريدون عمله، واتخاذ قرار بشأنه، وهو نظام فيه رأي ومشورة وحكم الشعب[1]؛ بالقياس إلى حكم الملوك المطلقين الذين حكموا مصر وآشور وبابل وإيران. . . .

كما كان الملوك يستشيرون في إصدار القوانين الجهات المختصة أيضا التي سيمسها صدور القوانين، وحتى لا يقع اعتراض منها أو تذمر بسبب صدور هذه القوانين. وقد كانت هذه الهيئات نقابات بالواقع، تألفت من جماعة اتحدت مصلحتها وتآلفت على العمل الموحد، وصار لها رأي مقبول ومسموع، يأخذ به الملك والأقيال، فالحكم على هذا يستند على أخذ رأي الطوائف والجماعات، وهو حكم شعبي لا نجد له مثيلا عند غير أهل العربية الجنوبية في ذلك الوقت[2].

وقد أيد القرآن في سورة النمل وفي غيرها من الآيات حكم الشورى في اليمن، وقصة الملكة بلقيس ملكة سبأ، وهذا الدليل يؤكد عراقة حضارة اليمنيين وسعة أفقهم، وأنهم سبقوا أكثر الأمم إلى هذه الديمقراطية والنظم المبنية على الدراسة والتفكير[3].

---

(1) انظر: د. جواد علي: أصول الحكم عند العرب، مجلة المجمع العلمي، ج2، بغداد، 1980، ص 55 ـ 56.

(2) د. حمود العودي: المجتمع اليمني، ص73. ولمزيد من المعلومات، انظر: يوسف محمد عبدالله: شكل الدولة في اليمن القديم، مجلة اليمن، العدد 3، صنعاء، 1980، ص 44.

(3) د. جواد علي: أصول الحكم عند العرب الجنوبيين، ص12 ـ 13. ويمكننا أن نستنتج من هذا بأن بذور النظام البرلماني قد وجد في اليمن في تلك الحقبة من تاريخ هذا البلد ـ انظر هادي العلوي: النظام البرلماني في اليمن القديم، مجلة الثقافة الجديدة، العدد11، السنة الثالثة، نوفمبر 1974م، ص39. خاصة إذا عرفنا أن مجلس الدولة كان يحاول بقدر الإمكان أن يفسح المجال للمجالس القبلية والهيئات التشريعية لكي تشاركه السلطة. لكن تظل هذه المشاركة ضعيفة للغاية وعلى أساس استشاري فقط، لأن مختلف القرارات تتطلب أولا وأخيرا موافقة الملك.

غير أن هذه المجالس الاستشارية ومنها "المسود" أثناء قوة الدولة وجبروتها، كانت تمارس صلاحياتها بكل حرية، لكن هذا الأمر لم يستمر أثناء تضعضع الدولة وانحطاطها و. . . حيث غدا الأقيال والأذواء يحاولون الاستئثار على المزيد من الامتيازات التي تمتعت بها مجالس "المسود" ليس هذا فحسب بل نجد الكثير من وجهاء البلاد استطاعوا الجمع بين أيديهم أراضي واسعة وثروات طائلة تحت اعتبارات عدة أهمها أنهم الفئة التي اعتمد عليها الملوك في تثبيت أركان الحكم.

كل هذا يدعونا للقول بان ملوك اليمن القديم كانوا يمارسون نوعا من الشورى مع قومهم، بينما كان " المسود" عبارة عن مجلس لسادة ورؤساء العشائر التي تؤكد ارتباط قبائلهم بالملك.

لذا فإن ذلك المجتمع لم يعرف المساواة، فـ "الأقيال " و" الأذواء " كانت لهم ممتلكاتهم، وكانوا يشغلون المكانة الرئيسة في المجتمع، كما أنهم وجدوا المؤازرة أيضا من عشائرهم القوية. . . وفي الجماعة جرى التمييز أيضا بين " الأذواء" و"الأحرار" . . . وحتى في الأزمنة البعيدة التي غلب فيها الكبار " كبيرات " وأعني سلطة زعماء القبائل المتمثلة في المجالات الاقتصادية فإن جميع وسائل الإنتاج بما فيها الري الصناعي كانت في واقع الأمر في يد هذه الطبقة[1].

لذا لاقت سياسة التوسع التي انتهجتها (دولة سبأ) مقاومة عنيفة من مشائخ

---

(1) الهمداني: الإكليل، ج2، ص115.

وهناك خلاف حول أمر ملكة سبأ واسمها بلقيس وينحصر الخلاف في ثلاث مسائل: -

المسألة الأولى: هي عدم اكتشاف دلائل أثرية وكتابية تشير أن تلك الملكة عاشت في بلاد اليمن أو أي بلاد أخرى.

المسألة الثانية: هي عدم ورود اسمها في أي من الكتب السماوية (القرآن أو التوراة) وهما المصدران الأساسيان لقصة تلك الملكة.

المسألة الثالثة: هي عدم ذكر مملكة سبأ وأرضها بدقة وتحديد. د. يوسف محمد عبدالله: أوراق من تاريخ اليمن وآثاره، ص51 ـ 52.

فضلا عن ذلك، هناك مصادر عربية كالهمداني، ونشوان الحميري وابن الكلبي وغيرهم؛ ومن المصادر الإسلامية تنسب بلقيس إلى الهدهاد بن شرحبيل، وبلقيس كملكة لليمن لم يرد ذكرها بعد في النقوش، التي تم العثور عليها في اليمن، وما يحدد زمانها ومكانها، فهي بنت الملك هدد بن رحوب الذي ذكرته التوراة بأنه تحارب مع سليمان، ولماذا لا يكون زوجها منه تعبيراً عن صلح بعد الحرب. علي بن علي صبره: معالم التكامل القومي والحضاري قبل الإسلام ودور اليمن، ط1، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1984، ص 68.

ورؤساء الإقطاعيات التي اصطدمت سياسة التوسع بمصالحهم فقامت ثورات لم تخمد إلا بعد تضحيات جسيمة وأضرار لحقت بالجانبين.

لكن السبئيين في الواقع وحدوا البلاد وضموا بعض أجزائها إلى بعض، ومنعوا بذلك مطامع الأجانب " الأحباش والرومان وغيرهم " مدة طويلة من الزمن. بينما دعمت وحدة اليمن السياسية بصورة أشمل وأوسع في عهد دولة حمير العظيمة، التي يعتبر المؤرخون بدايتها من عهد (سبأ وذي ريدان)...، ومن أعظم ملوك حمير " شمريهرعش " الذي حكم منذ نحو عام 290 م[1].

لكن الاستقرار السياسي لهذه الدولة لم يستمر طويلا حيث وقعت اضطرابات في عهد الدولة الحميرية الأولى دامت حوالي قرن ونصف لم تنعم خلالها اليمن بالراحة والاستقرار. فنجد في الكتابات التي وصلت إلينا عن هذا العهد ذكر فتن وحروب وأوبئة وغزوات ونجد ملوكاً وإقطاعيين يحاربون بعضهم بعضا.

ويعزو الباحثون سبب ذلك إلى إدخال الخيل في الحروب، وإحلاله محل الجمل، مما ساعد على حركة القتال، وفي نقل الحروب بصورة أسرع إلى الجبهات، لأن الجمل كان يصل إليها بصعوبة وبطء[2].

ثانياً

النظام الضرائبي

تفنن الحكام اليمنيون والطبقة السائدة زمن السبئيين والمعينيين بوضع الضرائب الكثيرة التي أثقلت معدومي الشعب كافة، وكانت تلك الضرائب تذهب إما إلى خزانة الدولة العامة أو إلى خزانة الملك، أو المعابد والمشائخ، والحكام والملوك، وعلى الرغم من المظهر الديمقراطي لتشريع الضرائب، تخبرنا النصوص المكتشفة في اليمن في أراضي ممالك سبأ وحضرموت وقتبان على أن الأرستقراطيين من أعيان المملكة والكهان ورؤساء العشائر كانوا يتشاورون في تحديد كمية وكيفية جباية الضرائب... وطبيعي أن تكون الطبقات المسحوقة... بمعزل عنهم... لذا أخذت تنفقها على ملاذها

(1) م ب. بيوتروفسكي: مرجع سابق، ص166.

(2) محمد يحيى الحداد: الوحدة السياسية في اليمن الطبيعية عبر التاريخ، مجلة الحكمة، عدن، العدد 14، يوليو 1972، ص49.

ولهوها وشؤونها الخاصة مهملة شأن السدود والقنوات العامة في البلاد[1].

وغني عن البيان أن الضرائب غدت في مرحلة ضعف الحكومة مورداً أساسياً يرفد خزينة الدولة بشكل عام وخزينة الملك بشكل خاص بالأموال الطائلة. . وقد تمثلت تلك السياسة بما يلي:

1 ـ عملت الحكومة على زيادة حصتها من المنتوج، في مختلف الأراضي التي تم تأجيرها على العشائر أو القبائل أو الفلاحين، هذا يعني ازدياد العشور من محصول الأرض لمصلحة الدولة على حساب الفئات التي تقتات لقمة عيشها من منتوج الأرض المؤجرة لهم.

2 ـ قامت "الحكومة اليمنية" بزيادة نسبة الضرائب على مختلف البضائع التي ترد إلى أراضيها أو تلك البضائع التي تحتاج لإعادة توزيعها خارج البلاد من قبل التجار اليمنيين.

3 ـ فرضت الحكومة على الفلاحين الأحرار تسليم ضريبة معينة إليها إما عيناً أو نقداً، ولتنظيم هذه العملية كان الفلاحون لا يستطيعون جني محصولهم دون إشراف من الحكومة وذلك لتقدير نسبة الضريبة التي يجب عليهم دفعها.

لهذا نؤكد أن فقراء اليمنيين عانوا من مختلف أصناف الاضطهاد الطبقي على العكس من الفئات العليا في المجتمع التي تستأثر بكل شيء لمصلحتها بل " كان أناسها متخمين يملكون الآلاف من العبيد. . . ولدينا أمثلة كثيرة من هذا القبيل، تظهر أن أصحاب الأراضي في العربية الجنوبية كانوا يملكون آلافا من العبيد يقومون بمختلف الأعمال بما في ذلك حماية سيدهم والدفاع عنه[2].

ثالثاً

العلاقات العبودية

فيما يتعلق بالعلاقات العبودية فقد سجل نقش النصر الذي خلفه لنا "كرب إل وتر" بعد انتصاره على مملكة أوسان، أن الحلف الذي قادته مملكة سبأ حقق نصراً حاسماً على أوسان، بعد قتل ستة عشر ألفاً، وأسر أربعين ألفا تم تحويلهم إلى عبيد لمصلحة الدول المنتصرة وخاصة مملكة سبأ، وهذا ما رفع

(1) د. مصطفى أبو سيف: دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983، ص35.

(2) د. حسين قاسم العزيز: التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام، ص78.

من مكانة الملك السبئي بعد تراكم الثروات الهائلة بين يديه، وعلى هذا الأساس يمكن القول" . . . لقد كان المجتمع في اليمن في الفترة من القرن العاشر حتى الثامن قبل الميلاد يمر بالمراحل البدائية لتطور المجتمع اليمني العبودي، فقد كانت العبودية في تلك الآونة تتخذ شكلا بطريركيا وكانت أعداد العبيد قليلة كما أنهم من حيث الوضع الاجتماعي كانوا يعاملون كفئة أدنى داخل الأسرة وكان المصدر الأساسي للاستيلاء على العبيد من الحروب. وتوضح النقوش أن عددية من يقعون في الأسر وكذلك النساء والأطفال الذين يغنمون تفوق بكثير عدد من يقتلون خلال المعارك أو بعدها، كذلك كان اغتنام العبيد يتم عن طريق الشراء أو استرقاق الأطفال الذين يولدون من أبوين في حالة العبودية[1]" .

وإذا حاولنا العودة لدراسة البنية الاجتماعية الاقتصادية في هذا المجتمع القديم لا نستطيع أن نحدد نمطاً محدداً من علاقات الإنتاج أو تشكيلة اجتماعية اقتصادية بعينها خضع لها تطور المجتمع. وعليه نقول إن المجتمع اليمني القديم جزء من هذه البنية الاجتماعية التي ليس لها معالم واضحة، بحيث أن عدداً من الأنماط الاجتماعية الاقتصادية تتعايش فيما بينها في وقت واحد دون أن تحمل ملامح واضحة ـ بالمفهوم العلمي ـ لأي من التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التي مرت بها الإنسانية إبان تطورها إلى المرحلة المعاصرة. مما يضطرنا إلى عدم الموافقة على مختلف الآراء الواردة بخصوص أن المجتمع اليمني قد مر بالتشكيلة العبودية، بعد أن خلّف وراءه العلاقات المشاعية. وأبلغ مثال على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص ما تحدث به الدكتور حسين قاسم عبدالعزيز قائلا:

" . . . والمعروف أن المجتمع اليمني القديم كان يسود فيه أسلوب الإنتاج العبودي وفي التشكيلة العبودية تكون وسائل وقوى الإنتاج بما فيها البشر ـ العبيد ـ المشتغلون في الإنتاج ملكا لسيادة المتنفذين والمستغلين ـ الأرستقراطيين ـ ملاك العبيد. ولهذا فإن علاقات الإنتاج العبودية مبنية على أساس استغلال العبيد من قبل مالكيهم، ولها يكون احتكار السيادة والنفوذ من قبل السادة ملاك العبيد فقط[2]" .

(1) د. جواد علي: أحوال الحكم عند العرب الجنوبيين، الحكمة، العدد 79، عدن، أبريل ـ يونيو 1979، ص22 ـ 23.

(2) حسين قاسم العزيز: مرجع سابق، 78.

وقد استندنا في رأينا هذا؛ على أسباب عدة أهمها:

1 ـ أن العلاقات العبودية التي وجدت في اليمن، عرفت في نطاق كونها مؤسسة اجتماعية وليست لكونها جزءاً من التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية، التي تجبر شريحة واسعة من الأحرار لكي يتحولوا إلى عبيد بعد أن فقدوا حريتهم سواء عن طريق المعاملات الربوية أو الديون... الخ.

2 ـ من شروط المجتمع العبودي أن تكون السيادة على قوى وعلاقات الإنتاج لطبقتين أساسيتين هما: طبقة السادة "ملاك العبيد" التي تستأثر بخيرات المجتمع ويكون اختصاصهم العمل الذهني، وطبقة "العبيد" التي تعتبر القوة الإنتاجية الفاعلة في المجتمع، بينما تكون الفئات الاجتماعية الأخرى على هامش هاتين الطبقتين. ومختلف النقوش اليمنية التي بين أيدينا تؤكد عكس ذلك تماما، لأن العبيد لم يلعبوا دوراً أساسياً في العملية الإنتاجية، وإن وجدت فتكون حالة نادرة فقط.

3 ـ أن تواجد العبيد انحصر في مدن معينة فقط، ولدى أقيال وأذواء محدودين عرفوا بثرائهم؛ وحبهم لاقتناء العبيد من أجل خدمتهم وحمايتهم.

4 ـ أن شروط حياة العبيد كانت أفضل بكثير من حياة الأحرار الذين كانوا يعيشون في فقر مدقع، وحياة بائسة من العدم والتعاسة[1].

رابعاً

سقوط الدولة اليمنية القديمة

يذهب فريق من الباحثين إلى أن انحطاط الدولة العربية وانقراضها في التاريخ القديم إنما يرجع إلى عوامل اقتصادية، وهم يرون أن هذا الانحطاط قد بدأت بوادره منذ ابتداء التاريخ المسيحي، واستمرت تقوى حتى قوضت هذه الحضارات.

وأهم الأسباب التي يوردها هذا الفريق لتعزيز آرائه؛ زوال المدن العظيمة في سهول جزيرة الفرات بعد سقوط بابل وآشور، وما لهذا الزوال من أثر في الممالك العربية التي كانت منذ القدم تسيطر على الطرق التجارية، وتلا ذلك زوال الأسواق الفينيقية، وأهم من ذلك تدشين الرومان الطريق التجاري البحري

---

(1) ج. م. باوير وأ. لوندن: تاريخ اليمن القديم ـ جنوب الجزيرة العربية في أقدم العصور، ترجمة أسامة أحمد، دار الهمداني، عدن، 1984، سلسلة آفاق المعرفة 12، ص 16 ـ 17.

عبر البحر الأحمر نحو القرن الأول الميلادي، وكان من أثر هذا تضاؤل تجارة القوافل البرية في الجنوب، فكانت هذه التجارة عماد الممالك العربية الجنوبية، وزادت المشكلات السياسية هذه العوامل قوة، ففي الشمال قضى الرومان على (البتراء) سنة 106م بقيادة الإمبراطور ترجان، ثم قضوا على (تدمر) سنة 272م بقيادة الإمبراطور أورليان.

وقد كان الأنباط مستودعاً لتجارة القوافل الشمالية. ولم تنتعش الممالك العربية بعد هذا الاضطراب السياسي والاقتصادي فانتشرت الهجرة، وترك الناس المدن التي كانت عظيمة فزالت[1].

وفي جنوب الجزيرة العربية؛ بدأت الدولة اليمنية القديمة تعاني الانهيار الداخلي بفعل الفتن الداخلية حول السلطة وذلك قرب نهاية العصر الحميري الأول، كما بدأت قوات عرب الجنوب تنزل من عليائها وكان ذلك نتيجة لتفرقهم بين الطريق البري والبحري في نقل التجارة وغيرها، خاصة بعد تنظيم التجارة البحرية خلال القرن الأول الميلادي[2].

ورغم أن الدولة الحميرية الثانية حاولت استعادة الهيبة التي كانت تتمتع بها اليمن خلال الفترة الماضية، ونجحت فعلا في تأسيس دولة قوية وموحدة، غير أن استمرار المشاكل الداخلية وازدياد المؤامرات الخارجية حال دون ذلك.

وفي هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر بها الدولة اليمنية القديمة اجتهد الروم في نشر المسيحية في بلاد حمير، فأرسل الإمبراطور الروماني قسطنطين هدايا لملوك حمير، فوفق في تعمير ثلاث كنائس لتجار الروم في اليمن.

على أن الغرض الحقيقي من هذه الكنائس كان ترسيخ قدم الاستعمار الروماني في تلك البلاد[3].

أغرى هذا الدولة الرومانية التي سعت لتوسيع علاقاتها مع الدولة الحميرية، وذلك بعد "أن احتل الرومان سوريا ومصر ورأت الإمبراطورية الرومانية أنها لابد من أن تدعّم الحدود الشرقية لهذه الإمبراطورية، وإلى جانب ذلك هناك سبب آخر جعل الرومان يرنون بعيونهم إلى العربية الجنوبية، ذلك

(1) د. حسين قاسم العزيز: حول النظام البرلماني في اليمن القديم، الثقافة الجديدة، العدد 12، عدن، ديسمبر 1974، ص53 ـ 54.

(2) انظر: ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص12 ـ 13.

(3) انظر: عبدالله أحمد الثور: هذه هي اليمن، ص147 ـ 149.

أنهم أرادوا السيطرة على تجارة البخور والطيوب التي كانت الإمبراطورية تستهلك منها كميات كبيرة"[1].

لكن الإمبراطورية الرومانية حاولت أن تستغل مختلف الظروف العصيبة التي كانت تمر بها الدولة الحميرية، لتبدأ التفكير بغزو اليمن المشهورة بغناها وخصوبتها وموقعها الاستراتيجي القريب من الحدود الفارسية، في محاولة منهم لمد سيطرتهم من البحر المتوسط ـ الذي أطلقت عليه بعض المراجع تسمية بحر الروم ـ إلى البحر الأحمر الذي تشغل اليمن بوابته الجنوبية[2].

غير أن الأحوال الطبيعية في شبه جزيرة العرب وقفت حائلا دون تخطي جيوش الفاتحين لحدودها؛ فلا فتوح الاسكندر المقدوني (333 ـ 323 ق. م) ولا حملات الرومان على بلاد شرق البحر المتوسط (50 ـ 20 ق. م) وجدت منفذاً إلى بلاد العرب في شبه جزيرتهم[3].

ليس هذا فحسب بل كان "الجيش العربي الجنوبي هو أحسن حالا، وأكبر عدداً وأحسن تنظيماً من جيوش الأعراب. لكنه لم يكن بمستوى الجيوش النظامية مثل جيش الروم والفرس[4]. وقد استطاع هذا الجيش إرساء قاعدة الحكم على أسس متينة، خاصة وأن "التاريخ السياسي لجنوب الجزيرة العربية في غضون القرون الأولى من ذلك العصر ـ العصر الميلادي ـ يتصف بنهوض الاتحاد القبلي للحميريين، وبنضال أعيانه في سبيل السلطة ضد السلالة السبئية في مأرب، وفي مجرى الحروب الداخلية الطويلة الأمد، حيث اشتركت قوى سياسية عديدة في اليمن وانتصر فيها الحميريون[5].

---

(1) ولفنسون: مرجع سابق، ص260.
ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: د. عبدالله أحمد الشيبه: أفول الحضارة اليمنية، مجلة بحوث جامعة تعز، العدد 2، تعز، 1997م، ص 3 ـ 14.

(2) لطفي عبدالوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، ص409.

(3) جايمس هنري براستد: العصور القديمة، نقله إلى العربية داؤود قربان، مؤسسة عزالدين، بيروت، 1983، ص576.

(4) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1968، ص 51.

(5) د. جواد علي: أصول الحكم عند العرب الجنوبيين، ص18 ـ 19.
ولمزيد من التوضيح حول العلاقة السبئية الحميرية وما بعدها من أحداث؛ نقول باختصار:
(1) بروز الحميريين منذ القرن الأول الميلادي مع قيام دولة بني ذي ريدان.
(2) سيطرة السبئيين على الحميرين طيلة القرن الأول الميلادي. =

وفي اعتقادنا كان سقوط الدولة الحميرية يعود لما يلي: ـ

1 ـ شهدت المنطقة اليمنية تراجعاً في الأعمال التجارية بسبب قلة القوافل القادمة إليها كنتيجة لتحول الطريق التجاري عبر المحيط الأطلسي، مما أضر باقتصاد الدولة اليمنية القديمة التي تقع موانئها على البحر الأحمر والمحيط الهندي. لهذا تقهقرت الأعمال الحرفية وأصبحت أعداد كبيرة من هذه الفئة تعيش حال بطالة، ويهدد حياة الناس البؤس والمجاعة.

2 ـ انعدام العائدات المالية الكبيرة للدولة، بسبب كساد التجارة، وتحطم المنشآت الإروائية الضخمة، وتحول الأرض الزراعية إلى أرض بور، مما أدى إلى تدهور أوضاع الجيش "الخميس" التابع للملك، واستغلال الأقيال هذه الوضعية وبدأوا بتشجيع "الأحرار" و"الفلاحين" والفئات المعدمة للانخراط في جيوشهم الخاصة. مما ساعد كل "قيل" في أي منطقة على أن يمتلك (خميس) خاصا به، يساعد في تثبيت أركان حكمه في منطقته، ليس هذا فحسب، بل ولكي يوسع دائرة نفوذه على حساب الأقيال الآخرين. والنتيجة أن هذه الجيوش التابعة للأقيال استخدمت في حرب بعضهم بعضا[1].

3 ـ ترسيخ العلاقات شبه الإقطاعية في ملكية الأرض، مما أدى إلى زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، حيث استحوذت الأرستقراطية الحميرية (الأقيال والأذواء) على الأراضي الخصبة بمختلف الأساليب ومنها نظام الضرائب الجائر، الذي استخدم لاضطهاد الفلاحين، الذين فضلوا لظروف قهرية بيع أراضيهم لهؤلاء الأغنياء، الممثلين لقمة السلطة السياسية في اليمن القديم.

4 ـ أدت الظروف المتردية المحيطة بالدولة الحميرية في أواخر عهدها، إلى استمرار الهجرة بأعداد متزايدة إلى الخارج، مما تسبب في إحداث انهيار

= (3) ثأر الحميريون مرة أخرى واستقلوا بالحكم سنة 115م ليصبحوا بعد ذلك قوة كبرى خلال القرن الثالث في عهد الملك الحميري شمريهرعش.

(4) بروز الأحباش في الميدان السياسي وصراعهم مع اليمنيين خلال القرن الثالث الميلادي.

(5) تمكن الحميريون من ضم حضرموت إلى مملكتهم في مطلع القرن الرابع الميلادي.

(6) دخول الدولة الحميرية مرحلة التبابعة خلال القرن الخامس الميلادي. " ولمزيد من المعلومات حول هذه المرحلة انظر: د. جواد علي: أحاديث تبع، ص 7 ـ 33.

(7) في القرن السادس الميلادي انهارت الدولة اليمنية القديمة بزعامة حمير.

(8) دخلت اليمن في عهد الدولة العربية الإسلامية خلال القرن السابع الميلادي.

(1) م. ب. بيوتروفسكي: مرجع سابق، ص 70.

اجتماعي كبير داخل المجتمع، زرعت في نفوس الفئات المختلفة روح اللامبالاة تجاه التجاوب مع الدولة.

5 ـ اشتداد الصراع حول السلطة بين الأرستقراطية اليمنية، وأبلغ مثال على هذا؛ الصراع بين السبئيين وبني ذي ريدان، ثم الصراع بين الهمدانيين وبني ذي ريدان، وبعد ضعف ملوك حمير بدأ الأقيال صراعهم الضاري للاستيلاء على السلطة من أيدي هؤلاء الملوك (وأبلغ مثال ما حدث من صراع أيام الملك يوسف أسأر يثأر (ذي نواس) مع بقية الأقيال مثل دوس ذي ثعلبان والسميفع أشوع)[1].

وقد أدى هذا إلى بروز الأحباش كطرف في هذا الصراع لمصلحة هؤلاء الأقيال في البداية، لكنهم فيما بعد أخذوا يستأثرون بالسلطة لصالحهم. وساهم كل ذلك في وقوع البلاد تحت قبضة الاحتلال الحبشي، كنتيجة لتواطؤ الأحباش مع الأقيال والأذواء المعارضين لسلطة ذي نواس، وقدموا لهذا خدمات مهمة للأحباش ساعدتهم في كشف مواطن الضعف في الثغور[2].

ليس هذا فحسب بل كانت الخيانة الداخلية، وامتناع عدد كبير من هذه الفئة ـ الأقيال والأذواء ـ عن الاشتراك في المقاومة الشعبية للغزو الحبشي؛ قد ساهم مع جملة من العوامل الأخرى في انتصار الأعداء، ودخول اليمن في إطار الدولة الحبشية ما بين (525 ـ 575م).

---

(1) الجدير بالذكر أن هوية السميفع أشوع لا زالت غامضة إلى وقتنا الحاضر، بسبب شح الوثائق النقشية، وتضارب بل وتحيز في المصادر المسيحية، وخلط إن لم يكن تخليط في المصادر العربية التي كتبت بعد حين في الإسلام، وذلك لوجود شخصيتين تحملان الاسم نفسه، ولا يستبعد أن يكون السميفع أشوع (1) من سن السميفع أشوع (2) أ بن أخيه، أو أن الفرق بينهما في السن لا يذكر (R 4069) ولكن عدم ذكره في (جام 1028) يجعل أن من المحتمل أنه كان قد اختفى في ذلك التاريخ. وهكذا يبقى لدينا السميفع أشوع (2) مرشحا وحيدا. وهو الذي أدار بعد سنوات ثمان دفة سفينته إلى الاتجاه المعاكس عندما تحول إلى النصرانية، وقبل بعرش في حماية ملوك الحبشة؟! عرش لم يلبث أن انتزعه منه أبرهة القائد العسكري في الجيش الحبشي بدعم من أقيال يمنيين. انظر: د. محمد عبدالقادر بافقيه: في العربية السعيدة ـ دراسات تاريخية قصيرة (2)، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993 م، ص170 ـ 2.

(2) كان الملك يمتلك جيشا يسمى " الخميس"، ولم يكن في البداية يسمح للأقيال بامتلاك جيش رسمي في مناطقهم إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ الدولة الحميرية، عندما بدأ الوهن يصيب المملكة. لهذا أصبح الجيش بدلا من أن يحمي الوطن ومصالحه، يحمي مصالح فئة من الأقيال أو الأذواء التي تتعارض مصالحها مع الملك والدولة، كما كان الملك يعقد الاتفاقيات الخاصة بتزويده بالمقاتلين مع بعض الأذواء والأقيال لمحاربة أي تمردات داخلية أو غزو خارجي.

الفصل الرابع

البدايات الأولى للمقاومة اليمنية للغزو الحبشي الأول

أولاً: العلاقات اليمنية الحبشية عبر التاريخ

ثانياً: الأطماع الأجنبية في المنطقة اليمنية

أ ـ الغزو الروماني للمنطقة اليمنية عام ٢٤ ق.م

ب ـ الاحتلال الحبشي الأول لليمن

البدايات الأولى للمقاومة اليمنية للغزو الحبشي الأول

كانت اليمن في عصورها القديمة تمثل إحدى حلقات الصراع العالمي، نتيجة لموقعها الجيوبوليتيكي المهم بين قارات العالم آنذاك. ولعل هذا ما يدفعنا للقول بأن حقيقة الصراع بين اليهودية والمسيحية فيها، لم يكن سوى تجسيد للتنافس البيزنطي ـ الفارسي، من أجل السيطرة على أهم مفاصل المواصلات التجارية العالمية في جنوب البحر الأحمر، ونهب خيراتها التي طالما عرفت بها مثل: المر واللبان والصبر وغيرها.

أولاً

العلاقات اليمنية الحبشية عبر التاريخ

وتطلق تسمية الحبشة على هضبة مرتفعة مستديرة الشكل تحيط بها أرض منخفضة من جميع الجهات، فهي تطل من الشمال والغرب على سهول السودان، ومن الجنوب على هضبة كينيا القليلة الارتفاع، أما من الشرق فيفصلها عن البحر الأحمر والمحيط الهندي صحراء الدناكل والأوجادين[1].

وقد جاءت البدايات الأولى للعلاقة اليمنية الحبشية بعد تهدم سد مأرب؛ وذلك باتخاذ أسلوب الهجرة إلى شتى الأقطار بحثا عن المأوى ولقمة العيش، على أن الروايات تؤكد بأن تغلغل السبئيين في اتجاه القارة الأفريقية قد بدأ منذ القرن السادس قبل الميلاد، في بادئ الأمر، ثم تزايد بشكلٍ ملحوظ في القرن الخامس قبل الميلاد، مما عزز من أواصر العلاقات الثقافية والتجارية بينهما[2].

---

(1) محمد بن علي الأكوع: اليمن الخضراء مهد الحضارات، مطبعة السعادة، ط1، 1917، ص396.

(2) جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، القاهرة، 1975، ص 52 ـ 53.

انظر كذلك: عبدالمجيد عابدين: الحبشة والعرب، دار الفكر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 25.

وقد أطلق السبئيون في نقوشهم على الأرض الواقعة في البر الإفريقي المقابل: "حبشت" وتعني وصفهم لمملكة أكسوم والأراضي التابعة لها في شرق إفريقيا (Jam631)[1]، وفي إشارة أخرى يرد ذكر سكان شرق أفريقيا بأنهم سكنوا أرض تهامة والبقاع الممتدة من اليمن الأسفل جنوباً، حتى أنحاء وادي بنا، وإلى أنحاء نجران شمالاً (النقش Jam585)، بينما تشير النقوش كذلك وصف السكان الأفارقة القادمين إلى اليمن بأنهم: "أ ح ز ب/ ح ب ش ت " (Jam585)، أي الجماعات المسلحة، وهم الذين تغلغلوا في اليمن أثناء تواجد النفوذ الحبشي (الأكسومي) في أرض تهامة منذ القرن الثالث الميلادي.

إن هذه الهجرات المتبادلة بين اليمنيين إلى شرق أفريقيا، والأفارقة إلى المناطق التهامية، قد أوجب ـ على الأرجح ـ تنظيم وتنسيق تلك العلاقات، وهو ما نجده في إشارات واضحة وصريحة حول تبادل السفارات بين ملوك اليمن وملوك الحبشة، فقد ورد في النقش (Jam631) " ب ك ل/ب ل ت ه ـ م و/ ع م ن/ن ج ش ي ن " ويفهم من فحوى النقش أن السفارات كانت متبادلة بين السبئيين والنجاشي ملك الحبشة وما جاورها من البلاد، ويرجح تاريخ ذلك إلى أواخر القرن الثاني الميلادي تقريباً، وهي الفترة التي بزغ نجم أكسوم في شرق أفريقيا، بصفتهم قوة سياسية وتجارية في البحر الأحمر، وربما كان ذلك نتيجة سيطرتهم على الساحلين معاً، خاصة بعد انتشارهم في تهامة اليمن[2].

ومهما يكن الأمر، فقد تمكن اليمنيون بفضل خبراتهم الحضارية من فرض تواجدهم على القبائل الرعوية في المناطق التي نزلوا فيها، وتجمع المصادر التاريخية على أن قبائل سامية من جنوب شبه الجزيرة العربية نزحت بموجات متعاقبة عبر البحر الأحمر، وغزت المرتفعات التي يقطنها الحاميّون وانبثوا بينهم وامتزجوا بهم، وبمرور الأيام وبحكم تفوقهم الحضاري فرضوا السيادة عليهم[3]، وأبلغ دليل على هذا أن بعض القبائل اليمنية لا زالت تحتفظ بمسميات مثل " بني حبيش " و" الحبشة" وغير ذلك.

---

(1) (النقش (جام 631) وكذا النقش 49 بيستون 1985/ 217) نقلا عن: د. ناجي جعفر بن مرعي الكثيري: الهجرات اليمنية الأولى إلى شرق إفريقيا ـ دراسة في تاريخ الهجرة اليمنية إلى شرق إفريقيا إلى ظهور الإسلام، مجلة سبأ، العدد10 ـ 11، يوليو2002م، ص 16 وما بعدها.

(2) د. ناجي جعفر بن مرعي الكثيري: الهجرات اليمنية الأولى إلى شرق إفريقيا، ص 16 وما بعدها.

(3) ممتاز العارف: اليمن بين مأرب وأكسوم ـ لمحة تاريخية في العلاقات العربية الحبشية، ونشوء إثيوبيا الحديثة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1975، ص9.

وقد تمكنت تلك الموجات من القبائل اليمنية الكبيرة النازحة؛ مع الموجودين من قبل وكذا الأحباش، من إقامة مملكة أكسوم كدولة حبشية مستقلة، ومنقطعة الصلة باليمن التي قامت فيها عدد من الكيانات والدويلات[1].

وما أن جاء القرن الأول الميلادي، حتى كانت مملكة أكسوم قد برزت إلى الوجود وشجعها ـ فيما يبدو ـ انشغال اليمنيين بالصراع الداخلي بين سبأ وحضرموت من ناحية وحمير من الناحية الأخرى ـ على التطلع إلى الشاطئ العربي المقابل واحتلال أجزاء واسعة من عسير وساحل الحجاز. . .، وتم ذلك في نظر (فون وايزمان H.Von Wissmann) عند نهاية القرن الأول الميلادي. وسرعان ما أصبح الأحباش طرفا في الصراع اليمني نفسه، فتحالفوا مع السبئيين والحضارمة ضد الحميريين، وحاولوا احتلال ظفار لحسابهم (جام 576 و577). ولعل النقوش الحبشية التي زيَّن فيها الملوك ألقابهم بأسماء مناطق يمنية تعود على نحو هذا الوقت[2].

كانت الحبشة تهدف من وراء احتلال اليمن الاستيلاء على مواردها الضخمة من التجارة والملاحة البحرية. . . في البحر الأحمر التي تقع الحبشة على جانبه الغربي، من دون أن تعود عليها إلا فوائد تافهة ضاعف من حقدها على اليمن، فصارت تتحين الفرصة، وتستعد لتحل محل اليمن في البحر الأحمر، ولتغزو اليمن كلما سنحت لها الفرصة[3].

وفي ضوء هذا كانت خريطة المنطقة الجنوبية في حوض البحر الأحمر خلال القرن الثاني الميلادي تبين توسعاً أكسوميا على الأرض الأفريقية، وصل بها إلى حدود مصر شمالا والصومال جنوباً. كما استطاعت ـ أكسوم ـ أن تحقق اتساعاً على الأرض العربية، باحتلالها الأرض الواقعة خلف أراضي السبئيين. وقد وقعت إلى الجنوب من هذه الأرض مجموعة من الممالك المتصارعة مثل سبأ وحضرموت وقتبان وحمير، وقد أتاح الوجود الأكسومي على الأرض العربية لتلك المملكة فرصة سانحة للتدخل في شؤون الممالك العربية الجنوبية.

---

(1) محمد حسين الفرح: علاقة اليمن بالحبشة، اليمن الجديد، العدد4، صنعاء، ابريل1987، ص90.

(2) محمد عبدالقادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، ص67.

(3) انظر: عبدالله الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، دار الكلمة، الطبعة الثالثة، صنعاء، 1985 ص84.

كانت البداية عندما تمرد (علهان نهفان) على سادته ملوك سبأ، وأعلن نفسه ملكاً على سبأ، ثم أخذ يقوي مركزه لكي يقاوم محاولات إقصائه عن الحكم الذي اغتصبه، مما دفعه إلى التحالف مع الملك (يدع أب غيلان) ملك حضرموت، كما نجح أيضا في أن يضم إلى هذا التحالف الملك (جدرة) ملك أكسوم، وقد نص الحلف على " أن يشنا الحرب ويقيما السلام ضد كل واحد (من) الذين يعلنون أنفسهم أعداء لهما وأنهما سوف يصبحان أخوين بصدق وأمانة" .

وكان هذا الحلف يخدم الطرفين، فقد استطاع الملك السبئي من أن يحتفظ بملكه، كما هيأ فترة من السلام لأكسوم الواقعة إلى الشمال من أرض السبئيين.

لكن الظروف تغيرت بعد وفاة الملك السبئي (علهان نهفان) وانفرد ابنه (شعر أوتر) بعرش دولة سبأ، فتحولت الصداقة بين البلدين إلى عداوة مستحكمة، تحركت لها جيوش وسقط في معاركها قتلى بالمئات. . . واستمر الصراع بين الأكسوميين وحلفائهم من ناحية والسبئيين من ناحية أخرى خلال القرن الثالث الميلادي. وقد بلغ هذا الصراع قمته في عهد (إل شرح يحضب وأخيه يازل بين) خاصة وأنهم بعد هزيمة أكسوم اتجه الملكان السبئيان إلى توسيع نفوذهما على حساب جيرانهما، واصطدما ببعض قيادات الممالك العربية والأخرى.

وكان من بين هذه القيادات الملك الحميري (كرب إل الريداني) الذي سعى إلى أكسوم منذ القرن الثاني الميلادي، طالباً التحالف والسلاح، وقد استمر التحالف بين أكسوم وحمير ضد سبأ في عهد الملك شمر الريداني ـ شمر يهحمد ـ الذي ذكرت النقوش أنه نجح في عقد تحالف مع الملك (أدباه) الأكسومي، اشتركت بمقتضاه القوات الأكسومية مع الحميرية ضد السبئيين. . . وقد استطاع شمر وحلفاؤه الأكسوميين أن يكبدوا (إل شرح يحضب) ملك سبأ خسائر كبيرة في البداية، واستولوا في عهد شمر يهرعش على مأرب[1].

(1) انظر: د. فوزي مكاوي، أضواء جديدة على العلاقات بين مملكة أكسوم وممالك الجزيرة العربية خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد12، أكتوبر1977، ص65 ـ 75. ولمزيد من المعلومات انظر: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص 538.

والمعلوم أيضا أن علاقات تجارية متينة الصلة خاصة تجارة الذهب والطيوب والتوابل والعاج كانت قائمة منذ عهد بعيد بين الملك ـ أكسوم ـ والسبئيين والحميريين في جنوب الجزيرة العربية والحجاز. . . إلا أنه لايمكن على وجه التحديد تثبيت الزمن الذي بدأت خلاله الصلة بين سكان ساحلي البحر الأحمر ـ العربي والحبشي ولكن الأمر الثابت هو أن كل القرى=

واستمر الصراع السبئي الحميري طيلة القرن الثالث الميلادي، وكان النصر دائماً حليفاً لسبأ، إلا أنه وبعد موت الملك (نشأ كرب 207 ـ 212 م)، تمكّن الحميريون حوالي سنة 300م ميلادية الاستيلاء نهائيا على مأرب.

إلا أن سكان الحبشة وجدوا في استعانة قبيلة همدان لهم من خصومة من القبائل اليمنية الأخرى فرصتهم المنشودة لمد نفوذهم في اليمن، مقابل تحالفهم مع همدان ضمنوا لهم أملاكا في منطقة تهامة اليمنية[1].

ومجمل القول أن نشاط أكسوم في الحياة السياسية لليمن كانت قوية للغاية منذ منتصف القرن الثاني الميلادي، حيث اتخذ في البداية شكل حلف ضعيف مع سبأ، ثم اتحاد قوي مع الدولة الحميرية، وعندما برزت دولة حمير كقوة حاسمة في جنوب جزيرة العرب، وأصبحت موضع تنافس بين دولة الفرس الساسانيين ودولة الروم، بدأ ذلك التنافس بدخول الديانة المسيحية واليهودية في بلاد اليمن ـ في القرن الأول والثالث الميلادي، وبرزت في القرن الرابع الميلادي، وصارت في نجران جموع كبيرة من الناس تعتنق المسيحية، وكان الروم يهدفون من نشر المسيحية في اليمن أن يكون لهم نفوذ سياسي واقتصادي فيها.

فصارت تجارتهم تسير بين الخليج العربي، والبحر الأحمر مارة في بلاد اليمن، الأمر الذي استاء منه اليمنيون، وحملهم على مضايقة الروم والتصدي لتجارتهم[2].

ثانياً

الأطماع الأجنبية في المنطقة اليمنية

أ ـ الغزو الروماني لليمن عام 24 ق. م:

كانت اليمن بموقعها الاستراتيجي؛ وثرائها الواسع، وخصوبة أراضيها بفعل تطور نظام الري في اليمن القديم، تلفت أنظار الإمبراطوريات العظمى في ذلك العهد، للاستحواذ على خيرات الشعوب الضعيفة، حتى تزيد من ثرائها

= والموانئ الواقعة على طرق القوافل التجارية البرية والبحرية، كانت تزدحم خاصة في مواسم التجارة بين اليمنيين والمصريين واليونان وغيرهم. ممتاز العارف: مرجع سابق، ص75.

(1) د. فاروق عثمان أباظة: التدخل الأجنبي في اليمن في نهاية حضارته القديمة وموقف الشعب اليمني إزاءه، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد16، أكتوبر1978، ص79.

(2) سعيد عوض باوزير: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1961، ص30

الفاحش. وبهذا الصدد يمكن اعتبار نشاط الجيوش اليونانية في الجزيرة العربية؛ أولى المحاولات المبكرة لضم المنطقة اليمنية لإمبراطوريتها الواسعة. حيث عزم الاسكندر على اقتحام الجزيرة من البحر الأحمر، وأعد لتنفيذ خطته كل ما يلزم، فهيأ السفن والبحارة، غير أن موته المفاجئ، وهو في مقتبل العمر، ثم تنازع قواده وانقسامهم، وما إلى ذلك من شؤون، صرف قواده عن التفكير في تلك الخطة[1].

وفي سنة 27ق. م، أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحريا في البحر الأحمر، يحمل إلى مصر عروض الهند وأفريقيا الشرقية، فأحدث ذلك اضطرابا في شؤون السبئيين الاقتصادية[2]، خاصة بعد تحول طريق التجارة عبر المحيط الأطلسي، وقد اعتقد الرومان أن المشاكل الاقتصادية ـ السياسية، التي تعاني منها اليمن؛ سوف تكون عاملا مساعدا على نجاح الرومان في احتلال المنطقة اليمنية، خاصة بعد احتلال الإمبراطورية الرومانية لكل من مصر وسوريا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وأصبحت الأوضاع في المنطقة أكثر تعقيدا. إذ بدأت الإمبراطورية الرومانية في اتخاذ الخطوات اللازمة لفرض سيطرتها على التجارة الشرقية، التي تشكل مصدراً ضخماً للدخل العائد من الضرائب التجارية... وقد أنشأ الإمبراطور الروماني (ترويان) أسطولا بحرياً خاصاً لتنفيذ فرض الضرائب في بداية القرن الثاني الميلادي.

وأخذت التجارة الداخلية للجزيرة العربية في الضعف، كما اشتدت الحروب بين ممالك العربية الجنوبية منذ القرن الأول الميلادي؛ ليس بهدف السيادة على الطرق التجارية، وإنما لغرض السيطرة المباشرة على مناطق إنتاج اللبان وعلى السواحل التي تقع بها الموانئ الرئيسية (قنا، عدن، موزع)[3]، التي تقع على خط التجارة البحرية التي انتعشت منذ مطلع الرومان.

وقد ذكر (استرابون) أن الأسباب الرئيسة للحملة الرومانية على اليمن؛ هي السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وما سمعه القيصر الروماني عن الثروة الهائلة التي يتمتع بها أهل اليمن، حتى أنه قال " إنه يتعامل مع العرب كأصدقاء أغنياء أو أن يسيطر عليهم كأعداء أغنياء". وهناك سبب آخر لهذه

(1) د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ ص 27 ـ 28.

(2) د. أبو العيون بركات: اليمن وعلاقتها بدول الشرق الأدنى القديم في عصور ما قبل الإسلام، اليمن الجديد، العدد3، صنعاء، مارس 1982، ص49.

(3) ج. م. باوير وأ. لوندن: تاريخ اليمن القديم، ص44.

الحملة؛ هو أن الرومان كانوا يريدون جعل البحر الأحمر بحيرة رومانية، وأن يقضوا على المنافسة التجارية للعرب الجنوبيين، الذين كانوا يتاجرون مع الهند ويصدرون منتجاتها إلى العالم[1].

وتشير العديد من الدراسات بهذا الخصوص؛ أنه في عهد الدولة الحميرية الأولى حدثت حملة (ايليوس جاليوس) وخلاصتها أن روما كانت قد أخذت تمد نفوذها في منطقة الشرق الأوسط، فتمكن (بومبي) من أن يستولي على بلاد الشام ـ سوريا وفلسطين ـ كما قضى (يوليوس) قيصر على دولة البطالمة في مصر.

ولما تولى (أغسطس) زمام الحكم في روما؛ وعرف ما تصرفه روما على البخور والأفاويه، أراد أن يضم إلى إمبراطوريته البلاد التي تنتج هذه المحصولات، فأوعز إلى واليه في مصر (ايليوس جاليوس) أن يسير على رأس حملة لاحتلال اليمن وذلك سنة 24 ق.م. وفعلا تحركت الحملة من مصر وكان قوامها (عشرة آلاف مقاتل) وكان هدفها الاستيلاء على طرق التجارة البرية التي كان يحتكرها عرب الجنوب، وكذا استغلال موارد اليمن ـ منتجاته ـ لمصلحة روما، وقد ساعد الحملة الوزير النبطي المسمى سيلوس أو صالح[2].

وقد ذكر (استرابون) أخبار هذه الحملة، فقال إنها سلكت الطريق البري، لعدة أشهر، عبر الحجاز، ثم تقدمت حتى وصلت إلى مأرب. وقد لقيت الحملة مقاومة شديدة، اضطر معها ايليوس جاليوس أن يقفل راجعاً بعد أن حاصر مأرب ستة أيام. وقد لاقى جيشه في طريق عودته ـ وقبل ذلك ـ الكثير من المصاعب والأهوال، وفتك به المرض، ويدعي الرومان أن سبب فشلهم يرجع لعامل المناخ، والواقع أن مقاومة اليمنيين هي السبب الرئيس لعدم نجاحهم في إخضاع البلاد، وهكذا نجت "اليمن" من الحكم الروماني، واستمرت تجارة الأفاويه بينهم وبين روما[3].

---

(1) عبدالله الثور: هذه هي اليمن، دار العودة بيروت، ط2، ص145

"وقد تشكلت حملة (أليوس جاليوس) من عشرة آلاف جندي من الرومان والمصريين والأنباط و500 من اليهود، وانتقلت الحملة بحراً من الساحل المصري إلى الساحل العربي، وفقد الكثير من السفن بالبحر الأحمر، وبعد مرور (115) يوما رست القوات في ميناء (لويكة كومة) حيث تفشت الأمراض بين الجنود".

د. مصطفى أبو ضيف أحمد: دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل ظهور الأمويين، ص34.

(2) د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، ط3، بدون تاريخ، ص99.

(3) ويضيف استرابون المؤرخ الروماني الذي قدم مع الحملة الرومانية بقيادة أليوس جاليوس؛ =

ونستدل من ذلك أن الإمبراطورية الرومانية؛ نتيجة لبعد المسافة التي تفصل اليمن عن العاصمة الرومانية؛ أصدرت أوامرها إلى والي مصر الروماني (ايليوس جاليوس) بأن يجهز حملة لاحتلال اليمن والجزيرة العربية وضمها إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية، لكن المقاومة اليمنية حالت دون وقوع البلاد تحت براثن السيطرة الرومانية.

وأبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، أن بعض الروايات تذكر أن اليمنيين استخدموا في درء العدوان أسلوب الأرض المحروقة ـ وهو أسلوب لم يعرف من قبل في حروب ذلك العهد ـ حيث كان اليمنيون القاطنون في المناطق الحدودية ينسحبون من مناطقهم إلى الداخل، بعد أن يحرقوا في طريقهم الأخضر واليابس، كما يقومون بردم الآبار، حتى لا تجد القوات الغازية ما يساعدها على مواصلة توغلها داخل الأراضي اليمنية، وفي مأرب تحصن اليمنيون بالجبال على الطريق المؤدية إليها، واستطاعوا نصب كمين للقوات الرومانية المنهكة، مما ساعدهم في تحقيق الانتصار الحاسم على أعدائهم، حتى قيل إن أعداداً قليلة من هذا الجيش استطاعت النجاة من هذه المذبحة، فقرروا الفرار بصحبة قائدهم (ايليوس جاليوس) الذي لقي حكماً بالإعدام في مصر[1].

ورأى الرومان بعد أن أخفقت حملتهم على اليمن أن يكتفوا بالسيطرة على الطريق التجاري البحري عبر البحر الأحمر، وإقامة علاقات ودية مع الحكومة الحبشية، وقد أضر ذلك باقتصاديات اليمن ـ أعني إنعاش خط الملاحة البحرية عبر البحر الأحمر وحرمان اليمنيين من الاستفادة من الطرق البرية التي كانوا يحتكرونها لفترة طويلة ـ إضراراً بالغاً أكثر مما أضر بها تهدم سد مأرب[2]. على أساس أن هذه

= نزلت الحملة بالمخأ وأرادت التقدم إلى صنعاء ونجران، فلم تستطع، فخرجت نحو تهامة، فقال أنه وجد أرضا خضراء مليئة بغابات الأشجار وسمى اليمن باليمن الخضراء والعربية السعيدة. د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص99 ـ 100.
ومجمل القول في هذا الصدد، أن اليمن واجهت إبان عهد الإمبراطور (أغسطس) غزوا رومانيا على أراضيها سنة 24ق. م وليس 25 ق.م كما جاء لدى د. نبيه العاقل، انظر المرجع نفسه.

(1) لمعرفة المزيد عن ذلك، انظر: د. عبدالله حسن الشيبه: دراسات في تاريخ اليمن القديم، ط1، تعز، مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر، 2000م، ص 21 ـ 23.

(2) د. مصطفى أبو ضيف أحمد: مرجع سابق، ص35. كذلك انظر: د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ص129.

الأضرار؛ جاءت والمنطقة اليمنية تعيش ظروفاً عصيبة في نواحي الحياة المختلفة.

ب: الاحتلال الحبشي الأول لليمن:

إن الكتابة في هذا الموضوع، لا زال يكتنفها الغموض. نتيجة لقلة النقوش المكتشفة، والتي تتحدث عن هذه المرحلة. لكن يمكننا القول أن الاحتلال الحبشي الأول لليمن، حصل في عهد الدولة الحميرية الثانية "كرد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة، ولم يكن للعوامل الدينية دخل في هذا الغزو"[1].

"وقد تمكن الأكسوميون من احتلال المناطق الساحلية بسهولة، ومن ثم بدأوا في استمالة قبيلة (سهرت) التي تحتل المناطق الشمالية المجاورة لسبأ وكذلك القبائل العربية المترحلة على حدود سبأ، بالإضافة للنبلاء النجرانيين الذين كرهوا تبعيتهم للدولة السبئية، وبذلك ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي تحالف معاد لليمن القديم بقيادة حبشت (الحبشة) وقد استغل الأكسوميون ظروف الحروب الداخلية بين الممالك اليمنية بين سبأ وحضرموت من ناحية والدولة الحميرية من ناحية أخرى، للتدخل في الشؤون الداخلية لجنوب الجزيرة العربية[2].

وقد سجلت نقوش ملوك الحبشة للفترة (350 ـ 510) امتداد سلطانهم إلى مناطق باليمن، وهو سلطان ووجود ذو صبغة احتلالية، ورغم وقوعه في ظل دولة ظفار الحميرية المسيحية[3].

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفند مختلف الكتابات والآراء، التي أرادت أن تتمسح بالدوافع الدينية، وكأنها الأسباب الأساسية لهذا الغزو، وبهذا الخصوص يمكننا القول أن الأحباش استولوا على اليمن. لكن الحكم الحبشي واجه مقاومة ضارية من اليمنيين بمختلف فئاتهم بما فيهم الوثنيون والمسيحيون، واستطاعوا طرد الأحباش من اليمن، وتحقق استقلال وطني نعم بظله الجميع بالأمن والأمان والاستقرار.

---

(1) د. سيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية منذ العصر الجاهلي وحتى سقوط الدولة الأموية، ص63. والتفاصيل بهذا الخصوص سنأتي على ذكرها في الصفحات القادمة.

(2) ج.م. باوير، أ. لوندن: مرجع سابق، 54.

(3) محمد حسين الفرح: علاقة اليمن بالحبشة، مجلة اليمن الجديد، العدد4، صنعاء، أبريل1987، ص90.

ورغم فشل الاحتلال الحبشي الأول للمنطقة اليمنية والذي استمر سنوات قليلة فقط، إلا أن هذا الغزو كان مقدمة للحملات الحبشية التي جاءت بعد ذلك للسيطرة على المنطقة اليمنية.

على أننا نود أن نشير هنا، بأن الاضطرابات الداخلية التي حدثت في المملكة الحبشية في عهد الملك (عزانا) دفعت الملك الحميري (كرب يهئمن) إلى أن يقود الثورة من أجل استرداد البلاد وطرد الأحباش من المنطقة اليمنية[1].

بيد أن أهم ما يلفت الانتباه، أن ملوك الحبشة منذ احتلالهم الأول لليمن، كانوا يطلقون على أنفسهم مختلف الألقاب الحميرية، للدلالة على أن اليمن أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم، مثل (ملك أكسوم وحمير وذي ريدان وحبشت وسبأ وتهامة).

ومنذ ذلك الحين عادت اليمن حرة موحدة تحت حكم قيادة وطنية حميرية، بل ولتسجل لنا الدولة الحميرية دخولها المرحلة الثانية من تطورها، وذلك بإنشاء دولة قوية تميزت فيها النظم والقوانين بصبغة حضارية مزدهرة.

ففي هذا العهد حكم اليمن ملوك أقوياء، استطاعوا أن يستعيدوا مكانة اليمن الاقتصادية في العالم القديم، كما بدأوا في بناء دولة حديثة، تمكنت من فرض تواجدها على الساحة الدولية، خاصة في المجال التجاري، الذي يتم التعامل فيه مع دول عظمى مثل فارس وبيزنطة اللتين كانتا تقتسمان العالم آنذاك.

وقد كان لابد لدولة حمير، وسط مختلف الأخطار المحيطة بها، من أن تسعى لتعزيز قواتها العسكرية، لتغدو دولة حربية تستطيع أن تحمي السيادة الوطنية للبلاد، وفعلاً استطاعت الدولة الحميرية الثانية في بداية عهدها من تثبيت الأوضاع الداخلية، ما مكنها من فرض استقرار اقتصادي وسياسي في المنطقة.

لكن انتشار المسيحية واليهودية في اليمن، كان على حساب الديانة الوثنية التي كانت تدور حول عبادة النجوم والكواكب، وذلك بفضل الدعاية التي قام بها المبشرون المسيحيون، وخاصة اليعاقبة ـ أتباع مذهب الطبيعة الواحدة " المونوفيزتي" الذين جاؤوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران[2].

(1) د. سيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص66.

(2) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 613.

وفي الحقيقة كان سماح الحميريين للجاليات الأجنبية بإقامة بعض الكنائس المسيحية في بعض المدن اليمنية، على أساس أنها نوع من الامتيازات تمنح لهذه الجاليات القادمة إليها من الشام، من أجل تحقيق مستويات أرقى في التعامل التجاري بينها وبين الشعوب الأخرى التي تمثلها هذه الجاليات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت اليمن تدرك أن دول الشمال قد اتخذت الديانة المسيحية على مذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزتي الذي يتعارض مع مذهب الإمبراطورية البيزنطية التي تعتنق المسيحية على المذهب النسطوري، القائل بأن للمسيح طبيعتين مستقلتين، إحداهما إلهية، والثانية بشرية[1].

لذا أرادت الدولة اليمنية من خلال سماحها بإقامة هذه الكنائس، تطوير علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع هذه الممالك التي تمتلك معها مصالح مشتركة، خاصة وأن الوضع الاقتصادي والثقافي في الجزيرة العربية في ذلك العصر تميز بوجود دول الحضر الضخمة في أطراف الصحراء، والتي كان تحت سلطتها أعداد من البدو الرحل. ومن هذه المدن كانت البتراء وتدمر وغزة والدولة السبئية الحميرية[2].

= وكان "المنوفيزيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له، فقد اشتد هذا الخلاف في القرنين السادس والسابع حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين..." د. رؤوف شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام، ص159.

كما كان لأنصار هذا المذهب ـ مذهب الطبيعة الواحدة ـ وضع مختلف تماماً، فإنهم كانوا يسمون حتى عام 541م باسم المترددين، وكان (جستنيان) الإمبراطور البيزنطي، يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخوان خاطئين ثم وافاهم بعد ذلك بإجراء بالغ الشدة، غير أنه كان دائماً يلوح لهم بالوفاق، وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية، فمن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى اللتان تعتبران العمود الفقري لميزانية الإمبراطورية. انظر: سانت. ل. ب. هـ. موس ـ ميلاد العصور الوسطى ـ 395 ـ 804م، ترجمة: عبدالعزيز توفيق، ص197 ـ 198.

وعليه "غدت المونوفيزية في العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي قوة سياسية جبارة، كانت حاملة للنفوذ الحبشي البيزنطي كأداة للسياسة البيزنطية في الصراع من أجل الإشراف على الطرق التجارية التي تمر في أراضي الجزيرة العربية". أ.ج ـ لوندن: ثقافة العربية الجنوبية في القرن السادس، ص10.

(1) سنناقش هذه الإشكالية في فصل مستقل.

(2) م. ب. بيوتروفسكي: اليمن قبل الإسلام ـ والقرون الأولى للهجرة، ص117.

الفصل الخامس

قصة أصحاب الأخدود

أولاً: أوضاع الدولة الحميرية قبيل الاحتلال الحبشي الثاني.

ثانياً: الاحتلال الحبشي الثاني لليمن 525 ـ 575 م.

ثالثاً: ذو نواس ونجران القديمة.

رابعاً: المقاومة اليمنية للغزو الحبشي بعد مقتل ذي نواس.

خامساً: الأحباش في المنطقة اليمنية.

قصة أصحاب الأخدود

تعتبر مذبحة أصحاب الأخدود من الأحداث الفاصلة في التاريخ اليمني القديم، لأنها شكلت عموداً ضخماً وصلباً قسم تاريخ اليمن آنذاك إلى قسمين، أحدهما اتسم بالحضارة والقوة والسيادة على الشعوب الأخرى، بينما تمايز القسم الآخر منه بالضعف واندثار معالم الحضارة، والخضوع للاحتلال الأجنبي حتى قيام الدولة العربية الإسلامية.

وفي ضوء هذا اتسم تاريخ تلك الحقبة بالتناقض والاختلاف في وجهات النظر على الرغم من كثرة ما كتب عنها، بسبب ما تمخض عنها من نتائج حاسمة. ولإيضاح ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، سنحاول إلقاء الضوء على العديد من القضايا المرتبطة بها، من خلال:

أولاً

أوضاع الدولة الحميرية قبيل الاحتلال الحبشي الثاني

اتخذت الإمبراطورية البيزنطية ودولة أكسوم من "الدين" وسيلة لنشر وتغلغل نفوذهما في المنطقة اليمنية. لكننا نود أن نبين في البداية بأن انتشار الديانات التوحيدية، وبالدرجة الأولى اليهودية في القرن السادس وانتشارها انتشاراً واسعاً في العربية الجنوبية... جاء في الظروف التي ظهرت فيها الحاجة إلى أيديولوجية طبقية جديدة، اقتضتها تغيرات النظام الاجتماعي، خاصة وأن اليهودية منذ القرن الأول الميلادي، كان قد اكتمل تحولها من دين قبلي إلى دين طبقي[1].

وهناك الكثير من المراجع التي اعتمدت على أمهات الكتب في تفسير بعض الظواهر الاجتماعية من منطلقات أسطورية، خاصة فيما يتعلق باعتناق اليمنيين للديانة اليهودية، وذلك عندما "يعلل الأخباريون العرب انتشار اليهودية

(1) أ. ج. لوندن: مرجع سابق، ص5 ـ 7.

في اليمن، بعد أن استردها أبي كرب أسعد، بأنه لما رجع بمن معه من الجنود والحبريين اليهوديين من الحجاز، دعا قومه إلى الدخول في اليهودية، فحال قومه بينه وبين دخولها، وقالوا له: حاكمنا إلى النار، قال: نعم.

وكانت باليمن فيما يزعم نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم شيئاً، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به، وخرج الحبران بمصاحفهم في أعناقهم متقلدين بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها، فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فأمرهم من حضر بالصبر، فصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران ومعهم المصاحف في أعناقهم تعرق جباههم ولم تضرهما، فاتفقت عند ذلك حمير على اليهودية، فمن هناك كان أصل دين اليهودية[1].

ورغم اختلاف هذه الرواية من كتاب إلى آخر، في كتب الإخباريين، إلا أن كثيراً من المؤرخين يعتمدون عليها، وكأنها ظواهر واقعية، بل وعلى ضوئها توصلوا إلى مختلف استنتاجاتهم المبنية على صرح من الأساطير المسلية، التي تناقلها الناس على علاتها جيلا بعد جيل دون أن يخوضوا في ماهية تلك الروايات، على اعتبار أنها معجزة من معجزات ذلك العصر.

وقد اختلف المؤرخون في الكيفية التي وصلت فيها اليهودية إلى اليمن، استناداً إلى مختلف الروايات، ويمكن تصنيفها كما يلي:

1 ـ استناداً إلى زيارة ملكة سبأ إلى سليمان بأنها أول من آمن بها وأدخلها إلى اليمن.

2 ـ أن اليهودية وصلت إلى اليمن بواسطة الملك تبع أسعد الكامل، الذي كان قد أعجب بها، عندما سمع عنها أثناء أسفاره وغزواته إلى الحجاز والشام، وجلب معه نفراً من الأحبار للقيام بمهمة نشرها.

3 ـ أن اليهودية وصلت إلى اليمن وانتشرت بصورة طبيعية وشعبية، من خلال صلات اليمنيين بأهليهم الأوس والخزرج في يثرب كونهم كانوا من معتنقي

---

(1) د. السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص66، وبهذا الخصوص انظر: قصيدة نشوان بن سعيد الحميري: ملوك حمير وأقيال اليمن، تحقيق إسماعيل الجرافي وعلي المؤيد، دار العودة، بيروت ـ دار الكلمة، صنعاء، 1978، ص145 ـ 146. وكذا: طه حسين: على هامش السيرة، إصدار وزارة التربية والتعليم بمصر، القاهرة، 1970، ص65 ـ 78.

الديانة اليهودية، خاصة إذا "تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في الجزيرة العربية لرأينا أن معظمهم أرآميين وعرب متهودين، وليسوا من ذرية إبراهيم الخليل"[1].

على أن هذا الاختلاف والتناقض المحيط بقضيتنا، يدفعنا لرسم صورة واضحة للأسباب التي أدت لاعتناق اليمنيين للديانة اليهودية، وقد بدأ ذلك عندما عمد الرومان إلى اضطهاد اليهود بقسوة بالغة، لهذا كان عدد اليهود بعد تخريب الرومان لهيكل أورشليم يزداد في المدن الكبرى.

وقال (استرابون) "ويظهر أن اليهود قد وجدوا سبيلا إلى كل مدينة، حتى أنه يصعب وجود مكان في المسكونة لم يتطرق اليهود إليه، ويتسلطوا عليه"[2].

وقد كانت شبه جزيرة العرب مكاناً صالحاً للجوء أولئك المضطهَدين من اليهود، لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم، بخلاف العراق والشام وآسيا الصغرى وسائر بلاد العالم القديم[3].

وجاء اليهود إلى المنطقة اليمنية في محاولة منهم لتحويلها إلى منطقة نفوذ اقتصادية تابعة لهم، وقد تركزت أطماع اليهود الاقتصادية في الاستيلاء على ثروات الجزيرة العربية، ومنها التجارة، فكانت كل علاقاتهم وتفكيرهم المادي، يتمحور حول كيفية السيطرة عليها، مجتهدين في ذلك أيّما اجتهاد، موجهين كل حركتهم ونشاطهم إليها، لهذا حاولوا إيجاد علاقة ودية مع أصحاب تلك الخيرات، إن لم يكن من الممكن الاستحواذ عليها[4].

---

(1) عزالدين كشار: لمحات في تاريخ اليمن القديم، سلسلة آفاق المعرفة ـ 11 ـ، دار الهمداني، ط1، عدن، 1984، ص91.

(2) فيليب حتّي: تاريخ العرب (المطول)، ص81.

في عام 70 م كان اليهود قد نزحوا من فلسطين، بعد أن دمرها الإمبراطور "تيتوس Titus"... ووجد بعضهم في اليمن بلدا آمناً يأوون إليه، ومكاناً يأمنون فيه، وبعد مضي برهة من الزمن، تمكنوا من السيطرة على مرافق اليمن التجارية، مما ساعدهم على نشر الدين اليهودي في اليمن. أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الأولى، 1963، ص 93.

(3) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص36.

(4) انظر ثريا منقوش: التوحيد في تطوره التاريخي ـ التوحيد يمان، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1977، ص 135 ـ 140. انظر كذلك: ثريا منقوش: سليمان فتنته سبأ جمالها والخيرات، ص36 ـ 39.

وقد بلغت هذه العلاقة ذروتها في عهد أبي كرب أسعد، وذي نواس[1]، الذي أصبحت في عهد كل منهما الديانة اليهودية؛ دين الدولة الرسمي، وجاء إعلان ذي نواس اعتناقه اليهودية على أساس كونها أيديولوجية معارضة للنفوذ الحبشي ـ البيزنطي، الذي أخذ يتغلغل في جسم المجتمع والدولة في اليمن، بل وكراية فكرية لمقارعتهم الحجة بالحجة، ولكن على أساس عدم الإخلال بالنظام وشرعيته، ودون اتصال بقوى أجنبية بقصد تهديد وجوده.

كما أخذت تتسرب إلى الجنوب مبادئ النصرانية، على المذهب المونوفيزتي منذ عهد قديم، وربما يكون المرسلون ـ المبشرون السوريون ـ قد قصدوا اليمن في أزمنة مجهولة لدينا، فراراً من الاضطهاد. وكانت أول سفارة نصرانية إلى الجنوب؛ تلك التي أرسلها الإمبراطور (قسطنطينوس) سنة 356م يرأسها (ثيوفلس اندس) على مذهب آريوس، توضحها الحالة السياسية بين الدول آنئذ، والمنافسة بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية، إذ نشطت كل منها إلى توطيد هيبتها في جنوبي الجزيرة.

وأفلح (ثيوفلس) في إنشاء بيعة في عدن، وبيعتين في أرض حمير. أما نجران التي جاءتها النصرانية على المذهب المونوفيزتي، فيقال إن حاملها إليها هو رجل ذو ورع قدمها من سوريا اسمه (فيميون)، فاعتنقت البلاد الدين الجديد في نحو 500م[2].

وعلى هذا الأساس، وجدت النصرانية طريقاً لها إلى اليمن في غضون القرون الأولى من الميلاد، مع التجار، وعن طريق الروابط التجارية، وكانت منذ البداية مرتبطة ببيزنطة، التي ضمت التجار النصارى، وتحول جزء من مشاهير الأعيان إلى النصرانية، ولا سيما أقيال سلالة عبد كلال.

وفي القرن الخامس قويت علاقات هؤلاء الأعيان السياسية مع بيزنطة والحبشة، وعزز ذلك العلاقات السياسية التقليدية القائمة بين نجران والحبشة،

---

(1) تناقضت روايات الإخباريين العرب المسلمين حول تولية يوسف أسأر السلطة بعد وفاة معدي كرب، مما ترك أثره على مجمل الدراسات الحديثة، التي اهتمت بموضوعه، انظر: محمد عبدالقادر بافقيه: أبرهة تبعاً، مجلة دراسات يمنية، العدد25 ـ 26، 1986، ص9. انظر كذلك: يوري ميخايلوفتش كربيشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسطية المبكرة وعلاقته بالجزيرة العربية ـ من القرن السادس إلى منتصف السابع الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1988، ص 31.

(2) انظر: فيليب حتّي، مرجع سابق، ص 80

وأصبح مشاهير الأعيان النصارى وأفراد القمة التجارية النصرانية اليمنيين مناصرين للنفوذ الحبشي، ولم يكن الملوك الحميريون منذ أواخر القرن الخامس الميلادي ومطلع القرن السادس لا سيما "معدي كرب يعفر" كما تؤكد ذلك المصادر النصرانية، بمثابة صنائع مباشرين للأحباش، ولكنهم كانوا في حالة تبعية سياسية واقتصادية كبيرة للنصارى[1].

ومن المرجح أن الأحباش والبيزنطيين، كانوا تواقين لنشر النصرانية في اليمن، وعليه فقد قام كل منهما بإرسال مبشريه ورسله إلى الأراضي اليمنية بغية كسب أنصار جدد للنصرانية، وبدأ هؤلاء المبشرون يكونون جماعات وأنصاراً من المتواطئين اليمنيين والعملاء، الذين يدينون بالولاء للحبشة وبيزنطة، قبل ولائهم لحكومتهم ودولتهم اليمنية الحميرية، واستغل الأحباش والبيزنطيون هؤلاء النصارى في التخريب والتجسس لصالحهم، وألحقت بالدولة الحميرية أضراراً فادحة، نتيجة لأعمال التخريب التي يقوم بها عملاء الأحباش المندسين.

وباختصار، فالأحباش أنشأوا لهم آنذاك طابوراً خامساً يعمل لصالحهم، ويدين لهم بالولاء والطاعة.

وكان هذا الموقف الخائن من النصارى اليمنيين، الدافع الأول الذي جعل ذي نواس يستدعيهم وينصحهم بالكف عن الاسترسال في غيهم، ولكنهم لم يرتدعوا، وكان تصرف وعمل ذي نواس آنذاك يدل دلالة أصيلة على حسه الوطني، عندما أقدم على معاقبتهم بشدة بغرض اجتثاث الشر من الأصل[2].

وفي هذا الصدد ترى الكثير من الدراسات "أن نشر الدين أمر ثانوي في جميع الحركات التبشيرية... ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش إلى كل مكان[3]. ولتأكيد هذه الحقيقة الواقعة، وجب علينا الإحاطة بمختلف الظروف التي دفعت بالأحباش ـ في الإطار الديني كما يزعم البعض ـ، وعلى سبيل المثال يتحدث:

(1) م. ب. بيوتروفسكي: مرجع سابق، 241.

(2) د. سيف علي مقبل: الصراع اليهودي المسيحي في اليمن القديم، ص9.

(3) د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1982، ص34 ـ 116.

وحول اعتناق اليمن الديانة المسيحية، أشيعت كثير من الأساطير في هذا الخصوص، وقد أورد لنا اليعقوبي " بأنه قدم اليمن رجل يقال له عبدالله بن الثامر، وكان على دين المسيح، فأظهر دينه في اليمن. وكان إذا رأى العليل والسقيم قال أدعو الله لك يشفيك وترجع عن دين قومك، فيفعل ذلك فكثر من تبعه " اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، 1358هـ ، ص161.

د. سيد عبدالعزيز سالم، بهذا الخصوص: ". . . . لقد كان تحول ملوك أكسوم إلى المسيحية؛ إيذاناً بتقارب هذه المملكة مع بيزنطة حامية نصارى الشرق، وكان الأحباش يطمعون في السيطرة على بلاد اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية، دون أن تتعرض للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون"[1].

وعلى ضوء هذه الرواية يمكننا الاستنتاج بأن الأحباش أرادوا احتلال اليمن لأسباب اقتصادية ـ سياسية، دون أن يضعوا في مخيلتهم أي اعتبارات دينية لهذا الغزو، خاصة إذا عرفنا بأن الأحباش حتى هذا التاريخ لم يكونوا قد اعتنقوا الديانة المسيحية، وقد تحدث؛ د. مصطفى أبو ضيف بهذا الخصوص قائلاً: ". . وكان ملوك الحبشة (أكسوم) وثنيين حتى القرن الرابع الميلادي، ويعتقد أن الملك (عزانا) هو أول ملوك الحبشة؛ الذين اعتنقوا الديانة المسيحية"[2].

ويضيف الأستاذ عمر فروخ فيما ذهبنا إليه بهذا الخصوص" . . بأن الأحباش إبان احتلالهم المنطقة اليمنية، لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد، لكن الطمع بخيرات اليمن جمع بين الروم والحبشة"[3].

وللتدليل على صحة اعتقادنا هذا، تحدثنا أحدى النقوش، التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي بأن ملك الحبشة ذكر فيه بأنه شيد فيها مذبحاً أو عرشاً للآلهة التي دعاها (محرم) (بحر) و (مدر) وهذه تقابل إله (الحرب) وإله (البحر) وإله (الأرض).

ويرينا هذا النص بما لا يدع مجالاً للشك بأن ملك أكسوم، كان وثنياً في ذلك العهد، كما أنه يؤكد أيضاً أن أسطورة تحدّره من (منليك وسليمان) ليس له أساس تاريخي لكن هذا الملك الأكسومي نفسه يحدثنا في نقش آخر بعد فترة من الزمن أنه شيّد مذبحاً ولكن ليس في (محرم) ولا في (بحر) و (مدر)، بل أهداه إلى إله السماء، الذي منحه الملكية والذي نجاه ـ أنه يعبد

---

(1) د. السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص 68 ـ 69.

(2) د. مصطفى أبو ضيف: مرجع سابق، 39.

ويضيف الأستاذ ممتاز العارف بأن قبيلة (أغاو Agwa) من الحبشة وهي إحدى أقوى قبائل الهضبة العريقة وأوسعها نفوذاً في هذه المنطقة، فقد عرفت باعتزازها بوثنيتها ومقاومتها للنصرانية أجيالاً عديدة. انظر: ممتاز العارف: مرجع سابق، ص74

(3) د. عمر فروخ: مرجع سابق، ص 55.

هذا الإله/ وأنه يتخلى عن كل عمل غير صالح بخصوص رعيته، وذلك دليل على عبادته وتقواه[1].

كما يؤكد هذا النقش أيضاً أن تحولاً غير طبيعي قد جرى في حياة الملك الأكسومي دفعه إلى تغيير شعاراته، حتى يستطيع أن يحقق لدولته مكاسب اقتصادية ـ سياسية على حساب شعب آخر، وتحت مبررات مقبولة يضمن من خلالها استمرار نفوذها وسطوتها، في ظل أعوان لها من أبناء البلاد الأصليين.

ونستدل من ذلك، أن ملك أكسوم لم يكن وقت غزو اليمن مسيحياً، ولكنه أعطى وعداً بالتنصير في حال انتصاره في الحرب ضد الحميريين، ورغم هذا فقد تلقى أيضاً كل الدعم المادي والمعنوي من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ البيزنطية ـ التي كانت ترنو باهتمام بالغ لوضع اليد على هذه المنطقة[2].

وهذا ما يؤكد أن المصالح المشتركة للأحباش والبيزنطيين، هي التي تكمن وراء احتلال المنطقة اليمنية، بهدف وضع حاجز منيع يحول دون استيلاء الدولة الساسانية لمنطقة الخليج والجزيرة، بعد أن غدت في حوزتها معظم أجزاء هذه المنطقة[3]، خاصة أن الأطماع الحبشية في المنطقة كانت قد كشفت عنها القناع منذ وقت مبكر، ولم يكن الاحتلال الحبشي الأول للمنطقة اليمنية، سوى ذروة لتلك الاعتداءات على المنطقة اليمنية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت حملة الأحباش على مكة أبلغ دليل على هوية ذلك التحالف الحبشي ـ البيزنطي، من أجل ضم هذه المنطقة إلى أملاكهم.

كما كان حلمهم في احتكار التجارة التي ستعود عليهم بعائدات ضخمة، تدفع الأحباش والبيزنطيين لتنفيذ احتلال هذه المنطقة.

---

(1) أغناطيوس غويدي: محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة وتقديم إبراهيم السامرائي، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1986، ص 90 ـ 91.

(2) سيف علي مقبل: حادثة الأخدود في نجران القديمة، الثقافة الجديدة، العدد6، عدن، 1985، ص 25 ـ 26.

(3) خاصة وأن "الفرس استطاعوا في القرن الرابع احتلال عمان ـ شرق جزيرة العرب ـ كما بسطوا نفوذهم في اتجاه العرب في غير ما عسر. والحق إن تاريخ بلاد العرب كلها في القرون الأولى التي سبقت ظهور الرسول محمد (هو قصة الصراع بين الشرق والغرب، بين فارس وبيزنطة". روم لاندو: الإسلام والعرب، نقله إلى العربية: منير بعلبكي، نسخة مصورة، بدون دار نشر أو تاريخ، ص22 ـ 23.

ومن أجل توضيح ما ذهبنا إليه في هذا الخصوص؛ نقول بأن الإمبراطور الروماني (قسطنطين الكبير) الذي حير المؤرخين دائماً لعظمته، وكان أول من اعترف بالمسيحية ديناً شرعياً ـ رسمياً ـ لإمبراطوريته، ورمزاً لوحدتها. . . إلا أنه لم يصدر ضد الوثنية مرسوم اضطهاد، أو حتى مارس أي شكل من أشكال الاضطهاد، ولكن لاشك أنه أدرك ببعد نظره وبصيرته؛ أن نجم الوثنية إلى أفول، وأنها تسير إلى نهاية محتومة فلم يحاول أن يبعث فيها الحياة، ولم يتعجل يوم نهايتها أيضاً[1]، وكان ذلك في سنة 312 م.

ومنذ ذلك التاريخ " نعم هذا الدين بحمايته، وأخذ يزداد قوة مع الأيام. . . ولا يعني قولنا أن (قسطنطين) اعتنق الديانة المسيحية، وأنه قطع كل صلته بالتقاليد الوثنية في العبادة، كما فعل من خلفه من أباطرة بيزنطة، فقد استمر (قسطنطين) في احترام بعض تقاليد العبادة الوثنية، واشترك بنفسه في بعض طقوس تلك العبادة. ولاسيما عبادة إله الشمس[2].

وعليه يمكننا الجزم بأن الإمبراطور الروماني كان وثنياً أيضاً، ولكن ظروف دولته واشتداد عضد المسيحيين في جسم الدولة، كان هو الدافع وراء إعلان تأييده للمسيحية؛ وعدم اضطهاد المسيحيين في دولته.

مما يجعلنا على يقين بأن ما أورده؛ د. جلال يحيى في هذا الخصوص ليس له أساس من الصحة، خاصة وأنه حدد أن "انتصار المسيحية جاء لكي يقضي على الإمبراطورية الرومانية بعد أن تركت روما عبادتها السابقة، واعترفت بأخطائها. وكانت فكرة المسيحية تزداد في (عالميتها) على الفكرة الرومانية، كما كانت تحمل معنى القضاء على الاستعمار والتفرقة العنصرية، مادام الكل سواء. وحكمت روما باعتناقها المسيحية على مجدها الإمبراطوري الذي دام عشرة قرون" [3]. وبالذات عندما ندرك أن غزو الشعوب الضعيفة، أخذ شكلاً ضارياً في عهد الدولة الرومانية المسيحية، غرباً وشرقاً.

"وفي الحقيقة، يشكل ظهور وانتشار المسيحية واليهودية في الجزيرة

---

(1) د. وسام عبدالعزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من 324 ـ 1025 م، الإسكندرية، مايو 1966، ص 19 ـ 20

(2) د. نبيه العاقل: الإمبراطورية البيزنطية ـ دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري، دار دمشق، دمشق، 1966، ص29 ـ 30.

(3) د. جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1983، ص105 ـ 106.

العربية، من الناحية التجريدية الذهنية، تقدماً ملحوظاً إزاء الوثنية. وهذا ما أكسب الوعي العربي آنذاك أبعاداً جديدة، وقدرة على التجريد، أكثر من أي وقت مضى، ولكن هذا التقدم لم يكن كذلك بالنسبة إلى عملية المعرفة العقلانية للواقع الموضوعي ـ الطبيعي والاجتماعي"[1].

ثانياً

الاحتلال الحبشي الثاني لليمن

525 ـ 575 م

تمكن اليمنيون من طرد الغزاة الأحباش عن المنطقة اليمنية في المرة الأولى، لتعمل على بناء دولة قوية بعد ذلك، غير أن هذه الحال لم تستمر طويلاً، لعودة اليمن إلى الصراعات والحروب الداخلية، خاصة بعد ازدهار طريق التجارة البحرية على المستوى العالمي.

شجع ذلك الدولة الأكسومية، لاستئناف عدوانها المتكرر على المنطقة اليمنية، بقصد إعادتها تحت نفوذها، حيث قام الأحباش بغزوات ست، لم تتجاوز في خمس منها تهامة والسواحل الجنوبية. . .، مما مهد للحبشة وأسيادها الرومان الانتصار المؤقت في الغزوة السادسة والأخيرة، فقد استولت الحبشة في سنة 525م على التهائم والسواحل الجنوبية، وتقدمت إلى صنعاء ومأرب، ولم يستتب لها الأمر، بل ظلت في نضال مع اليمنيين، ولم يمض سبعة وأربعون عاماً إلا وقد ضيق اليمنيون على الحبشة الرقعة والسلطة، وأخرجوها من صنعاء ومعظم الشمال، ولم يبق لها وجود إلا في عدن، والسواحل الجنوبية الشرقية وحضرموت، حتى قضى عليهم التبَّع (سيف بن ذي يزن) سنة 575م[2].

ومن هذا المنطلق يمكننا القول؛ إن الغزو الحبشي لليمن يرجع إلى عوامل اقتصادية ـ سياسية، فقد كانت بيزنطة تسعى إلى السيطرة على الطرق التجارية الموصلة

(1) د. طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، المرحلة الأولى، دار دمشق للطباعة، دمشق، بدون تاريخ، ص198.

(2) عبدالله الشماحي: مرجع سابق، ص58.

لمزيد من التفاصيل حول هذه الحملات الحبشية على اليمن، انظر: عبدالله الثور: هذه هي اليمن، دار العودة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979، ص150 ـ 164.

للمحيط الهندي وبالتالي بسط نفوذها السياسي على العرب المناوئة لأعدائها الفرس. كذلك كانت الحبشة تسعى إلى تأديب الحميريين الذين كانوا يتحرشون بتجارتها في البحر الأحمر، ومن هنا وجد تقارب سياسي بين بيزنطة وأكسوم.

ولا يخفى علينا أيضاً؛ أن العامل الديني كان له اعتباره في هذه المسألة فبيزنطة وأكسوم اتخذتا من اضطهاد الحميريين لنصارى اليمن ـ نجران ـ ذريعة للتدخل باعتبار أن الإمبراطور البيزنطي (جستنيان) كان حامياً للكنيسة الشرقية[1].

على أننا نود أن نشير، إلى أن عدداً من المراجع احتوت على معلومات متناقضة تدل بما لا يدع مجالاً للشك بأنها لا تمتلك رؤية واضحة للاحتلال الحبشي الأول، الذي تم حسب بعض الروايات في القرن الثالث الميلادي، بل والاحتلال الحبشي الثاني والأخير الذي حدث بين عامي 525 ـ 575 م.

وعلى سبيل المثال كتب ضرار صالح ضرار في هذا الخصوص قائلاً:

"وظن الأحباش أن طريق التجارة صار مفتوحاً بين الشرق والغرب، بعد أن هزموا الحميريين، وعادوا بجنودهم إلى الحبشة، ولكن سرعان ما جد الحميريون في احتكار التجارة والطرق، وعاودوا قرصنتهم من جديد، حتى أصبح لزاماً على الأكسوميين أن يعاودوا قتال الحميريين، إذ تأثرت أحوالهم التجارية من جراء فعل الحميريين. فقام (اليسباس) ملك أكسوم بحملة عسكرية واستطاع التغلب على اليمنيين، ثم جعل عليهم حاكماً، لإخضاعهم. وكان ذلك الحاكم هو (اسيمافيوس).

وكان على أسيمافيوس ـ يرجح أن يكون السميفع أشوع اليزني ـ أن يجبر الحميريين على اعتناق المسيحية. وكان الدافع إلى ذلك هو جعل الحميريين خاضعين دينياً وروحياً إلى كنيسة (القسطنطينية)، فيسهل انضمامهم تحت لواء المسيحية، كما كانت النزعة الدينية تشجع على نشر ذلك الدين، ولو نجح (أسيمافيوس) في مهمته تلك لجعل الحميريين من أتباع قيصر الروم سياسيا ودينياً"[2].

ولم يكن ضرار صالح هو الوحيد الذي ينقل إلينا مثل تلك المعلومات

(1) د. سيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص 75، كذلك انظر: د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي، 29.

(2) ضرار صالح ضرار: العرب، من معين إلى الأمويين، الدار السودانية، الخرطوم، بدون تاريخ، ص 23.

المتناقضة، فيحدثنا أيضاً الدكتور عصام الدين عبد الرؤوف بأن " . . . اشتداد الصراع بين المسيحية واليهودية في اليمن، وتعرض (ديمانوس) ـ أحد ملوك حمير اليهود ـ لقوافل التجار الرومان الذين يجتازون اليمن إلى الحبشة، فتخلص الروم والأحباش منه، وولوا بدلاً منه أميراً مسيحياً، ولما توفي أقام اليهود ذي نواس الحميري ملكاً على اليمن، وأدت كثرة التعرض للتجارة إلى مقاطعة التجار لطرقها، خوفاً على حياتهم وأموالهم "[1]، وهذا ما دعا الأحباش يعودون مرة ثانية للمنطقة اليمنية.

ولتفنيد مثل هذه الآراء، وجب علينا أن نشير؛ بأن المؤرخين على اختلاف جنسياتهم وزمنهم، اتفقوا على أن قصة أصحاب الأخدود في نجران القديمة كانت وراء احتلال الأحباش اليمن.

ثالثاً

ذو نواس ونجران القديمة

تميزت مدينة نجران بأنها كانت دولة داخل دولة ـ دولة مدينة ـ بل إن غناها وخصوبتها وكثرة عائداتها، من التعاملات التجارية؛ جعلها تشغل مكانة متميزة بين باقي مدن الدولة اليمنية القديمة.

وبالنظر إلى أن هذه المدينة الدولة؛ ظهرت في ظروف نمت فيها تجارة القوافل، كما نشطت فيها التجارة البحرية، فقد وجدت معاملات نقدية متزايدة وارتبط بها تراكم النقود الذهبية والفضية. وعرفت ببلاد العرب معادن الذهب وفقاً لمصادر التاريخ القديم، أما في العصور الوسطى فيحدثنا عن ذهب بلاد العرب المقدسي، والهمداني، ولقد ولدت المعاملات النقدية الربا، وعاونت على تنشيط عمليات القرض والاستدانة وتنمية الأرباح. وكانت من نتيجة ذلك أن نمت أيضاً الممتلكات الأسرية، ويورد مصدر في سير القديسين وهو " كتاب الحميريين " قولاً مفاده أن ممثلة عشيرة (جو) وهي (رومني) قد منحت النقود كقروض، كما اضطلعت بالكثير من أعمال البر في حق أناس عديدين، وجد من بينهم ملوك وأغنياء وفقراء[2].

---

(1) د. عصام الدين عبد الرؤوف: اليمن في ظل الإسلام ـ منذ فجره وحتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، ط1، 1982، ص 10 ـ 11.

(2) م. ب. بيتروفيسكي: مرجع سابق، ص 178.

ولكن طبيعة التركيب القبلي في مدينة نجران، أدى إلى تقسيم المجتمع إلى بيوت رفيعة وأخرى وضيعة... ولأن الأرستقراطية المحلية قد شغلت وضع السيطرة بالمدينة، فقد أخذت طرفاً في إدارتها، مكونة بهذا زعاماتها الألوجاركية، وكانت مدينة نجران بما في ذلك المنطقة المحيطة بها، والدائرة في ملكها، تمثل وحدة مستقلة لها حكومتها الخاصة، وكانت نموذجاً جيداً للمدينة ـ الدولة ـ أما "الأحرار" و"النبلاء" فقد كانوا أيضاً الطبقة المسيطرة التي تولت إدارة شؤون المدينة[1].

وبالتأكيد لم يكن هناك من شك في أنه ومنذ تنصرت الفئات الفوقية (الأعيان) في المجتمع النجراني، وغيرها من المدن الحميرية، التي نذكر منها على سبيل المثال ظفار، زاد النفوذ البيزنطي والحبشي في اليمن، كما توطدت العلاقات التجارية معهم. وهذا بالضبط ما أخاف (ذو نواس) الذي رأى في هذا النفوذ خطراً سياسياً، ولهذا اتخذ الإجراءات الوقائية ابتداءً بفرز الغرباء القادمين من أقطار أجنبية، وانتهاءً بإعدام الرومانيين والأحباش، وبعض اليمنيين ذوي الارتباط الوثيق ببيزنطة وأكسوم، كما أعدم أيضاً بعض الرهبان المسيحيين.

وواضحٌ جداً أن (ذي نواس) وفي غمرة نضاله ضد خصومه الخارجيين والداخليين حاول نشر اليهودية، وأعلن ضرورة اعتناقها، لكنه لم يكن متشدداً جداً في تطبيق هذا الأمر، وبشكل حازم... ومثال على ذلك إبقاؤه على الديانة الوثنية دون أن تمس، وتثبتها واقعة سماح (ذو نواس) للشاب عبداللّه بدفن من أعدم، وتفسير هذا الأمر كون (عبداللّه عفر) الذي كان من المقربين إليه، ليس لكونه زوجاً لأحدى النسوة المشنوقات، ولكن إضافة لذلك كان وثنياً[2].

وهنا نصل إلى استنتاج مهم، مفاده بأن جزءاً من الطبقة الحاكمة من الأعيان اليمنيين الذين كانت بيزنطة والحبشة، تعتمد عليهم تمكن (ذو نواس) من القضاء عليهم. وهزيمة هؤلاء الأعيان عنت بالتالي القضاء على مصالح ثلاث جهات (بيزنطة، وأكسوم، والأعيان اليمنيين) ولهذا وفي عام 524 م؛ تشكل حلف سياسي وعسكري يتألف من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ بيزنطة ـ، وأكسوم،

(1) بيوتروفسكي: المرجع السابق، ص 174 ـ 175.

(2) ف. بيجو ليفسكايا: الحبشة وحمير وعلاقاتهم المتبادلة بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، المرشد في التاريخ القديم، موسكو، 1948 م، ص89 ـ 90، عن سيف علي مقبل: مرجع سابق، ص 28.

وأعيان العربية الجنوبية (من مسيحيين وغير مسيحيين) من المتضررين من سياسة ذي نواس، ، وكان الغرض من إنشاء هذا الحلف هو القضاء على ذي نواس، واستبدال سياسته المستقلة، بسياسة أخرى موالية للبيزنطيين والأحباش[1].

وعلى هذا الأساس نجد أنه ورغماً عن تطور أنماط العلاقات الاجتماعية، فإن روابط النسب ظلت على حالها، وإن اكتسبت قسمات جديدة، والرقوم ـ النقوش ـ الحميرية بما في ذلك التي وضعها ملوكهم، تشهد بوجود أسر وعشائر كبيرة، ولم تقتصر الأسرة على الأب وأبنائه؛ بل ضمت بالمثل إخوته وبني عمومته، وهناك شواهد على وجود ملكية مشتركة، في آن واحد بين أخوين، أو ملك يرد إلى جانبه أسماء اثنين أو ثلاثة من أبنائه.

والملك الذي اضطهد النصارى، وهو (مسروق ذو نواس) قضى على أسر بأكملها من الأعيان، أي من الأسر (الحرة) التي دخل في تعدادها الأخوة وبنو العمومة. وكانت المناصب الكبرى مثل (الأثنارخات) زعماء القبائل، والكبيرات (أكبارها) تخضع للوراثة[2].

وقد حدث ذلك فقط عندما شعر (ذو نواس) بخطرهم ونزوعهم إلى الاستقلال عن الدولة اليمنية، بتحريض من الأحباش والبيزنطيين.

وقد روى لنا القرآن الكريم قصة أصحاب الأخدود بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[3].

وقد تم تفسير هذه الآيات باعتبارها تحكي حادثة الأخدود في نجران القديمة، ومن هذا المنطلق وعلى ضوء الآيات القرآنية، شرع الأخباريون العرب ينسجون القصص المختلفة حول هذه الحادثة، في وقت دخل فيه المؤرخون المعاصرون هذا الميدان إما ناقلين لهذه الروايات، أو محوّرين لبعض خيوطها بما يتناسب وأهداف تلك الروايات.

وهذا ما يضطرنا إلى الخوض في دراسة بطل قصة الأخدود التي تناقلتها المصادر والمراجع، ولازالت تتناقلها عندما تتطرق لحادثة الأخدود في التاريخ اليمني القديم.

---

(1) ي. م. كابشانوف: أكسوم، موسكو، 1964م، ص 90، عن سيف علي مقبل: مرجع سابق، ص31.

(2) م. ب. بيتروفيسكي: مرجع سابق، ص74.

(3) سورة البروج 85، الآيات 4 ـ 7.

وبطل تلك القصة هو (ذو نواس) الحميري الزعيم الوحيد الذي أُحيط بهالة من الأساطير لم يحظ بها أحد غيره، واسمه هو: (زرعة ذو نواس بن تبان أسعد أبي كرب بن ملكيكرب بن زيد بن عمرو ذا الأذعار)[1]. وذكر نشوان الحميري اسم الملك الحميري بأنه: (ذو نواس الأصغر واسمه زرعة بن عمرو ابن زرعة الأوسط بن حسان الأصغر بن عمرو بن زرعة الأكبر بن عمرو بن تبع الأصغر بن حسان بن الأسعد بن تبع)[2].

ولم ينحصر الخلاف حول اسمه فقط؛ بل امتد ليشمل حياته الدينية، فقد أشارت العديد من الكتابات التاريخية بأن (ذو نواس) كان وثنياً[3]، بينما نصارى نجران هم المؤمنون [4]. وعلى السياق ذاته تشير دراسات أخرى، بأن (ذو نواس) كان يهودياً[5]، وعلى ضوء هذا التباين في وجهات النظر بين الإخباريين حول عقيدة (ذو نواس)، أخذت الدراسات التاريخية المختلفة تجسد هذا التناقض عند تناولها قصة أصحاب الأخدود.

وقد تحدث الأستاذ عمر فروخ بهذا الخصوص قائلاً: ". . ومن المرجح أن (ذو نواس) كان وثنياً، ولم يكن يهودياً كما يزعم الأخباريون، وكان يتحامل على النصارى دون اليهود، لأنه ربط بين انتشار المسيحية في اليمن؛ وازدياد النفوذ البيزنطي والحبشي في بلاده. . . ، أما النصارى الحميريون فقد كانوا ـ وفقاً للرواية الحبشية ـ يرسلون بهداياهم إلى النجاشي، ويدفعون إليه الضرائب. لذا كان من الطبيعي أن لا يسكت ملك حمير على هذا التدخل. ونستنتج مما جاء في القرآن الكريم خاصاً بأصحاب الأخدود؛ أن (ذو نواس) دعا أهل نجران النصارى إلى الرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية، لأن اليهودية والنصرانية المعاصرتين لنزول القرآن كانتا ديانتين سماويتين، ولا مجال لتفضيل أحداهما على الأخرى"[6].

---

(1) الطبري، محمد بن جرير: ـ تاريخ الأمم والملوك ـ المعروف بـ تاريخ الطبري، ج1، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، 1405 ـ 1985، ص376.

(2) نشوان بن سعيد الحميري: ملوك حمير وأقيال اليمن، ص147 ـ 148.

(3) انظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، مطبعة البابي بمصر، 1954، ص 134 ـ 139.

(4) أغناطيوس: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، دمشق، 1966، ص 83.

(5) انظر: وهب بن منبه: التيجان في ملوك حمير، ص 297.

(6) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، ، 1964، ص74. كذلك انظر: د. سيد عبدالعزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص135.

أما الدكتور أحمد فؤاد باشا؛ فقد تحدث عن (ذو نواس) قائلاً: "أنه آخر ملوك حمير، الذي كان يدين بالمسيحية ثم تحول إلى اليهودية في أواخر أيامه، وأخذ يضطهد المسيحيين، ويبيدهم في صناديق أعدّت لإحراقهم"[1].

وعلى النقيض من هذا؛ يوجد رأي آخر يرى بأن: "(ذو نواس) كان على دين اليهودية، فشكى إليه يهود نجران غلبة النصارى، وذلك عندما وقعت بين اليهود والنصارى فتنة في نجران، فنهض (ذو نواس) بالجنود إلى نجران، فحفر الأخدود وأضرم النار فيه، وخيَّر النصارى بين الرجوع عن دينهم أو إحراقهم بالنار)[2].

وعلى ضوء هذا، نستطيع أن نؤكد أن مختلف الآراء التي حاولت التأكيد بأن (ذو نواس) كان وثنياً أو مسيحياً، فإنها أرادت تفسير الآيات القرآنية الكريمة بما يتناسب وتقييمها الخاص، وبهذا يكون الرأي الأقرب إلى الصواب؛ أن (ذو نواس) كان يهودياً متسامحاً مع بقية العبادات الأخرى المنتشرة في المنطقة اليمنية.

واتسم تسامح (ذو نواس) مع الوثنيين والمسيحيين، على أساس سياسته العامة القائمة على التسامح الديني، وحرية الاعتقاد، وهذه السياسة كانت منطقية، وتهدف إلى خلق وحدة وطنية داخلية لا تضر بالسيادة الوطنية ومصالحها. خاصة وأنه كان يرى أمامه أمثلة حية على ذلك، ممثلة بالإمبراطور البيزنطي ونجاشي الحبشة؛ اللذين كانا ـ كما أسلفنا ـ رغم عدم اعتناقهما المسيحية حتى ذلك الحين، لكنهما خاضا حربهما لاحتلال اليمن تحت شعارات الصليب.

ونستدل من ذلك أن (ذو نواس) لم يكن الزعيم الوحيد في ذلك العهد، الذي أنتهج سياسة التسامح الديني، فهناك الزعيم النجاشي والإمبراطور البيزنطي، الذين وضعوا في حسبانهم قضية الوحدة الوطنية في بلدانهم قبل كل شيء، لهذا نظروا "للدين" من زاوية ثانية.

ليس هذا فحسب، بل تشير الكثير من المصادر بأن جيوش (ذو نواس) لم تتحرك باتجاه نجران إلا عندما بلغه عن أهل نجران؛ أنهم أتاهم رجل من آل

(1) د. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ص16.

(2) نشوان بن سعيد الحميري: مصدر سابق، ص 148.

جفنة من غسان، فردهم إلى دين النصرانية؛ بعد أن كانوا على دين اليهودية ـ دين الدولة الرسمي ـ حتى احتفر أخاديد في الأرض وملأها ناراً، فمن تابعه على دينه خلّى عنه، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها. . .[1]، وهذا يدل على مدى تداخل الأساطير في تحليل هذه الوقائع.

ولكن يبدو أن الأرستقراطية النجرانية، التي كانت ترتبط بالأحباش والرومان بصلات قوية، قد ساءها سياسة (ذو نواس) القاضية بمركزة السلطة، واستعادة هيبة الدولة، لهذا أخذت تسعى لتحويل هذه المدينة إلى مركز للمؤامرات الداخلية، بهدف زعزعة الأمن والنظام، وإشاعة الفوضى في ربوع البلاد.

لذا بدأت باستفزاز مشاعر اليهود اليمنيين من أهالي نجران، والتصدي لهم علناً بالظلم والإساءة، مما أجبر يهود اليمن إلى تقديم شكواهم للملك (ذو نواس) الذي سارع إلى نجدتهم، بعد أن قدم إليه يهودي يقال له (دوس) من أهل نجران، فأخبره أن نصارى نجران قتلوا له إبنين ظلماً، واستنصره عليهم، فحمى (ذو نواس) لليهودية، فغزا نجران، فأكثر فيهم القتل[2].

وهناك أسباب أخرى لاضطهاد ـ (ذو نواس) ـ للنصارى؛ منها أن المسيحية في الشرق كانت تحت حماية بيزنطة والحبشة، وانتشارها يعني ازدياد نفوذ هاتين الدولتين في اليمن، مما لا ترضاه القيادة الحميرية. بينما لم يكن يرافق انتشار الديانة اليهودية أي خطر سياسي، لأنه لم تكن هناك دولة تحمي اليهود.

ورغم "قسوة" ذي نواس ـ اليهودي ـ على النصارى، فلا يعرف أنه قسا على الوثنيين اليمنيين، بل ظلت الوثنية قائمة في اليمن حتى ظهور الإسلام، مما قد يستدل منه أيضاً أن قسوته على النصارى؛ لم تكن بدافع العصبية اليهودية، بل بدوافع وطنية، لأن الوثنية أحرى بنقمة اليهودي المتدين من النصرانية[3].

---

(1) وهب بن منبه: كتاب: التيجان في ملوك حمير، تحقيق ونشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1979، ص312.

(2) الطبري: تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص 379.
كما تحدث د. طه حسين بهذا الخصوص قائلاً: . . . لقد استنجد أحد يهود نجران بالحاكم اليهودي ذي نواس؛ بأن النصارى النجرانيين بغوا وطغوا وأسرفوا في البغي والطغيان، حتى أهانوا (التوراة) ونالوا من ذاد عنها بالسوء. حتى قتلوا من اليهود نفراً، وأخافوا من بقي منهم في المدينة، لهذا غضب الملك، وملكه الغيظ. انظر كتابه على هامش السيرة، إصدار وزارة التربية والتعليم بمصر، القاهرة، 1970، ص 115 ـ 116.

(3) د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص 104.

وقد تمثل اضطهاد (ذو نواس) للمسيحيين بحادثة الأخدود في مدينة نجران القديمة، وقد أشارت العديد من الدراسات إلى: "أن الرواة كانوا على اختلاف بينهم في حديثهم عن (أصحاب الأخدود)، وقد أشار العلماء إلى هذا الاختلاف، حيث اختلفوا في زمانهم أيضاً، واكتفى بعضهم بالقول: (كانوا بنجران بين عيسى ومحمد).

وقال بعضهم: إنهم كانوا باليمن قبل مبعث الرسول ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحبيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً، وأحرقهم فيه، بعضهم عدد من قُتل من نصارى نجران عشرين ألفاً، وجعله بعضهم اثني عشر ألفاً، وذكر البعض الآخر أن أصحاب الأخدود سبعين ألفاً"[1].

ليس هذا فحسب؛ بل اختلف الرواة والأخباريون في بطل قصة الأخدود التي حدثت في نجران القديمة، وبهذا الخصوص يؤكد العلامة محمد بن علي الأكوع بأن (ذو نواس)، لم يكن بطل هذه القصة، ولم يكن له حظ فيها ولا نصيب، للأسباب التالية: ـ

1 ـ إن هذه المجزرة الواقعة بالذات في نجران بين اليهودية والنصرانية؛ لم يورد ذكرها اليونان في تواريخهم.

2 ـ إن الخلاف قد دبَّ بين الديانتين ـ اليهودية والمسيحية ـ وتراشقوا بمفتريات ذات بال، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

3 ـ إن (ذو نواس) له قرابة وصهور في "نجران" . . . ومن المحال أن يقدم (ذو نواس) على ارتكاب هذه الجريمة، دون أن يحسب لخؤولته أي حساب. . . خاصة وأن (ذو نواس) كان قد بلغ المرحلة الهزيلة التي تتطلب منه المزيد من استجلاب رضى الناس، وضم شمل قلوبهم، والاستكثار من المعين والناصر، لا سيما خؤولته، لما لهم من السلطان والسيادة، علماً بأن أعداءه يتربصون به، وأنهم على الأبواب لضعف أمره، وتضعضع مملكته التي أوشكت على الانهيار.

(1) انظر: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، ط3، بدون تاريخ، ص ص 259، 351.

4 ـ يذكر كتاب (الشهداء الحميريون) أن بطل معركة نجران يسمى (مسروقاً) وهذا ما يثير الشكوك حول صحة نسبة ذلك إلى الملك (ذو نواس)[1].

كما يؤكد حمزة الأصفهاني بأن ذي نواس لم يكن صاحب الأخدود، ويذكر أن "ذو جدن بن ذو نواس" تولى الملك من بعده[2]، ويلقى مصير أبيه، وقد عثر (ولستد) في حصن الغراب في اليمن؛ على نقش حميري جاء فيه: "إن الأحباش فتحوا أرض حمير وقتلوا ملكها، وأقياله الحميريين والأرحبيين في سنة (640 من التاريخ الحميري) الموافق 525م، فتحصن (السميفع أشوع) وأولاده في حصن (ماوية)[3].

بل إن بعض الأخباريين ذكر اسم ملك من ملوك اليمن سمّوه (مرثداً) زعموا أنه كان آخر الملوك، وزعم قسم منهم أنه حكم مدة قصيرة بعد (ذو نواس).

كما تبين د. جواد علي من بعض المواد الإغريقية والحبشية[4]؛ أن الأحباش كانوا قد نزلوا بأرض حمير قبل قيام ذي نواس بتعذيب نصارى حمير بسنتين، وأنهم انتصروا على ذي نواس، مما اضطره إلى التقهقر إلى المناطق الجبلية للاحتماء بها، وأنهم تركوا في اليمن جيشاً للدفاع عن النصارى وحمايتهم، فلما مات قائد الجيش ونائب الملك؛ انتهز (ذو نواس) هذه الفرصة، فأغار على الجيش، فتمكن منهم، وعذب من وجد في بلاده من النصارى واضطهدهم، كما قام بالإغارة على نجران، وحاصرها مدة طويلة بلغت سبعة أشهر على زعم الرواية الحبشية، فلما طال الحصار؛ عمد (ذو نواس) إلى الخداع والغش، ففاوض النجرانيين على التسليم له، وتعهد إن فتحوا له المدينة؛ لن يتعرض لهم بسوء، فلما صدقوه وفتحوا له المدينة؛ عمل فيهم السيف، فحمل ذلك الحبش على غزو اليمن.

وورد في كتاب (الشهداء الحميريون) ما يفيد بأن الحبش بعد أن نزلوا أرض حمير، عارضهم رجل يقال له (مسروق) وحاربهم وقاومهم، وهاجم

---

(1) انظر: محمد بن علي الأكوع: اليمن الخضراء، مهد الحضارات، مطبعة السعادة، ط1، 1971، ص 411 ـ 415.

(2) حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص 79.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية منذ العصر الجاهلي وحتى سقوط الدولة الأموية، ص78.

(4) د. جواد علي: مرجع سابق، 487.

مدينة " ظفار" عاصمة حمير. كما حاصر (مسروق) مدينة نجران، ولما طال الحصار؛ راسل أهلها على الأمان، فلما فتحوا له مدينتهم، غدر بهم وأحرق بيعتهم، وأحرق خلقاً منهم بالنار ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ وكان بعض قسيسيهم من حيرة النعمان ومن الروم وفارس والحبشة.

فلما تمادى (مسروق) في غيّه، وفي قتل النصارى في نجران وفي غير نجران من مدن اليمن وقراها، سار سيد من سادات القوم أسمه (أوميّة) إلى الحبشة؛ فأخبر مطرانها " ابروبيوس، و"كالب" النجاشي؛ بما حل بنصارى اليمن، فأمر "كالب" جيوشه بغزو اليمن، فغزتها وقضى على (مسروق اليهودي).

وذكر (بركوبيوس) أن الذي حكم حمير بعد مقتل ملكهم؛ هو رجل اسمه (Esimiphaids - Esimiphaeus) اختاره النجاشي من نصارى حمير، ليكون ملكا، على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية، فرضي بذلك وحكم.

غير أن من تبقّى من جنود الحبشة في أرض حمير ثاروا عليه، وحاصروه في قلعة، وعيّنوا مكانه عبداً نصرانياً (أبراهام ـ Abraham) كان مملوكاً في مدينة أدولس (عدول) (Adulis) لتاجر يوناني[1].

فغضب النجاشي وأرسل قوة قوامها (ثلاثة آلاف) لتأديب من انضم إليه، فلمّا وصلت إلى اليمن، والتحقت بالثوار وقتلت قائدها، وهو من ذوي قرابة النجاشي، فغضب (Hellesthcaeus) عندئذ غضباً شديداً، وسير إليه قوة جديدة لم تتمكن من الوقوف أمام أتباع (Abraham) فانهزمت،ولم يفكر النجاشي في إرسال قوة أخرى. فلما مات، صَاَلَحَ (Abraham) خليفته على دفع جزية سنوية. على أن يعترف به نائباً عن الملك في اليمن، فعُيّن نائباً عنه.

فلما جاهر (ذو نواس) بمناصبة النصرانية والحبش والروم العداء، كلفه الحبش والروم ـ أي أبرهة ـ بمهاجمة (ذو نواس). وقدموا له المساعدات المادية، من عون عسكري ومادي، ليستعد بها لتنفيذ مشروعه هذا، وأخذ يشتري القبائل، وفرض نفوذه عليها بالقوة، وبالمال حتى انتهى الأمر، بزوال

(1) تحاول بعض المراجع التأكيد على أن أبرهة تسمية مشتقة من اللهجة اليمنية القديمة، بمعنى أنه ينتمي لأحد القبائل اليمنية التي نزحت إلى الحبشة، لكن هذه الروايات ليس لها أساس من الصحة، ذلك لأن أبرهة جاء إلى اليمن كقائد حبشي، أما خلافه مع أرياط، فقد كان تلبية لمصالحه الذاتية، وطموحه المجنون للسلطة، وهذه بغية الجماهير اليمنية، لذا خاض اليمنيون النضال ضده دون هوادة، حتى تحققت حريتهم من نير هذا الغزو الأجنبي.

ملك (ذو نواس). فعين (السميفع) حاكماً على اليمن، ونائباً عن ملك الحبشة عليها. إلا أن ثورة وقعت فيها قضت على حكمه، فولى الأحباش شخصاً آخر مكانه. وذلك بعد سنة 530 م[1].

وفي عام 510 ـ 515 م، انطلقت جيوش الدولة اليزنية الحميرية بقيادة الملك يوسف أثأر يثأر (ذو نواس) وقضت على دولة ظفار المسيحية، ومن كان باليمن من الأحباش. ودمرت وأحرقت كنيسة ظفار، وفي عام 525 م كان الغزو الحبشي الصليبي لليمن، والذي كان الملك الحبشي (كالب) على رأسه وشارك فيه الرومان مشاركة مادية، وكذلك العالم المسيحي بأسره، ولما نجح ذلك الغزو، وانهزم جيش يوسف أثأر (ذو نواس) [2]. ثم قاد السميفع ذي يزن الحرب والمقاومة، وتمكن في العام نفسه 525 م من القضاء على الغزاة وملكهم، كما سجل ذلك نقش حصن الغراب، واعترفت بها المصادر اليونانية، والتي تسمي السميفع (سيمافيوس). وتذكر أن الحميريين عادوا إلى قطع التجارة البحرية على الرومان.

وفي عام 533م، وقع الغزو الحبشي ـ الصليبي الثاني؛ بقيادة (أرياط) وزميله الأكسومي أبرهة، واستشهد السميفع وهو يصد الغزاة. ولم يتوقف هذا الاختلاف والتناقض في قصة أصحاب الأخدود عند هذه الحدود، بل ويذكر المؤرخون أن قصة أصحاب الأخدود وقعت في أماكن متعددة من العالم، فكانت في اليمن زمان (تبع)، وكانت في القسطنطينية زمن (قسطنطين) وكانت في العراق في أرض بابل في زمن (بخنصَّر) حين صنع الصنم وأمر عزريال وميخائيل فأوقد لهم أتوناً وألقى فيه الحطب والنار.

إن هذه الروايات تثير الشك في أن يعد أهل الأخبار ذا نواس صاحب الأخدود، فقد ذكر الطبري: "أن أصحاب الأخدود هم الكفار الذين فتنوا

---

(1) انظر جواد علي: مصدر سابق، ص 467 ـ 476.

(2) ويذهب التباين والتناقض أبعد من ذلك، عندما يتعلق الأمر بمصير الزعيم الحميري ذو نواس بعد هزيمة قواته أمام الأحباش، ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: ابن هشام: السيرة النبوية على هامش الروض الآنف، ج1، المطبعة الجمالية بمصر، 1914، ص 35 ـ 37، انظر كذلك: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، بغداد، 1964، ص 162. وأيضاً أبو هلال العسكري: الأوائل، تحقيق محمد المصري وآخرون، ج1، بدون تاريخ، ص29. وحول الروايات الحبشية والإغريقية عن هذا الموضوع: انظر: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،ج3، ص471 وما بعدها.

المؤمنين، إذ أن جباراً من عبدة الأوثان أرسل إلى المؤمنين فعرض عليهم الدخول في دينه، فأبوا، فخدَّ لهم الأخدود، وطلب من الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه"، ولم يذكر الطبري في تفسيره ذا نواس، ولا أهل نجران. . .، وفي تفسير الطبري رواية عن ابن عباس (أن أصحاب الأخدود ناس من بني إسرائيل خدّوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم قاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها وزعموا أنه دانيال وأصحابه. ويتفق هذا القول وما أورده (ابن كثير) عن الذي حدث لدانيال وصاحبيه في بابل زمان (بختنصر)[1].

وقد تنبه الباحث الألماني (ججير) أن ثمة تشابهاً بين العبارات التي وردت في قصة تعذيب دانيال في التوراة، وبين ما ورد في سورة البروج، فكما نجد في التوراة سفر دانيال عبارة "آتون نورايا قدتا" أي آتون النار المتقدة، ولفظ قطل أي قتله مستعملا في معنى الإحراق (الإصحاح الثالث، الآية 22). وكذلك نجد في القرآن الكريم التعبير عن آتون النار المتقدة بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، ويعبر عن الإحراق بـ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [سورة البروج الآية 4].

ويقود هذا الشك إلى أحد أمرين، فإما أن نحكم بأن ذا نواس لم يكن يهودياً؛ بل كان وثنياً، وإما أن يكون حافر الأخدود غير ذي نواس[2].

وعلى ضوء هذه الروايات المتناقضة يمكننا القول؛ بأن (ذو نواس) كان يهودياً، ولعب دوراً مهماً في مقاومة الغزو الحبشي للمنطقة اليمنية.

ويبدو أن ألأرستقراطية النجرانية عمدت إلى خيانة الزعيم الحميري، وهذا ما ساهم في إحداث هزيمة حقيقية للجيش اليمني، اضطرت (ذو نواس) لترك عاصمته صنعاء[3]، والاحتماء بالمنطقة الجبلية، من أجل مواصلة نضاله ضد

---

(1) لمزيد من المعلومات حول القصص الخرافية التي صاحبت أصحاب الأخدود، انظر: بلاي فير: تاريخ العربية السعيدة أو اليمن، ترجمة د. سعيد عبد الخير النوبان وآخرون، ط1، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، 1999، ص 63.

(2) فاطمة الصافي: الأخدود ونجران القديمة، نسخة مصورة ليس فيها بيانات أخرى، ص70 ـ 71.

(3) هناك دلائل أن صنعاء كانت مقراً لذي نواس وهو (يوسف أثأر يثأر) آخر ملوك حمير، ورغم أن بعض الروايات العربية تجعل من صنعاء عاصمة للحميريين، وهو قول خاطئ إذ أن ظفار كانت هي العاصمة والآثار والنقوش تثبت ذلك، وباستشراء نفوذ الحبشة قام ذو نواس من خارج العاصمة ظفار ليناوئ الحكم فيها. . .، ويبدو أنه انطلق في حملاته على الأحباش في ظفار ونجران وتهامة من مقرة في صنعاء، وكان ذلك قبل الغزو الحبشي الأخير بنحو سبع سنوات، ولما غزا الأحباش اليمن، وانهزم ذو نواس في سواحل تهامة، واصل الأحباش=

الاحتلال الحبشي، الذي غدا منذ القرن السادس؛ يسيطر على مناطق واسعة بما فيها ظفار، كما أن كثيراً من القبائل اليمنية وخاصة المسيحية وقفت إلى جانبهم..، وقد دخل الملك يوسف أسأر (ذو نواس) وأعوانهم المحليين في حروب طويلة، غير أن الوضع الداخلي لم يكن يسمح له بالتخلص من النفوذ الحبشي. وأكثر من ذلك فإن الأحباش تمكنوا من قتل يوسف أسأر (ذو نواس) ذاته[1].

رابعاً

المقاومة اليمنية
للغزو الحبشي بعد مقتل ذي نواس

تتحدث المصادر العربية عن الإعداد البيزنطي ـ الحبشي للحملة العسكرية الثانية، وأن بيزنطة بأسطولها الحربي ساهمت في نقل جنود الأحباش عبر البحر الأحمر من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية. فقد استخدمت نحو خمس عشرة سفينة من (أيلة) وعشرين من (القلزم) وسبع سفن من (بوتايه) واثنتين من (برنس ـ جنوب الشاطئ المصري المطل على البحر الأحمر) وسبعاً من (فرسان ـ جنوب البحر الأحمر) وتسعاً من (انديكه) أي ما مجموعه ستون سفينة، وكان معظم تلك السفن بيزنطية، وبعضها استؤجر لهذا الغرض من بعض التجار، أما النجاشي فقد

= تقدمهم حتى وصلوا إلى مقر (ذو نواس)، واتخذوا مثله من صنعاء عاصمة لهم، إذ ليس لظفار منذ ذلك الحين شأن يذكر في صفحات التاريخ. (د. يوسف محمد عبدالله: صنعاء المدينة العربية الإسلامية، ص 258.

غير أننا نود أن نشير بأن إحراق المعارضين في الأخاديد، كان قد استخدم في عهد الدولة العربية الإسلامية، وعلى عهد علي بن أبي طالب (على وجه الخصوص، الذي قال عندما أحرق الزنادقة في الأخاديد ما يلي:

لـمـا رأيـت الأمـر أمـراً مـنـكـراً   أجـجـت نـاري ودعـوت قـنـبـراً

د. محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي، دار الوحدة للطباعة والنشر، ص 150

(1) محاضرات في تاريخ اليمن القديم، مدرسة عبدالله باذيب للاشتراكية العلمية، بدون تاريخ، ص10.
وقد أورد الأخ سيف علي مقبل؛ أن امرأة نجرانية (رومه) وهي من أكبر أثرياء نجران، حتى أنها قدمت قرضاً للملك الحميري معد يكرب (12,000) ألف دينار، أرادت أن تنتقم لمقتل زوجها على يد (ذو نواس)، فسخرت كل ثروتها لتحقيق رغبتها تلك، وقد آزرها أعيان نجران وكل المتضررين من حكم (ذو نواس).
انظر: سيف علي مقبل: مرجع سابق، ص 27 ـ 28.

أضاف إلى هذا الأسطول عشرين سفينة، بناها خصيصاً لهذه الحملة[1].

أما عن تحرك الأسطول البيزنطي ـ الحبشي كما يظهر أن قوات الحملة على اليمن نقلت في قافلتين من السفن: تحركت القافلة الأولى بقيادة النجاشي الذي كان قد احتجز سفينة خاصة به، عبرت به باب المندب، ورست عند ساحل اليمن، وكانت سفينة النجاشي أول سفينة بلغته ثم تلتها بقية السفن، وقد سقط اسم الموضع الذي رست السفن فيه، ولعله (مخا)؛ حيث وقعت معارك عديدة بين الجيش الحبشي والحميريين انتصر فيها الأحباش، فأخذوا أسرى وغنائم[2].

وفي السياق ذاته ذكر أبو الحسن المسعودي أن: "الجيش الحبشي تحرك من بلاد ناصع والزيلع ـ وهو ساحل الحبشة ـ إلى بلاد غلافقة من ساحل زبيد من أرض اليمن"[3]، ومهما يكن الأمر، فقد استطاعت القوات الحبشية تحقيق انتصار حاسم، مكنها من حكم المنطقة اليمنية.

وبعد استشهاد (ذو نواس) تولى ابنه (ذو جدن) قيادة النضال بعد أبيه، كان عليه في البداية أن يعمل على تصفية مختلف البؤر التآمرية التي تساعد الأحباش والروم في هذه الحرب. كل هذا أدى بالزعيم الحميري (ذو جدن) إلى أن يقود جيشه إلى منطقة نجران.

وتؤكد مختلف المراجع على أن الحميريين تركوا لهم حرية الاختيار في أن يبقوا على ولائهم لدولة أكسوم والرومان، عن طريق تمسكهم بالنصرانية "أي

---

(1) د. أسمهان سعيد الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية، ص 286.

(2) د. جواد علي: مرجع سابق، ص480.

كما قدم الرومان دعمهم للجيش الحبشي مادياً ومعنوياً، بحيث بعثت الإمبراطورية البيزنطية السفن الكبيرة مليئة بالسلاح والمؤن. انظر: القاضي عبدالله عبدالكريم الجرافي: المقتطف في تاريخ اليمن، ص 46.

ذلك لأن (جستنيان) كان يهتم بسلامة التجارة البحرية مع الهند عبر البحر الأحمر، فحاول أن يقيم علاقات ويقدم دعماً للمملكة الحبشية، التي كانت تعرف باسم أكسوم. (د. نبيه العاقل: الإمبراطورية البيزنطية، ص 71 ـ 72). وذلك حتى يتمكن من كسر الاحتكار الفارسي لتجارة الحرير المهمة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية، وذلك بجعل الأحباش يقومون بشراء الحرير من سيلان، ثم نقله بعد ذلك عبر البحر الأحمر إلى مصر.

انظر: وسام عبدالعزيز فرج: دراسات في تاريخ حضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص 81.

(3) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط8، 1973، ص 78.

المصالح المشتركة"، أو عودتهم للولاء للحكومة الحميرية، وبالتالي المساهمة في المقاومة الشعبية للغزو عن طريق اعتناقهم لدين الدولة الرسمي ـ دين اليهودية ـ وعندما رفضت الأرستقراطية النجرانية تقديم ولائها للسلطة الحميرية، كان ذلك يعني بأن نجران في هذه الظروف العصيبة؛ أصبحت قاعدة حربية تستطيع مناوأة القوات الحميرية، التي أخذت تحاصر مدينة نجران لفترة ليست طويلة، وعندما سقطت هذه المدينة ـ بغض النظر عن الأسباب التي أدت إلى سقوطها[1]، كان على الزعيم الحميري أن يضرب بيد من حديد القوى المعادية للدولة، فكان الأخدود وهو الاختيار العملي الذي اختارته الأرستقراطية النجرانية، تأكيداً على استمرار ولائهم للدولة الأكسومية ـ الرومانية[2].

بيد أننا نود أن نشير بأن الأحباش بشكل عام لم يهبوا دفاعاً عن النصرانية في اليمن القديم، وتعليل كل هذا يكمن في كون الحبشة حاولت احتلال اليمن مراراً وتكراراً لموقعها ومركزها التجاري المهم، فلم تفلح، وعندما تحقق لها حلمها أخيراً، ظنت بأن التجارة والزراعة في اليمن لازالتا كما كانتا عليه قبلاً، لكن الاعتداءات المتكررة على اليمن من قبل الأحباش أنفسهم، والصراع الداخلي المغذى من الأحباش أيضاً؛ كان له إسهام مباشر في انحطاط الزراعة والتجارة[3].

وقد أحدث الاحتلال الحبشي انقساماً بين صفوف الأقيال والأذواء، وأوجد تصدعاً كبيراً في وحدتهم الوطنية، مما جعل كل منهم يلجأ إلى معقله، ويمتنع بحصنه[4]. وفي اعتقادنا؛ لم يكن الاحتلال الحبشي للمنطقة اليمنية مفاجئاً، ودون سابق تخطيط كما ورد في كتب الإخباريين بل كان (دوس ذو ثعلبان) ـ أحد الأعيان المعارضين للسلطة الحميرية ـ على اتفاق مع (السميفع أشوع) الذي ساهم إلى حدٍ كبير ـ من خلال وضعه كأحد الأقيال الأقوياء ـ في

---

(1) حول هذا الموضوع: انظر: الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص 113 ـ 114.

(2) وقد أشار الأكوع؛ إلى أن الذي خلف (ذو نواس) في القيادة هو ذو جدن، وأنه كان سبيله سبيل ذي نواس في إلقاء نفسه في لجة البحر خوفاً من العار... والرأي السائد أن مقاومة اليمنيين استمرت على طول الطريق المؤدية إلى صنعاء، التي نجمها بدأ يتألق كعاصمة للدولة، التي غلب على أمر اليمنيين، ولم يبق في أيديهم غير الخضوع للأمر الواقع والالتجاء إلى الحصون والمعاقل. محمد بن علي الأكوع: مرجع سابق، ص 480.

(3) سيف علي مقبل: حقيقة الصراع اليهودي المسيحي في اليمن القديم، ص18.

(4) أحمد حسين شرف الدين: تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، مطبعة الكيلاني، 1968، ص7.

تحطيم الجبهة الداخلية، بل وكان حصن ماوية يجمع بين جدرانه كل أولئك الطامعين في الاستيلاء على السلطة بمساعدة أكسوم والرومان[1].

خاصة وأن هؤلاء الأقيال خاضوا حروباً ضارية ضد حكومة (ذو نواس وذو جدن) ولم يكن مجيء أرياط وأبرهة إلاّ لتعزيز مواقعهم ومواقع أتباعهم، في وقت نشطوا لاستقطاب المزيد من الأذواء والأقيال إلى صفوفهم.

مما ساهم في انتصار الأحباش، ومن ثم اتخذ النجاشي (الأصباحا) جملة من الإجراءات بهدف تثبيت وتدعيم سيطرته في البلاد؛ وبالدرجة الأولى قدم الدعم لمسيحيي اليمن، ففي كثير من المناطق أعيد بناء الكنائس من جديد، وتم تنصيب كهنة من القساوسة الذين حضروا مع الأحباش. وأصبح الأصباحا هو الأب المسيحي. في وقت خضع فيه سكان اليمن لنظام الإتاوات، وحملت القوات الحبشية معها مغانم هائلة، وأعداداً كثيرة من الأسرى من بينهم خمسون فرداً من الأسرة الحميرية[2].

لكن المقاومة اليمنية لم تستسلم لهذا الواقع المرير، بل راحت تواصل نضالها الشجاع بزعامة أحد الأقيال وهو (مرثد) كما ورد اسمه في النقوش بعد مقتل (ذو جدن)، بل أن مرثداً أطلق على نفسه لقب (ملك) حتى يتمكن من توحيد الصفوف تحت رايته، في ظل الاكتساح الواسع للقوات الأكسومية للمناطق اليمنية.

ثم اتسعت المقاومة لتشمل أطراف أخرى كانت محسوبة على الأحباش، ومن هذا المنطلق كانت هزيمة (ذو نواس وذو جدن) لا تعني بأن اليمن أصبحت مفتوحة أمام الزحف الحبشي، خاصة بعد أن أظهر اليمنيون مقاومة عنيفة، اضطرتهم إلى تعيين (السميفع أشوع) حاكماً على اليمن، ونائباً لملك الحبشة فيها، بهدف احتواء المقاومة اليمنية، وتسخيرها لمصلحتهم[3].

وبهذا الخصوص يذكر د. مصطفى أبو ضيف: "بأن رواية المؤرخ

(1) انظر: الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1960، ص 62 ـ 63.

(2) انظر: أ.ج. لوندن: اليمن إبان القرن السادس الميلادي، الحلقة الثانية ـ حملة الأحباش على اليمن، ترجمة محمد علي البحر، مراجعة د. محمد أحمد علي، الإكليل، العدد1، صنعاء، ربيع 1989، ص 121.

(3) انظر: د. محمد عبدالقادر بافقيه: في العربية السعيدة ـ دراسات تاريخية قصيرة، ج2، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988، ص 193.

البيزنطي (بركوبيوس Procopius) المتوفى نحو 565 م، والمعاصر لأحداث الحملة الحبشية، فتذكر أن الذي حكم اليمن بعد احتلال الحبش رجل من نصارى حمير يدعى (السميفع أشوع) اختاره النجاشي، غير أن جنود الحبشة في اليمن ثاروا عليه وأقاموا بدلا عنه أبرهة، وحاول النجاشي القضاء على ثورته، وحينما توفي صالح أبرهة خلفه على دفع الجزية. . . وكان التقليد منذ الاحتلال الحبشي الأول، أن يجعل على الأصقاع اليمنية الواقعة تحت الاحتلال الحبشي ملكاً صورياً، من متنصري اليمن من الأقيال، ويبدو أن أبرهة الطموح، الذي كان يرى الدنيا شاة من ظفر بها افترسها، ألغى هذا النوع من التقليد، وجعل الملك محصوراً في عائلته وذويه، وقد أثار بتصرفه هذا حقد بعض الأقيال، الذين كانوا يرون في أنفسهم ورثة شرعيين لحكم جزء من اليمن تحت حراب الأحباش[1].

والواقع أن الصراع اليمني الحبشي، كان قد اتخذ من الدين ستاراً له، ذلك لأن كلا من الديانتين ـ اليهودية والمسيحية ـ كانت تعبر بأي شكل لها على أساس أنها صراع بين أيديولوجيتين، رغم تقارب تعاليمهما، لكنهما اختلفتا من حيث القوى المعبرة عنهما في كل جانب على حدة، وذلك لارتباطهما بالسياسة لكلا الطرفين، والقائمة على أساس المصالح المختلفة بينهما، وعليه يمكننا القول أن " الدين " أصبح في ذلك الصراع هو المعبر الحي عن مصالح القوى المتباينة في المنطقة، في الحقل السياسي والاجتماعي.

ولهذا كانت حادثة نجران القديمة، ذريعة مناسبة لتحقيق الأطماع البيزنطية ـ الحبشية في اليمن، عن طريق الأرستقراطية المناهضة لسلطة (ذو نواس)، من أمثال (دوس ثعلبان) والسميفع أشوع وغيرهما، ولتأكيد ما ذهبنا إليه في هذا الخصوص، نقول بأن الصراع الديني الذي دفع البيزنطيين والأحباش لغزو اليمن، كان قد اختفى بعد الاحتلال، بل تنكر الأحباش للأرستقراطية الحميرية التي ساعدته في تثبيت أقدامه على أرض اليمن، مما أدى بهم إلى الانخراط في صفوف المقاومة الشعبية من أجل الاستقلال.

وهنا نود الإشارة إلى أن تحالف هذه الأرستقراطية مع الأحباش كان نابعاً

---

(1) د. جعفر الظفاري: عقدة اللون الأسود ومسألة الوجود الفارسي في اليمن بعد الإسلام، الثقافة الجديدة، العدد 3، عدن، 1974، ص 32.

من أساس البنية الاجتماعية التي ينتمون لها، والتي أملت عليهم تلك المواقف القبلية الطبقية المناهضة لحرية الوطن وسيادته، طالما أن هذا سوف يحقق لهم مصالحهم السياسية والاجتماعية التي يتطلعون إليها.

خامساً

الأحباش في المنطقة اليمنية

كان الاحتلال الحبشي لليمن يهدف في الأساس إلى تحطيم مكانة اليمن الدولية، وتحويل طرق التجارة وخطوطها من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر[1]، وتمكنت تلك الحملة التي سارت تحت ستار "الدين" بحجة حماية مسيحيي نجران، من القضاء النهائي على استقلال اليمن وحريته، بعد أن قضت على تجارته وحضارته...

وبهذا تحول الصراع الفارسي ـ البيزنطي من شمال الجزيرة إلى جنوبها، مستفيدين ـ أي الرومان ـ من تجربتهم السابقة هناك، محاولين قدر الإمكان عدم الزج بقواتهم وجيوشهم في حروب لا يعرف أحد نتائجها، دافعين هذه المرة بأعوانهم وأنصارهم من أهل المنطقة. فأقحم البيزنطيون الأحباش لتحقيق مطامعهم في جنوب الجزيرة، وخاصة بعد فشل حملتهم الأولى بقيادة (أليوس جاليوس) في عهد الإمبراطور (أغسطس) في أواخر القرن الأول قبل الميلاد[2].

ومهما يكن من أمر، فقد سيَّر نجاشي الحبشة حملة بقيادة (أرياط) سنة 525م لمعاقبة الملك اليهودي، وحماية المسيحية، واستولى (أرياط) على ظفار، وتغلب على (ذو نواس)، وقبض على زمام الأمور في اليمن، وانتقم الأحباش

---

(1) انظر: يوري ميخايلوفتش كربيشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسطية المبكرة، ص96.

(2) ثريا منقوش: سليمان فتنة سبأ والخيرات، ص 40.

ويعتقد الأستاذ محمد بن علي الأكوع أن الغزو الحبشي هو سياسي قبل أن يكون دينياً، وأن الدعية الكبير (دوس ذي ثعلبان) كان مضطهداً سياسياً.. بالإضافة إلى غزو ذا نواس أهل نجران كان لأسباب سياسية أيضاً.. إذ أحس بخطر النصرانية وأن ورائها يكمن تقويض عرشه، بعد أن شعر أن هناك خطوط عريضة للمؤامرة تحاك بين الحبشة والقياصرة بواسطة الدين النصراني، ودليل ذلك أنه لما قتل ذي نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم ومن فاز بالفرار بالحبشة وبالقيصر البيزنطي. انظر محمد علي الأكوع: مرجع سابق، ص 411 ـ 412.

لما أصاب إخوانهم في الدين، وتولى القائد (أرياط) حكم اليمن بعهد من النجاشي. وبذلك خضعت اليمن للحكم الحبشي[1].

وتؤكد المصادر التاريخية بما في ذلك الأجنبية التي عاصر أصحابها هذا الحدث، أو جاؤوا بعده، وقد تحدثت بالإجماع بما في ذلك المصادر المتعاطفة دينياً مع الأحباش، عن الأهوال التي أنزلها الأحباش في اليمن، وأهلها، وهذا التدمير الوحشي المروع الذي تقشعر له الأبدان، وتشيب منه الرؤوس، والذي حل على يد الأحباش في مدن اليمن وقراها، وبكل مرافقه وآثاره، ومنشآته، وحتى الينابيع وآبار المياه تم طمرها، أو تغويرها، فضلاً عن حمل الآفات الزراعية من النباتات الضارة والحيوانات المهلكة للزرع، التي حملها الأحباش إلى اليمن[2].

وكان من أولى الثمار السيئة التي جناها أبناء اليمن المكتوين بنيران الاحتلال الأجنبي؛ الدمار الاقتصادي من جراء سرقة خيرات البلد وبعثرة قواه، المنتجة، وانتقال الطرق التجارية إلى شمال الجزيرة وخارجها، إلى بلاد إيران (طريق الحرير البري) مما سارع في إفقار البلاد وهجرة مدن ترى الآن خاوية في مسار الطرق التجارية القديمة[3].

وقد استمر الحكم الحبشي لليمن ما يقارب خمسين عاماً، لكن سنوات الاحتلال الفعلية كانت (49 عاماً) فقط، وعلى الرغم من هذا تحاول بعض المراجع، تحديد فترة الحكم الحبشي بـ (75 عاماً) بينما البعض الآخر يحددها بـ (72 عاماً).. الخ.

ليس هذا فقط، بل اختلف المؤرخون في الفترات التي حكم بها الولاة الأحباش اليمن، وخصوصاً الفترة التي حكم بها أرياط اليمن، وبهذا الخصوص يتحدث الأصفهاني قائلاً: "وكان ملك أرياط عشرون سنة، وملك أبرهة ثلاث وعشرون سنة، وملك يكسوم تسعة عشر سنة، وملك مسروق اثنتي عشر سنة، فهذه أربعٌ وسبعون سنة"[4].

---

(1) د. عصام الدين عبدالرؤوف: مرجع سابق، ص10 ـ 11.

(2) مطهر بن علي الإرياني: ذمار علي وابنه ثاران يعودان إلى صنعاء، ص251. انظر كذلك: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ص927.

(3) حسين قاسم عبدالعزيز: التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام، ص 80.

(4) الأصفهاني، مصدر سابق، ص72.

ويختلف المسعودي مع الأصفهاني بهذا الخصوص قائلا: " أن مسروق ملك ثلاث سنين إلى أن قتله وهرز " انظر: المسعودي: مصدر سابق، ص82.

ومما يؤخذ على مثل هذه الآراء، أن الفترات المذكورة في بعض هذه المصادر؛ تحتوي على مبالغات في رصد السنين التي حكم بها الأحباش اليمن.

خاصة وأن النقوش لم تذكر شيئاً عن الفترة التي حكم فيها أرياط على سبيل المثال، مما يدل دلالة قاطعة بأن أرياط حكم اليمن إبان وجود (السميفع أشوع) في السلطة، وعندما عارض (أبرهة) سياسة الدولة الحبشية بهذا الخصوص، قام بتدبير انقلاب ضد ممثلي السلطة الحبشية في اليمن، وهما (أرياط والسميفع أشوع)، وقد أدى نجاح هذا الانقلاب، إلى انفراد (أبرهة) بالحكم[1].

وهذا ما يجعلنا على يقين بأن الآراء التي حاولت أن تؤكد بأن أبرهة وبعض قواده ثاروا على أرياط، بسبب انحيازه إلى فريق منهم في توزيع الغنائم والعطايا[2]، هي آراء غير دقيقة، الغرض منها تمييع الصراع اليمني الحبشي، وتحويله إلى صراع ثانوي يتعلق بتوزيع الغنائم والعطايا، للأرستقراطية اليمنية دون فقرائها، حتى تستطيع أن تصل في الأخير لتحدثنا بأن اليمنيين كانوا وراء اعتلاء أبرهة كرسي الحكم.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، نقول بأن دراسة النقوش التي يعود تاريخها إلى هذه المرحلة، تسجل لنا ضراوة تلك الانتفاضات الشعبية ضد حكم أبرهة، خاصة بعد أن أصبح أتباع (السميفع أشوع) من أكثر العناصر فعالية في حركة المقاومة الوطنية ضد الوجود الحبشي.

وعليه نستطيع الجزم، أن فترة حكم أرياط لم تستمر سوى سنوات قليلة، أثناء حكم السميفع أشوع فقط، بينما تبدأ فترة حكم أبرهة بالسعي لمصالحة النجاشي الذي صمم على تأديبه، وعندما فشل النجاشي في هذه المهمة، ترك أبرهة يدير شؤون البلاد دون تدخله، وبعد وفاة النجاشي كتب أبرهة إلى خلفه (يعترف بالعبودية، ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته)، فلما وصل ذلك النجاشي، استصوب رأيه، واستحسن عقله، وصفح عنه[3].

وكان أبرهة بتصرفه هذا، قد استطاع أن يمتص نقمة النجاشي عليه، بل

---

(1) انظر: الطبري: مصدر سابق، ج2، ص 128. انظر كذلك: الدينوري: مصدر سابق، ص 62. وأيضاً أ.ج. ز لوندن: اليمن إبان القرن السادس بعد الميلاد، ترجمة محمد علي البحر، الحلقة الثالثة، الإكليل، العدد2، صيف 1989، ص22.

(2) عصام الدين عبدالرؤوف: مرجع سابق، ص 12.

(3) المسعودي: مصدر سابق، ص 78.

ويؤكد على ولائه له، لهذا رضي عنه، وأقره ملكاً على اليمن نيابة عنه[1].

ذلك لأن أبرهة كان يدرك تماماً بان استقلاله بحكم اليمن يجب أن لا يعني قطع الصلات نهائياً مع مركز الدولة الأكسومية، لأن ذلك لن يكون في مصلحته، خاصة بعد أن عقد العزم على إصباغ حكمه بالطابع الوراثي لأبنائه من بعده، فبدأ بدفع الجزية درءاً لعداء النجاشي والإمبراطورية البيزنطية له، وبهذا أصبحت أموال الجزية، الرابط الوحيد بين أبرهة والدولة الأكسومية.

وفي أثناء وجود أبرهة في مأرب، وفدت إليه وفود من النجاشي، ومن ملك الروم، ومن ملك الفرس، ورسل من (المنذر) ومن (الحارث بن جبلة) ومن (أبي كرب بن جبلة) ومن رؤساء القبائل.

ويلاحظ من خلال النقوش أن أبرهة قد قدم النجاشي على ملك الروم، كما قدم ملك الروم على ملك الفرس، ثم ذكر بعد ملك الفرس اسم المنذر والحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة، أما تقديم النجاشي على غيره فأمر لابد منه، وذلك لسيادة الحبشة ولو بالاسم على اليمن، واعتراف أبرهة بسيادة مملكة أكسوم عليه.

وإن إرسال مندوب عن النجاشي إلى أبرهة في مهمة سياسية دليل ضمني على انفراده (أبرهة) في الحكم، والاستقلال في إدارة اليمن، وتفسير ذلك أن أبرهة صار في الحكم ملكاً مستقلاً، يستقبل وفود الدول ويراسلهم، ومنهم وفد من ملك قامت حكومته بغزو اليمن، والاستيلاء عليهم. وأما تقديم ملك الروم على ملك الفرس، فله صلة بالدين والسياسة، بين الحبش والروم واليمن، فللروم الأفضلية، والأسبقية إذن على الفرس[2].

ومن المعلوم أن أبرهة الحبشي أمر أسقف ظفار بسن مجموعة قوانين، وبناء كنيسة في صنعاء بالرخام والفسيفساء بعد أن أرسل إليه قيصر الروم أمهر الصنّاع، ثم كتب إلى النجاشي أنه يريد أن يصرف إليها حجاج العرب، وبذلك تحل محل الكعبة[3]، وعقد الأحباش النيَّة على تغيير البلاد ومزاحمة مكانة

---

(1) د. طه حسين، كتاب إسلاميات، الطبعة الأولى، 1971، ص 260.

(2) د. جواد علي: مرجع سابق، ص 489.

(3) د. حسين مجيب المصري: صلات بين العرب والفرس، ص27. وكذلك انظر: عبدالرحمن عبدالله الحضرمي: صنعاء ـ موقعها في التاريخ العام لليمن، ص132.

ونضيف بهذا الخصوص (بأن اسم الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء (القليس) هو تحريف=

(مكة) الوثنية، ومكة يومئذ مركز الحج في أمصار الشمال، وموارد الحج غنية عن البيان، فهي تعود على أهل المدينة التي يقصدها الزائرون بخيرات طائلة، وترتزق منها أيضاً كل المدن الواقعة على خطوطها.

ويقول فيليب حتّي بهذا الخصوص: "ويخيل لنا أن المشرفين على سياسة البلاد من الأحباش، أفلحوا فيما نووه من إنشاء مزار ديني في الجنوب، تتوارد إليه القبائل، وهو أمر يجلب الضرر على بيت الحجاز، وتحفظ الأخبار ذكر هذه المنافسة الدينية الاقتصادية[1].

بل إن تحليل الأخبار والمواد الخاصة بالشعر الجاهلي والتاريخ العام لغزوات الحميريين في الجزيرة العربية، يتيحان التوصل إلى الاستنتاج أن أبرهة قام فعلا في الستينات ـ السبعينات من القرن السادس الميلادي، بغزوه إلى طريق الطائف ومكة، لكي يجعل الطريق التجاري بين اليمن والحجاز مؤمناً لأجل التجارة، ويحد من منافسة المراكز التجارية الأخرى في شبه الجزيرة العربية. ويحتمل أنه قام بمحاولة لإقامة مملكة بدوية موالية جديدة، على غرار المملكة الكندية ـ مملكة خثعمية أو خزاعية[2].

وعلى هذا الأساس نؤكد بأن المصالح الاقتصادية ـ السياسية، التي كانت وراء احتلال اليمن، كانت وراء سعي الأحباش في السيطرة على الحجاز[3]،

= لاسم كنيسة يونانية (إكليزيا)، وعلى الرغم من تزيينها وإتقان نقشها بالذهب والفضة والزجاج وألوان الأصباغ، وصفوف الجواهر، وجعل فيها خشالة رؤوس كرؤوس الناس، ولونها بألوان الأصباغ، وجعل على خارج القبة برنساً، فإذا كان يوم العيد كشف البرنس فيتلألأ رخامها، مع ألوان الأصباغ، فتكاد تلمع البصر، وكتب على بابها بالمسند. عبدالله الثور: هذه هي اليمن، ص 165.

وقد اختار أبرهة صنعاء لتكون مدينة للقليس، بحكم وضعها كعاصمة لحكمه.

(1) فيليب حتيّ وزملاؤه: مرجع سابق، ص83، وقد اتخذ أبرهة عدة وسائل لمحو اليهودية، حيث شرع الموت لكل مسيحي يزوج ابنته من يهودي، وألزم اليهود تزويج بناتهم من نصارى، يحدوه الأمل في خلق شعب موحد النظرة، متجانس المشرع. د. جعفر الظفاري: مرجع سابق، ص31.

(2) م. ب. بيوتروفسكي: مرجع سابق، ص 83. وفي كتاب السيرة يقول " أن الجيش الذي غزا به أبرهة البيت الحرام كان عدده 60,000 (ستون ألفاً)"، انظر كذلك؛ الجرافي: مصدر سابق، ص47. غير أن هذه الحملة فشلت، وقد خص القرآن الكريم هذه الحادثة بإحدى سوره (سورة الفيل).

(3) على هذا السياق تشير بعض الدراسات أنه ووفقاً للتراث العربي سمي عام حملة أبرهة إلى=

التي انتقل إليها الثقل التجاري، بعد انهيار الدولة اليمنية القديمة. كما كانت الهدف الحقيقي لاهتمام أبرهة بإصلاح سد مأرب، الذي كان قد تصدع بعد أن جند لهذا العمل، عمالا من أهل البلاد، وصرف على ذلك مبالغ طائلة[1].

على أن أهم ما كان يشغل أبرهة في اليمن، هو استقرار حكمه السياسي بأي ثمن، لهذا يؤكد المؤرخون أن السيطرة الحبشية اتسمت بالضراوة والقسوة، وخاصة حكم أبرهة، الذي سام السكان اليهود صنوف الإرهاب والتنكيل[2]. وبموت أبرهة استطاع ابنه (يكسوم) حكم اليمن نحواً من عشرين سنة، أذلَّ خلالها أهل اليمن، وكان شرًا من أبيه، وأخبث سيرة، فلما توفي خلفه أخوه (مسروق) الذي كان يتولى إمارة مخلاف (شناتر) في عهد أبيه، ولعل ذلك كان سبباً في أن يسميه (ثيوفانيس) "سنطرق" وهي لفظة محرفة من "شناتر". . ولم يكن مسروق أرحم من أخيه "يكسوم" بل كان أكثر تعسّفاً منه في معاملة الحميريين، وكان شرّاً من أخيه، وأخبث سيرة، وقد كانت هذه المعاملة السيئة سبباً في نفور أهل اليمن منه، ومن حكم الأحباش، ورغبتهم في التخلص من استبدادهم[3].

لهذا عانى احتلال الحبشة لليمن مصاعب جمة، نظراً لعدم رضوخ القبائل اليمنية للاحتلال الأجنبي الذي لم يألفوه، فكانت القبائل تشن حروباً مستمرة على معسكرات أبرهة، حتى أن ذكر هذه الثورات المستعرة ضد الأحباش ورد في النقش الذي وضعه أبرهة باسمه في سد مأرب[4].

= مكة ب ـ " عام الفيل". وفي هذا العام أيضاً ولد رسول الله (أي عام 570 ـ 571 م، ولكن على الرغم من ذلك يوجد خلافات بين العلماء المسلمين أنفسهم حول هذا الموضوع، إذ يرى البعض من المؤرخين العرب الأوائل مثل المؤرخ محمد الكلبي؛ والذي يرى بأن حملة الفيل حدثت قبل 23 عاماً من مولد الرسول محمد (أي عام 547/ 548م، ويحتوي النقش Ry 506 الذي يتحدث عن حملة أبرهة إلى وسط شبه الجزيرة العربية على التاريخ الدقيق للحملة 662 حميري 547م والمتطابق مع معطيات الكلبي. انظر أ. ج. لوندين: اليمن إبان القرن السادس بعد الميلاد، الحلقة الرابعة، ترجمة محمد علي البحر، مجلة الإكليل، العددان الأول والثاني (20)، (21)، 1990م، ص 21.

(1) د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص 104.

(2) محمد سعيد العطار: التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن ـ أبعاد الثورة اليمنية، سلسلة العالم الثالث، المطبوعات الوطنية الجزائرية، ط1، نوفمبر1965، ص26.

(3) د. السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص88 ـ 89.

(4) ممتاز العارف: مرجع سابق، ص68.

وقد أشار إلى ذلك د. جواد علي بالقول: "لقد عجل الحبش بنهايتهم باليمن، وعملوا بأيديهم على هدم ما أقاموه بأنفسهم من حكومة؛ باعتدائهم على أعراض الناس وأموالهم، وأخذها عنوة.. حتى صاح أهل اليمن وضجروا، فهبّوا يريدون تغيير الحال، وطرد الحبش عن أرضهم، وقد أدى بهم هذا إلى تبديلهم بأناس أعاجم أيضا مثل الروم أو الفرس، إذ عجزوا عن طردهم. فلعل من الحكام الجدد من قد يكون أهون شرّاً من الحبش، وإن كان كلاهما شراً، ولكن إذا كان لابد من أحد الشرَّين؛ فإن أهونهم الخيار ولاشك[1].

وما نود الإشارة إليه هنا أن مختلف الآراء التي حددت بأن اليمنيين عندما طلبوا المعونة العسكرية من الخارج، كانوا على استعداد لاستبدال النفوذ الحبشي بنفوذ آخر، هي آراء غير صحيحة حتى العظم، ذلك لأن سيف بن ذي يزن، والمقاومة الشعبية اليمنية كانت تسعى لتحرير الأرض من نير الاحتلال، وتحرير الشعب من الاضطهاد الحبشي والأجنبي بكل أشكاله[2].

(1) د. جواد علي: مرجع سابق، ص 478.

(2) انظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 1979، ص 16.

الفصل السادس

المقاومة اليمنية للاحتلال الحبشي

*** الحركة الوطنية اليمنية لطرد الأحباش**

أولاً : بروز سيف بن ذي يزن كداعية وطنية .

ثانياً : الدعم الدولي لحركة المقاومة اليمنية .

ثالثاً : اليمن في ظل الحكم الفارسي .

المقاومة اليمنية للاحتلال الحبشي

لقد تمايزت القرى والمدن اليمنية المختلفة؛ بأنها مناطق محاطة بالجبال، لهذا لم تستطع الجيوش الأجنبية اختراق أراضيها لعهد طويل من الزمن.

على أن الدول الكبرى في ذلك الحين "الفرس، والروم، والحبشة" قد اقتنعت بالنفوذ السياسي والاقتصادي في أنحاء شبه الجزيرة العربية، ومن المؤسف حقاً في تاريخنا القديم أن ما عجزت عنه الدول المستعمرة بجيوشها؛ استطاعت الوصول إليه باستخدام عدد من القبائل العربية أو الأسر العربية بالأصح. ولم ينفع العرب بعد ذلك أن طبيعة بلادهم كانت تحول دون اختراق الجيوش، بتخومها الصحراوية المترامية[1]، وعلى الرغم من قوات الأحباش المتدفقة على اليمن فقد استمر من بقي من الأقيال في مناضلتهم ومقاومتهم بعزائم ثابتة، وبسالة عظيمة[2].

وقد حدثت ثورة قام بها يزيد بن كبشت (يزيد بن كبشة) أحد الرؤساء "الأقيال" الحميريين... وكان أبرهة قد أنابه عنه، واستخلفه على قبيلتي كندة وأودا، وانضم إلى يزيد أقيال حميريون هم ذو سحر ومرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف وذو خليل ويزن، بالإضافة إلى القيل "معدي كرب بن سميفع" ولإخماد هذه الثورة؛ سيَّر أبرهة جيشاً هزمه يزيد، واستولى على بعض المواقع، فعزز أبرهة قواته بقوات أخرى من الأحباش والحميريين، ووجهها إلى مواطن الثورة في أودية سبأ وصرواح وعبران، وانتهت الحملة باستسلام يزيد.

ويظهر من النقش الذي خلّفه لنا أبرهة (CIH541) أن ثورة "يزيد بن كبشة" كانت ثورة عنيفة، وأنها شملت حضرموت، وحريب، وذو جدن، وحبات عند صرواح، ولكنها فشلت، وتغلب أبرهة عليها بمساعدة قبائل يمانية ذكرها في النقش.

(1) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص 51 ـ 52.
(2) أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص 156.

أما يزيد بن كبشة فلا نعرف من أمره في الوقت الحاضر سوى شيء يسير وهو ما ذكره أبرهة في النقش عنه، من أنه عينه عاملاً ووكيلاً عنه على قبيلة كدة، وهي كندة على رأي أكثر العلماء.

ومن الأقيال الذين انضموا إليها وساندوها هم: "ذو سحر، ومرة، وثمامة، وحنش، ومرثد، وحنيف، وآل ذو خليل، وذو يزن، ومعد يكرب بن سميفع، هعن، وهعّان وأخوته أبناء أسلم "فهم يمثلون على الجملة الطبقات الأرستقراطية القديمة في سبأ.

أما معد يكرب بن سميفع؛ فيرى الباحثون أنه ابن السميفع أشوع، وقد جاء اسمه بين الأقيال الذين ثاروا على أبرهة، وانضموا إلى ثورة يزيد بن كبشة، وهو من الأقيال الحاقدين على أبرهة، لاغتصاب أبرهة الملك من والده. ولهذا انضم إلى ثورة يزيد بن كبشة سيد كدة ـ كندة ـ، وحارب معه ضد الأحباش[1].

وعلى هذا الأساس يظهر من نقش أبرهة (CIH541) بأن أبرهة عارض بشدة سياسة النجاشي، القائمة على تعيين السميفع أشوع، نائباً له في اليمن، حتى وإن كان السميفع أشوع في الحقيقة عبارة عن برواز جميل للسياسة الحبشية في اليمن، لهذا تمكن من استقطاب عدد من البيوت الأرستقراطية الحميرية إلى جانبه، وقد وافق عدد من الأقيال الحميريين على هذا العرض، بعد أن رأوا السميفع أشوع ينفرد بالسلطة مع (أرياط).

ولكن بانتصار أبرهة على أرياط، في مبارزة علنية، اعتلى أبرهة العرش، وبدأ يفرض سلطته المطلقة على كل شيء، حتى على أولئك الأقيال الذين ناصروه على أرياط، مما ضايقهم، وأخذ التذمر والسخط يملأ قلوبهم، فالتقت كل الأطراف المتضررة من حكم أبرهة، لتعلن ثورتها بقيادة يزيد بن كبشة.

ورغم الهزيمة التي لحقت بالمقاومة اليمنية بزعامة يزيد بن كبشة، إلا أن مدينة مأرب شهدت تحركاً شعبياً، كان يهدف إلى القضاء على الحكم الحبشي، ممثلاً بحاكمه أبرهة، في وقتٍ كان هذا التحرك يعني بأن الشعب لم يهدأ إلا بعد أن يحطم أغلال العبودية، وقد قابل أبرهة هذه الثورة بكل عنف، وقسوة، بل واستطاع أن يحقق نصراً ساحقاً عليها، وفي الواقع كانت المقاومة اليمنية تفتقد إلى التأييد الجماهيري الواسع، بحكم قياداتها الإقطاعية، التي كانت تسعى

(1) انظر د. جواد علي: مرجع سابق، ص 478 ـ 488.

لتحقيق أهداف ذاتية، تكون على شكل امتيازات اقتصادية ـ سياسية في إطار المجتمع[1].

ومن جانب آخر لم يكن هناك أي تنسيق بين مختلف القوى المناوئة للسلطة الحبشية، حيث كانت كل انتفاضة تقوم بمعزل عن بقية الانتفاضات في المناطق الأخرى. مما يؤكد بأن هذه القوى لم تضع أولويات لنضالها، حيث ارتبطت قضية الحرية للوطن، مع مصالح البيوت الأرستقراطية التي اعتقدت كلٌ منها بأنها الوريث الشرعي للأحباش في حكم المنطقة اليمنية.

وعلى الرغم من هذا، لا يمكننا مطلقاً التقليل من أهمية تلك الهبات الشعبية، التي عبرت عن الرفض الشعبي للنفوذ الحبشي. بل ولكونها كانت بداية حقيقية لتصفية هذا النفوذ فيما بعد. كما واجهت الحملة الحبشية، التي ذهبت بغرض هدم "الكعبة" في مكة[2]، مقاومة عنيفة من قبل اليمنيين على طول الحدود بين اليمن ومكة، عندما خرج (ذو نفر الحميري) لملاقاة جيش أبرهة إلى مكة، غير أن أبرهة تمكن من أسره، بعد إيقاع هزيمة ساحقة بقواته، ثم لقيه بعد ذلك (نفيل بن حبيب الخثعمي) الذي تمكن أبرهة من هزيمته هو الآخر.

كما حرص أهالي تهامة بزعامة (عروة بن حياض الملاحي) على الوقوف ضد حكم أبرهة، حيث استطاعت المقاومة الشعبية بزعامة هذا القائد اليمني من أن تحقق في البداية انتصاراً مؤقتاً، عن طريق قتل كبار أعوان أبرهة، من أمثال (محمد بن الخزاعي) نائب أبرهة في (تهامة)، لكن أبرهة تمكن بعد ذلك من سحق هذه الانتفاضة.

وهكذا تمكن أبرهة من القضاء على الانتفاضات الشعبية الواحدة تلو الأخرى، وأن يمهد لأبنائه حكم المنطقة اليمنية تحت مخالب الإرهاب والعنف.

---

(1) انظر: أ.ج. لوندين: اليمن إبان القرن السادس الميلادي، ترجمة محمد علي البحر، مجلة الإكليل، الحلقة الثالثة، العدد2، 1989، صنعاء، ص 26 ـ 28.

(2) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:
البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، ج1، مطبعة دار المعارف بمصر، 1959، ص 68 ـ 71. وأيضاً: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، بيروت، 1965، ص 127 ـ 131. انظر كذلك: يوسف أحمد: المحمل والحج، القاهرة، 1937، ص 77 ـ 79.

الحركة الوطنية اليمنية لطرد الأحباش من اليمن

أخذت الحركة الوطنية اليمنية منذ الاحتلال الحبشي لليمن؛ تتخذ صوراً عدة، جاءت بداياتها الأولى مع بروز زعامات قبلية لعبت أدواراً مهمة في مقارعة الاحتلال، فضلاً عن نشوب هبات شعبية أخرى حاولت تحقيق الاستقلال الناجز لليمن. لكن أبرهة الأشرم استغل فرصة عفوية الحركات الشعبية وعدم توحيد جهودها، من أجل القضاء على الاحتلال، فتمكن من إخضاعها الواحدة تلو الأخرى، مما مكنه من تحقيق انتصار ساحق عليها، ومن ثم استتاب الأمر لسلطته وحكومته.

أولاً

بروز سيف بن ذي يزن كداعية وطنية من أجل تحقيق الدولة اليمنية المستقلة

أدرك اليمنيون بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة على يد جيش أبرهة؛ المنظم والأكثر تسليحاً، عدم جدوى المقاومة العفوية المتفرقة، لهذا بدأ العمل بهدف خلق نواة أولية لنشوء حركة وطنية داخلية، تسعى لتحقيق الاستقلال الوطني، من براثن الاحتلال الحبشي، لكن الظروف الذاتية لم تكن ناضجة في ذلك الوقت، بفعل انهيار الحالة المعنوية لدى الناس، نتيجة لسياسة القمع التي استخدمها الأحباش كأساس لحكمهم اليمن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الهزائم المتلاحقة التي منيت بها، جعلها تفقد الأمل في إمكانية انتصارها على الأحباش.

لهذا كانت الحركة الوطنية بزعامة "سيف بن ذي يزن "[1]، تشعر بأن الجماهير اليمنية تحتاج لبريق أمل يرفع من حالتهم المعنوية، حتى تنطلق تحت قياداتها لطرد الأحباش من اليمن.

---

(1) حول نسبه الملكي، انظر:
الهمداني: الإكليل، ج2، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط3، بيروت، 1986، ص 237.

لذا اتجهت أنظار الحركة الوطنية اليمنية إلى طلب الدعم من الخارج، لكن كان عليها في البدء أن تؤكد للجماهير في الداخل بأن الإمبراطورية البيزنطية كانت وراء دفع الأحباش لاحتلال بلادهم، وما زالت إلى جانبها، تقوي من أزرها، حتى تواصل احتلالها للأراضي اليمنية، وبهذا الخصوص يتحدث د. السيد عبدالعزيز سالم قائلاً". . ظهر زعيم يمني من حمير يقال له (سيف بن ذي يزن) ويكنى ب ـ (أبا مرة)، عزم على تخليص قومه من بطش مسروق، وتحرير بلاده من احتلال الأحباش. . . فركب البحر إلى القسطنطينية، ويقال إنطاكية، وقدم إلى إمبراطور بيزنطة (جستين الثاني) ملتمساً منه العون لتحقيق أمنيته، حتى قيل إنه قام ببابه سبع سنين، لكن طلبه قوبل بالرفض، لما كان بين بيزنطة وحلفائها الحبش من علاقات دينية وسياسية واقتصادية "[1].

لهذا لم يكن أمام (ذي يزن) إلا أن يتوجه إلى الإمبراطورية الفارسية، لطلب العون العسكري منها، بعد أن قوبل بالرفض من بيزنطة، وعليه يمكننا تفنيد الاستنتاج الذي خرج به د. جواد علي عندما قال: ". . لقد يئس سيف بن ذي يزن من كسرى، بعد أن رأى ما رأى من موقفه من أبيه، فذهب إلى ملك الروم، على أمل مساعدته، ومعاونته في طرد الأحباش عن بلاده، حتى وإن أدى ذلك إلى استيلاء الروم على اليمن، فلما خاب ظنه ذهب إلى الفرس فساعدوه "[2].

---

(1) د. السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص88 ـ 89.
(2) د. جواد علي: مرجع سابق، ص 543.
تحدد بعض المصادر أن والد سيف بن ذي يزن مات في فارس وهو يحاول إقناع كسرى بإعطائه دعماً عسكرياً لطرد الأحباش من اليمن، بينما يحدد المسعودي في كتابه (مروج الذهب ـ ص80) بأن سيف بن ذي يزن هو الذي مات على أبواب كسرى، ثم جاء ابنه معدي كرب الذي طرد الأحباش بفضل المعونة العسكرية للفرس.
وما أورده المسعودي بهذا الخصوص لا يتفق والمنطقية التاريخية التي أبرزت لنا سيف بن ذي يزن كبطل وطني، تمكن من طرد الأحباش وتحقيق الاستقلال للمنطقة اليمنية، وبالإضافة إلى أن الأستاذ محمد بن علي الأكوع في كتابه (اليمن الخضراء مهد الحضارة ـ ص407) يحدد بالاستناد إلى الهمداني في كتابه الإكليل ـ الجزء السادس ـ بأن النعمان بن عفير، وهو والد سيف بن ذي يزن كان قد جمع فلول الجيش بعد هزيمة ذي نواس ومن تبعه من أهل اليمن، فقاتل الجيش قتالاً مريراً في معارك عدة منها السحول التي اندحرت فيها قوات الحميريين، وتتبع الحبش آثار الفلول، ثم نشبت معركة في حقل شرعة، وكانت شديدة وشرسة، ولكن توالي الهزائم قد خامرت نفوس اليمنيين فلم يتمكنوا من الصمود طويلاً، وانتصرت الأحباش، واستولوا على جميع سهول اليمن فيما بين صنعاء وعدن دون معاقلها وحصونها. =

خاصة إذا علمنا أن طلب الدعم من الإمبراطورية الفارسية لم يقابل بالرفض على أيام والد سيف بن ذي يزن، وذلك لانشغال الفرس بحربهم ضد الروم، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر لا يعقل مطلقاً أن يسعى الزعماء اليمنيون إلى هذه الدول التي كانت تحتل منطقة واسعة في الشرق، في وقت كانت فيه الرحلات التجارية التي يقوم بها اليمنيون إلى المناطق الواقعة تحت نير الاحتلال الفارسي ـ البيزنطي، تعطيهم فكرة واضحة عن ماهيّة تلك الأنظمة.

بدليل أن كسرى عندما وافق على دعم الحركة التي يقودها سيف بن ذي يزن؛ لم تكن له شروط تعسفية، باستثناء بعض الشروط التي وافق عليها اليمنيون لحمل الإمبراطور الفارسي على تنفيذ وعده بدعم المقاومة الشعبية في اليمن، وهذه الشروط كما حددها الإمبراطور الفارسي تتلخص فيما يلي: في حال انتصار اليمنيين والفرس على الأحباش؛ يحق للفرس المقيمين في اليمن الزواج من النساء اليمنيات[1]، في وقت لا يسمح لليمنيين بالزاوج من النساء الفارسيات، أما الجزية المقرر دفعها للإمبراطورية الفارسية يجب أن يحملها (سيف بن ذي يزن) بنفسه إلى فارس، وهذا بحد ذاته رد كاف على الاستنتاج غير المنطقي للدكتور جواد علي.

ثانياً

الدعم الدولي لحركة المقاومة اليمنية

كانت الحركة الوطنية اليمنية تعرف أن الإمبراطورية الرومانية ـ البيزنطية ـ وراء احتلال الأحباش لليمن، في وقت كانت ظروف الحرب المستعرة بين فارس والروم؛ قد حالت دون تقديم أي دعم خارجي لها.

وعلى أي حال كانت الإمبراطورية البيزنطية متورطة في حرب ضد الفرس منذ أواخر عهد الإمبراطور البيزنطي (جستين الأول) بسبب الخلاف حول مملكة (إيبريا)، التي تقع إلى الشمال الشرقي في آسيا الصغرى، وتشكل دولة حاجزة بين الفرس والبيزنطيين، إلا أن الأوضاع المتوترة بين الإمبراطوريتين أخذت في التغيير في خريف 531 ميلادية عندما توفي الملك الفارسي (كافادس) وخلفه كسرى، الذي أراد أن يتفرغ للمشاكل الداخلية، ولهذا رغب في إنهاء الحرب

= كما يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ـ ص263 ـ بأن ذي يزن هو والد سيف بن ذي يزن وهو الذي مات في فارس، ثم جاء ابنه سيف..

(1) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج1، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص 364 ـ 365.

مع بيزنطة، وعلى هذا وفي ربيع سنة 532 ميلادية، وافق كسرى على توقيع معاهدات سلام دائم مع الإمبراطورية البيزنطية[1].

خاصة بعد نجاح البيزنطيين في نسج علاقات ود وصداقة مع الخاقان التركي الذي كان يحكم التخوم الشرقية لإيران، في وقت عززوا فيه علاقاتهم مع بعض شعوب أواسط آسيا، لكي يحكموا الطوق من صوب الحدود الشمالية الشرقية على الإمبراطورية الساسانية، كما أنهم دعموا الأحباش الذين نجحوا ثانية في احتلال اليمن كما أسلفنا، ووطدوا علاقاتهم بالعرب، وكانوا يقصدون إحكام الطوق الجنوبي الغربي على الدولة الساسانية[2].

لكن هذه الظروف الدولية المعقدة تغيرت عند مقدم سيف بن ذي يزن إلى فارس، التي كانت تعيش حالة استقرار سياسي داخلي، في وقت كانت الجبهة الشرقية مع الإمبراطورية البيزنطية هادئة بعض الشيء، بفعل اتفاقية الهدنة بين الجانبين ما بين 545 ـ 557 م، وهذا ما ساعد سيف بن ذي يزن في الحصول على موافقة الإمبراطورية الفارسية لدعم المقاومة اليمنية.

أما السؤال الذي أخذ يفرض نفسه على معظم الدراسات التاريخية التي اهتمت بتاريخ المنطقة في تلك الحقبة، هو دافع سيف بن ذي يزن لطلب العون من الإمبراطورية الفارسية على وجه الخصوص يمكننا القول بأن الإجابة على مثل هذا التساؤل يكمن في تقييمنا لماهية الروابط العربية الفارسية في تلك الحقبة.

وإذا تطرقنا بعد ذلك إلى العلاقة التي ربطت العرب مع الفرس منذ ما قبل الميلاد، نجد أن (هيرودوت) يذكر أنها علاقة ود وصداقة، وأن العرب لم يخضعوا للفرس، وإنما كانوا حلفاء وأصدقاء لهم، وكانوا يقدمون الهدايا للإمبراطور الفارسي، وذلك ما يجعلنا نظن أن هذه الهدايا؛ إنما كانت تقدم من القوافل التجارية حتى تضمن وصولها سليمة إلى المراكز التجارية الأخرى، التي كانت تسوق فيها بضائعها، وهي مصر والشام، التي كانت في ذلك الوقت تحت الحكم الفارسي[3].

ليس هذا فحسب، بل يذهب د. جلال يحيى أبعد من هذا قائلاً: "في وقت كان الفرس يعتمدون في توسعهم على إعطاء أنفسهم صفة المحررين

---

(1) د. وسام عبدالعزيز فرح: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص 68.

(2) طه باقر وآخرون: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، 1980، ص146.

(3) د. أبو العيون بركات: اليمن وعلاقتها بدول الشرق الأدنى القديم في عصر ما قبل الإسلام، اليمن الجديد، العدد 3، صنعاء، أبريل 1987، ص44.

للشعوب التي حاولوا إخضاعها، فأعادوا الجماعات التي قامت آشور بنقلها من مناطقها، إلى أقاليمها الأصلية، وخلصوا اليهود من الأسر البابلي، فظهروا وكأنهم يعملون للسلم، بعد كل فظائع الآشوريين[1].

وعلى الرغم من ذلك، نعتقد أن من السذاجة القول إن الدعم الفارسي لليمن كان ينطلق من منظور العلاقات الطيبة التي كانت تربط بينها وبين شعوب المنطقة، أو من خلال الرؤية التحررية التي تؤمن بها الإمبراطورية الفارسية تجاه شعوب الشرق. دون الأخذ بعين الاعتبار الأطماع الاقتصادية ـ السياسية التي كانت تسعى جاهدة لتحقيقها في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي[2].

بالإضافة إلى هذا لم يكن سيف بن ذي يزن هو الزعيم الوحيد الذي يستنجد بقوى أجنبية في عهد ما قبل الإسلام، فقد ذهب أمرؤ القيس إلى القسطنطينية يطلب منها الدعم المادي والعسكري لمحاربة أعدائه، وقد أراد سيف بن ذي يزن أن يستعين بالفرس استعانة محددة لتحقيق ما يلي:

1 ـ لمّ شمل القبائل اليمنية، وتوحيدها ضد الغزو الأجنبي الحبشي، وهذا يتم بمعونة القبائل اليمنية بقدوم الفرس ومعهم أبناء ملوك اليمن للمساعدة في طرد الأحباش.

2 ـ إن القبائل الأخرى والتي كانت بعيدة عن مسرح الأحداث حتى ذلك الحين، ستقف إلى جانب المقاومة الوطنية لطرد الأجنبي البغيض.

3 ـ إن مجيء القوات الفارسية المحدودة سيرفع الروح المعنوية لدى اليمنيين، ويزيد ثورتهم اشتعالاً، وعلى العكس من ذلك فإن الروح المعنوية عند الأحباش ستنهار عندما يسمعون بمجيء الفرس[3].

ويتمثل الدعم الفارسي لسيف بن ذي يزن ما بين سبعة آلاف وخمسمائة جندي بينهم ثمانمائة سجين ـ إذا صحت الرواية[4] ـ كانت المحاكم الفارسية قد

---

(1) د. جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 62.

(2) انظر: ميخايلوفتش كربيشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة، ص 96 ـ 97.

(3) خالد محمد القاسمي: مسيرة الوحدة اليمنية في عصورها القديمة، مجلة الثقافة الجديدة، العدد4، عدن، أغسطس 1986، ص 58. كذلك انظر د. محمد عبدالكريم عكاشة: مقاومة الغزو الحبشي لليمن، مجلة الحكمة، العدد ـ 5 ـ ، سبتمبر1971، ص 44 ـ 45.

(4) انظر: ابن قتيبة: المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ط2، 1969، ص 664.

أصدرت بحقهم حكم الإعدام، بتهم مختلفة. وتحدد بعض المصادر أن هؤلاء المساجين الذين ذهبوا إلى اليمن لدعم الحركة الوطنية اليمنية، نقلوا بسفينتين، غرقت إحداهما، ونجت الأخرى. بينما تحدد بعض المصادر الأخرى بأن هؤلاء المساجين تم نقلهم في ثماني سفن؛ غرقت سفينتان منها، بينما وصلت السفن الأخرى إلى السواحل اليمنية. وهناك من يرى بأن سيف بن ذي يزن لم يصحب معه سوى ثلاثمائة سجين فارسي فقط[1].

ومهما يكن من أمر، فإن السفن الفارسية سارت حتى وصلت ساحل حضرموت بموضع يقال له (مثوب)، فنزلوا من السفن، وكان قد أصيب بعضهم في البحر، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعرفوا أنه الموت، وأن لا مفر، ولا وجه يفرون إليه فيجهدون أنفسهم[2]، وعندما سمع اليمنيون بمجيء سيف بن ذي يزن؛ اجتمع أهالي اليمن من مختلف المدن والقرى لمعاضدة قائدهم في حربه الفاصلة مع الأحباش[3].

ويحدثنا الطبري بأن مسروق عندما سمع بخبر سيف واستعداده للحرب (جمع حوله مئة ألف من الحبشة وحمير والأعراب. . .)[4]، ونحن نعتقد بأن المعلومات التي أوردها الطبري بهذا الخصوص لا تمت إلى الواقع بأي صلة، لأن قاعدة عريضة من اليمنيين بمختلف فئاتهم، كانوا متضررين من السياسة العدائية التي انتهجها الأحباش في حكمهم للمنطقة اليمنية، لهذا كانت تتمنى أن تزيح عن كاهلها كابوس الاحتلال الحبشي. وأبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، أن الجيش الفارسي بزعامة وهرز الديلمي الذي اصطحبه سيف بن ذي يزن، تمكن من تحقيق انتصار ساحق على القوات الحبشية التي كان يقودها الملك مسروق الذي قتل في إحدى المعارك[5].

وكتب (وهرز) إلى كسرى يخبره أني قد ملكت للملك اليمن، وهي أرض العرب القديمة التي تكون فيها سلوكهم، وبعث بجواهر وعنبر ومال وعود وعنبر

---

(1) د. حسين مجيب المصري: صلات بين العرب والفرس والترك، ص 25.

(2) المسعودي: مصدر سابق، ص 81.

(3) انظر: نشوان بن سعيد الحميري: مصدر سابق، ص 151. وكذلك الجرافي: مصدر سابق، ص 49.

(4) الطبري: مصدر سابق، ص 388.

(5) انظر: آرثر كريستين: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1957، ص 355 ـ 357.

وزباد ـ وهي جلود لها رائحة طيبة ـ وكتب كسرى يأمره أن يملك سيفاً ويقدم وهرز إلى كسرى[1].

وللحقيقة التاريخية فإن الثورة الوطنية التي كانت موجودة في اليمن هي التي لعبت الدور الأهم في تحرير اليمن من الحكم الحبشي.

فقد وصل سيف بن ذي يزن ومن معه من الفرس إلى اليمن سنة 575 م، حيث التفّت حوله قبائل اليمن وثوارها وزعمائها، وتمكنوا من تفتيت الجيش الحبشي، والقضاء على معظمه،وطرد أعداد منهم خارج البلاد، ومن بقي منهم أصبحوا خدماً لدى زعماء القبائل اليمنية[2].

اعترف اليمنيون بقائدهم سيف بن ذي يزن كزعيم وطني لهم، لهذا تحدثنا بعض كتب الأخباريين؛ بأن وهرز عندما استطلع آراء الناس في سيف بن ذي يزن قالوا: "ملكنا، وابن ملكنا، والقائم بثأرنا" فألبسه وهرز التاج، وسلم الأمر له.

وأعلنت اليمن دولة مستقلة بزعامة سيف بن ذي يزن، وجاءت وفود العرب العديدة إلى اليمن لتهنئة زعيم الدولة الحميرية، وكان أبرز هذه الوفود وفد مكة برئاسة عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ[3]. وقام سيف بن ذي يزن بتشكيل حكومة يمنية، في وقت اعتبرت القوات الفارسية الموجودة في اليمن ـ وهي محدودة العدد كما أسلفنا ـ على أساس أنها قوات صديقة.

بيد أن الفرس بدأوا يتدخلون في شؤون اليمن، مما أغضب ذي يزن ورفاقه، لهذا حاولوا أن يضعوا حدّاً لتسلط الفرس على البلاد، لهذا تم اغتيال سيف بن ذي يزن على يد الفرس[4]، وبمساعدة بعض الأذواء والأقيال، ومنهم

---

(1) الأصفهاني: مصدر سابق، ص 72.

(2) د. محمد عبدالكريم عكاشة: مرجع سابق، ص 45.

ولقد أورد الطبري في مؤلفه الشهير (ص 388) بأن وهرز كان أفضل المسجونين حسباً وبيتا، غير أنه كان ذا سن.. بل أن وهرز عندما أراد أن يحمل إلى الفرس ويشد وتر قوسه أمر بحاجبيه فعصبا له.

وفي الحقيقة تناقضت روايات الإخباريين بخصوص شخصية وهرز ونسبه وسنه، والحقيقة لم يكن وهرز من المسجونين بل كان قائداً عسكرياً محنكاً، ويحظى بثقة البلاط الساساني، بدليل استدعاء كسرى له بعد هزيمة الأحباش، ثم عودته مرة أخرى بعد مقتل سيف بن ذي يزن.

(3) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دائرة المعارف بمصر، 1961، ص 312 ـ 313.

(4) تناقضت روايات الإخباريين العرب المسلمين حول حقيقة القوى التي قادت عملية اغتيال=

فروة بن مسيك المرادي زعيم "مذحج" وأحد أبرز من قاوم سياسة ذي يزن تلك. وشارك مشاركة فعّالة في مؤامرة اغتياله، وقد احتل نتيجة لذلك مكانة مرموقة لدى الحاكم الفارسي في صنعاء، وظلت له هذه المكانة البارزة حتى أن حيين من أحياء صنعاء تم تسميتهما باسمه؛ الأول "حي فروة" والآخر باسم والده "مسيك"[1].

ويؤكد هذا أن استنجاد سيف بن ذي يزن بالفرس، كان على أساس الشروط الآنفة الذكر، فإذا حدث اغتيال الفرس سيف وأقاموا حكمهم في اليمن، فهذا لا يعني مطلقاً أن سيف كان يسعى لتحقيق هذا، وإلا لمَ سعى الفرس لقتله، فضلاً عن ذلك نود أن نشير أن ما حدث كان بفعل الخيانة غير المنتظرة من قبلهم، وليست هذه الحادثة الأولى والأخيرة، بل إننا شهدنا في التاريخ الحديث والمعاصر أن اليمن تطلب الدعم الخارجي لحماية كيانها أمام الاعتداءات الاستعمارية، أو لمناصرتها من أجل استعادة دورها الوطني والقومي، بعد مرحلة طويلة من الظلم والتعسف تحت حكم أسرة آل حميد[2].

وفي الحقيقة كان اغتيال سيف بن ذي يزن، واحتلال الفرس لليمن، خطة محكمة نسجت خيوطها في البلاط الفارسي، إذ أن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقي الناجح، وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال، وما اتصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم، وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة في معالجة الأمور في حدود إمبراطوريته في أثناء مدة حكمه الطويل 531 ـ 579 م التي امتدت من نهر جيحون في وسط آسيا إلى اليمن جنوبي بلاد العرب.. وكذا سورية، ونهبت جيوشه إنطاكية في سنوات متعاقبة 540 ـ 545م، ثم احتلت لازانيا[3].

= سيف بن ذي سيف. حول هذا الموضوع، انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص ص 206، 208.

(1) د. حمود العودي: المجتمع اليمني ـ بحث في التكوين الاجتماعي والاقتصادي في اليمن القديم ومتغيراته المختلفة، دار الهمداني، عدن، بدون تاريخ، ص 75 ـ 76.

(2) انظر: د. فضل علي أحمد أبو غانم: البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغيير، ط1، دار الكاتب العربي، 1985، ص 313. لمزيد من المعلومات، انظر: فاروق عثمان أباظة: الحكم العثماني في اليمن 1872 ـ 1918، دار العودة، بيروت، 1971، ص 19، أيضاً: د. سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538 ـ 1636، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978، ص 146.

(3) انظر: سانت. ل. ب. موسى: مرجع سابق، ص 208 ـ 209.

وقد اختلف المؤرخون في المدة التي حكم بها سيف بن ذي يزن، حيث يذكر البعض أن مدة حكمه في اليمن ما يقرب من خمسة عشر عاماً. وفي الحقيقة لا يمكن الأخذ بهذا الرأي، خاصة وأن الفرس أرادوا من اليمن منذ البداية أن تكون منطقة نفوذ، ومن المؤكد أن سلطة سيف بن ذي يزن لم تستمر أكثر من عام واحد فقط.

ونستخلص من موضوعنا هذا " الحركة الوطنية في اليمن والمساندة الدولية لها؛ بأن الأحباش منذ استقرارهم في الأراضي اليمنية، بدأوا بممارسة الإرهاب النفسي والتصفية الجسدية لكل معارضيهم، خاصة بعد أن نفذوا وصية النجاشي فيما يتعلق (بقتل ثلث الرجال، وسبي ثلث النساء، وإحراق ثلث الأراضي الزراعية) عقب تحقيق الانتصار على القوات الحميرية، وهذا ما تؤكد عليه مختلف المراجع التاريخية.

وفي المقابل كانت الانتفاضات الشعبية تؤدي إلى رد فعل معاكس لدى الأحباش، الذين انتهجوا سياسة تعسفية، بهدف إحكام سيطرتهم على المنطقة، ليس هذا فحسب، بل شجعوا جنودهم على هتك أعراض اليمنيين، ولعل اغتصاب أبرهة الأشرم لزوجة ذي يزن (أبا مرة) أبلغ مثال على هذه السياسة اللّا أخلاقية.

غير أن الأحباش في تلك الآونة، أدركوا أن طريق التجارة تحول إلى الحجاز، التي أصبحت بفضل موقعها الجغرافي، ومكانتها الدينية، محطة ترانزيت لمختلف القوافل، وتمكنوا من إمساك زمام التجارة، وجاب تجارهم مختلف الأصقاع لجني عائدات تجارتهم، مما دفع الأحباش للتفكير في بناء كنيسة في اليمن (القليس)[1] ـ تحريف كلمة إكليزيا اليونانية ـ حتى تكون مزاراً للناس في جزيرة العرب تقصدها مختلف القبائل من جميع الأقطار، وعندما تأكد أبرهة بأن كنيسة (القليس) لم تحظ باهتمام العرب، لوجود البيت الحرام في مكة، والذي تقصده القبائل كل عام، فكروا بغزو مكة عام الفيل (حوالي 570 أو 571 م) كما تحدثنا بذلك كتب الإخباريين[2].

ولكن هذه الحملة فشلت، فحصد الموت كل من شارك في هذه الحملة

(1) انظر: الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، بيروت، 1964، ص89 ـ 91.

(2) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية على هامش الروض الآنف، ج1، المطبعة الجمالية بمصر، 1914، ص 35 ـ 47.

بما فيهم أبرهة، ويحكي لنا القرآن الكريم (في سورة الفيل) تفاصيل ما جرى لهذه الحملة.

وعلى أي حال، اضطر الأحباش منذ عهد (مسروق) إلى ترسيخ نفوذهم في المنطقة اليمنية، بهدف خلق حكومة قادرة على تسيير شؤون المجتمع، بما يتناسب ورغبة القيادة الحبشية، بالإضافة إلى أنهم استحدثوا بعض الفرق العسكرية، سواء من القبائل الموالية لها، أو عن طريق الأحباش أنفسهم، لتضمن عبرها استمرار السيطرة الحبشية على المنطقة.

وعلى الرغم من هذا لم يستطع الأحباش ضبط الأمور في البلاد، لاعتمادهم على العنف في التعامل مع الناس، خاصة ما يتعلق بجباية الضرائب، التي تتزايد بشكل مستمر.

لهذا كان من الطبيعي أن يصرف الأحباش أنظارهم ـ وسط هذه الأجواء ـ عن الواقع الاقتصادي، الذي كان يعيش أسوأ حالاته، بسبب الركود الذي كانت تعانيه البلاد، لذا ترك الكثير من الفلاحين أراضيهم، نتيجة لواقع الظروف المستجدة في المنطقة اليمنية، على أثر هزيمة الجيوش الحبشية في الحجاز ـ كما أسلفنا ـ حيث أهمل خلفاء أبرهة المشروعات الاقتصادية، حتى تلك المشاريع التي لقيت اهتماماً محدوداً من قبله، ونقصد بذلك ترميمه لسد مأرب، الذي تهدم من جديد بعد وفاته، لهذا لم تسجل لنا النقوش بعد عهد أبرهة أي إصلاحات بهذا الخصوص.

ومهما يكن من أمر، فقد غدت اليمن تعيش حالة خانقة في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية، بل كانت إجراءاتهم السياسية تستفز مشاعر الجماهير اليمنية في كل مدينة وقرية، خاصة وأن الأحباش أرادوا من قوانينهم ونظمهم السياسية أن تحل محل تلك الأعراف والتقاليد السائدة منذ تأسيس ممالكهم العظيمة.

خاصة وأنهم أرادوا من مختلف إجراءاتهم بهذا الخصوص؛ مركزة السلطة بأيديهم، حيث تم إخضاع المناطق والقبائل للسلطة المركزية في صنعاء، مما كان يتطلب تعزيز الحاميات العسكرية لتنفيذ هذه السياسية، دون النظر لمشاكل وهموم الناس، مما خلق وبشكل دائم أزمة حادة بين الفريقين، وزاد هذا من حدة الاضطرابات الداخلية، وعمّ البلاد سخط عام، بفعل ضراوة الصراع الطبقي، بين الطبقة التي لا تملك شيئاً، ويقع عليها كل الظلم والاضطهاد، هذا من جهة، وبين الأحباش والأرستقراطية المحلية، التي تمتلك معها مصالح مشتركة من جهة أخرى.

لكن هذا الصراع لم يفرز لنا ثورة اجتماعية، بسبب عدم نضوج الظروف الذاتية في المجتمع ـ انقسام القبائل بين مؤيد ومعارض، انعدام القيادة السياسية أو العسكرية التي ستتحمل عبء قيادة الثورة، لهذا ارتأى (سيف بن ذي يزن) أن الجماهير بحاجة ماسة للدعم والمساندة، لتحرير الناس من قيود الخوف، وبوادر اليأس الكامنة في نفوسهم، وعليه قرر الذهاب إلى البيزنطيين، لا ليكونوا بديلاً عن الأحباش في حكم المنطقة اليمنية، كما يدعي بعض المؤرخين، بل لشرح قضية الشعب اليمني، الذي يعيش في ظروف قهرية، من جراء السياسة التي يطبقها الأحباش في المنطقة، خاصة وأن بيزنطة ادعت بأن دعمها للأحباش ارتكز على أساس الاضطهاد الديني ـ السياسي للمسيحيين في نجران اليمنية.

وفي اعتقادنا أن ذهاب (سيف بن ذي يزن) إلى بيزنطة يخضع لاعتبارات عدة... منها:

1 ـ إن سيف بن ذي يزن كان يريد من خلال زيارته لبيزنطة، أن يعرف مدى قوة التحالف بين الأحباش وبيزنطة، خاصة فيما يتعلق بقضية التحرر الوطني من نير الاحتلال الحبشي في اليمن.

2 ـ كان سيف بن ذي يزن يدرك أن اليمن على أعتاب تغيير جذري، لهذا أراد أن يعرف نية الإمبراطورية البيزنطية إذا ما حدث التغيير، وهل سيقدم البيزنطيون لحماية الحكم الحبشي في اليمن، إذا ما أصبح على حافة الخطر.

3 ـ أراد سيف بن ذي يزن من خلال زيارته إلى بيزنطة في البداية، أن يؤكد لها بأن حركة المقاومة اليمنية التي تسعى لتحقيق استقلالها الوطني، سواء باعتمادهم على أنفسهم أو بدعم خارجي، لا تهدف مطلقاً إلى معاداة البيزنطيين.

4 ـ تحييد الإمبراطورية البيزنطية في الصراع اليمني الحبشي، خاصة وأن استقلالية الأحباش في حكم اليمن، قد ساهم في عزلها إلى حدٍ كبير عن مركز الدولة الأكسومية في الحبشة وحليفتها الإمبراطورية البيزنطية.

في وقت كان (سيف بن ذي يزن) يدرك فيه بأن الفرس لن يقدموا على دعم حركته، إلاّ إذا شعروا بأن بيزنطة لن تسارع لحماية الحكم الحبشي في اليمن. ومن المؤكد أن الفرس تساءلوا عن موقف البيزنطيين، إذا ما تدخلوا إلى جانب اليمنيين، خاصة وأن الأحباش كانوا حلفاءهم الاستراتيجيين، فيؤكد

(سيف بن ذي يزن) عدم وجود إمكانية لتحقيق ذلك، على أساس أن الظروف الدولية لا تسمح لبيزنطة بالتدخل في منطقة جنوب الجزيرة العربية، حتى ولو تعرضت الدولة الحبشية في اليمن لانتفاضة عارمة، تستهدف قيام دولة مستقلة، وعلى صلات ودية مع الإمبراطورية الفارسية.

ونود أن نشير بهذا الخصوص، بأن استنجاد حركة المقاومة اليمنية بزعامة (سيف بن ذي يزن) بالفرس لطرد الأحباش، كان اختياراً لا مفر منه في تلك الظروف العصيبة.

ثالثاً

اليمن في ظل الحكم الفارسي

إن حكم الفرس لليمن، لم يكن حكماً فعلياً واقعياً، فلم يكن ولاتهم يحكمون اليمن كلها، وإنما كان حكمهم اسمياً (صورياً)، يقتصر على صنعاء وما والاها، فضلا عن عدن[1]، أما المواضع الأخرى؛ فكان حكمها لأبناء الملوك من بقايا الأسر المالكة والأقيال والأذواء، ذلك أن أهل كل ناحية ملّكوا عليهم رجلاً من حمير، فكانوا "ملوك الطوائف"[2].

وقد حكم الفرس البلاد مستفيدين من حالة الانقسام والفوضى بين القبائل اليمنية، كما شجعوا الفرس على الهجرة إلى اليمن، وانتشر الفرس في المراكز المزدهرة اقتصادياً في اليمن مثل عدن والجند، وإن كان معظمهم استقر في صنعاء لينعم بحماية الحكومة الفارسية، وقد ضعف الحكم الفارسي في اليمن في عهد (باذان) حيث قامت ثورات عدة بسبب الضرائب، وتطلعِ اليمنيين إلى الخلاص من نير الفرس.

وقد تحدث د. عصام عبدالرؤوف بهذا الخصوص قائلاً: "يتضح لنا من هذا أن البلاد كانت تعيش في تمزق اقتصادي وسياسي وديني وفكري، فصنعاء والبلاد المجاورة لها تخضع للحكم الفارسي، ويتحكم الفرس في مقدرات

(1) لم يتخل الأحباش ومن بعدهم الفرس عن سيطرتهم على عدن حتى أواخر عهدهما، لما لها من أهمية استراتيجية في عالم التجارة خلال العصور القديمة، انظر:
ابن حبيب: المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح د. ايلزة ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ، ص 266 ـ 267.
(2) د. جواد علي: مرجع سابق، ص 530 ـ 531.

البلاد التي يسيطرون عليها، وينهبون ثرواتها، ويحكمون الناس بالظلم والبطش، أما البلاد اليمنية التي لم يمتد إليها نفوذ الفرس فعاشت في ظلم النظام القبلي. وأدى انقسام بلاد اليمن إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة إلى تدهور البلاد اقتصادياً، واختلال الأمن فيها، وتحويلها إلى مسرح للمنازعات القبلية، أو المنازعات بين حكومة صنعاء الفارسية والقبائل المتحالفة معها من ناحية، والقبائل الأخرى من ناحية أخرى، وأدت هذه الفوضى إلى انهيار اجتماعي..، وإلى ثورة تنهي ما يقاسونه من تخلف واضطراب..، وأنهى عهداً من الاستعمار وعهد القبيلة..»[1].

وكسب الفرس كثيراً من ضم اليمن لإمبراطوريتهم لأنهم بذلك أصبحوا يسيطرون على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر، كما سيطروا كذلك على الطريق البري أو طريق الحجاز، ولم يلبث الفرس أن توجوا جهودهم بفتح الشام ومصر سنة 614 م، وأدرك (هرقل) ـ إمبراطور بيزنطة ـ أن الفرس أصبحوا أصحاب السلطان الفعلي على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر، وأنهم خنقوا دولة أكسوم حليفة بيزنطة، ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير سريعاً، إذ تمكن (هرقل) من استرداد سلطانه على الشام ومصر بحملة بحرية واحدة[2].

واستمر حكم الفرس لليمن حتى ظهور الإسلام بين سنة 628 ـ 632م، حيث اعتنق آخر حكام اليمن من الفرس واسمه (باذان) الدين الإسلامي[3]، وقد أورد الطبري قائمة بحكام فارس على المنطقة اليمنية، وأول حاكم للفرس في

(1) د. عصام الدين عبدالرؤوف: مرجع سابق، ص 15 ـ 16.

(2) د. السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق، ص 94 ـ 95.

كان الفرس حتى هذه الأثناء يمارسون عبادة النار ـ الديانة الزرادشتية ـ وإذا كانت عبادة النار قد ظلت الظاهرة المجوسية البادية للعيان، فإن آلهة الخير والشر وأتباعهما قد انقسمت عند المجوس فرقاً وطوائف.

د. رؤوف شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام ـ دراسة في مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية، دار الكتب الحديثة، مطبعة حسان، القاهرة، 1977، ص155.

وفي وقت كانت الديانة البوذية قد نشأت في الهند منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد شيد لها الكثير من الأديرة، وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وجزيرة سيلان، بل أرسل مبعوثاً إلى سوريا ومصر واليونان. انظر: علي أدهم: الهند والغرب، سلسلة اخترنا لك (15)، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص 21.

(3) د. عبدالله باوزير: تاريخ اليمن القديم، ص 25.

اليمن هو (وهرز) ثم جاء من بعده (المرزبان بن وهرز) ثم (باذان)، فلم يزل عليها حتى بعث اللّه محمداً ﷺ[1].

ومن البديهي أن الحروب الأهلية، والغزو الاستعماري الحبشي، والتحرر ثم السيطرة الساسانية، لم يكن من شأنها إلا أن تزيد من تفاقم الأوضاع الاقتصادية للبلاد، وهي وضعية أصبحت متدهورة، لأن انهيار سد مأرب.. خلف عواقب اقتصادية واجتماعية، قلبت أوضاع اليمن رأساً على عقب.

وقد كان من هذه العواقب، الهجرة الجماعية إلى شمال الجزيرة العربية وإلى أفريقيا الشرقية، لأن انقطاع التوازن الزراعي جعل البلاد تواجه المشاكل الغذائية[2]. فانتشر الفقر بين الناس، وعانت القبائل من شبح المجاعة.

وعندما سمع أهل اليمن بنبأ الدين الجديد، الذي بشر به نبي قرشي اسمه محمد ﷺ، سارع الناس بشكل فردي في بادئ الأمر[3]، ثم بصورة جماعية بعد ذلك من كل صوب ومدينة يعلنون اعتناقهم للديانة الإسلامية الجديدة، قبل أن يقوى عودها، ودون إكراه أو خوف، على أمل الخلاص من نير الاحتلال الفارسي، بل وتحسين حياتهم المعيشية ـ الاقتصادية ـ في ظل الدولة العربية الإسلامية.

(1) الطبري: مصدر سابق، ص 391.
(2) محمد سعيد العطار: مرجع سابق، ص 26 ـ 27.
(3) انظر: ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، مطبعة الشعب، القاهرة، بدون تاريخ، ص 367 ـ 369.

خاتمة الباب الأول

نستخلص من موضوعنا: "الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم"؛ ما يلي:

(1) إن الشروط الجغرافية والبيئية في اليمن مثل: وجود الأراضي الخصبة، ووفرة المياه الناتجة عن شق القنوات وإنشاء الخزانات، وإقامة الحواجز والسدود، فضلاً عن تنوع المناخ ـ الذي ساعد على تنوع المحاصيل الزراعية ـ؛ مهدت لنمو أجود أنواع الطيوب (المر، والصمغ، واللبان) ناهيك عن احتكار اليمن للمنتجات الأخرى مثل: البخور والعطور والمنسوجات والسيوف، مما هيأ المنطقة لتلعب دوراً حضارياً متميزاً يتلاءم والتطور الحضاري الإنساني الذي شهدته تلك الحقبة، خاصة وأن التطور التقني في أنظمة طرق الري ورفع منسوب المياه وتوزيعها؛ هيأتها لتكون أرض الجنتين.

(2) كان للموقع الجغرافي لليمن على المستوى الإقليمي من خلال إشرافها على مضيق باب المندب والبحر العربي وخليج عدن، وقربها من شرق إفريقيا، فضلا عن إشرافها على جزيرة سقطرى في المحيط الهندي، وقد جعل ذلك منها البوابة الحضارية الجنوبية لمختلف الشعوب الأخرى، التي كانت تتواصل معها عن طريق العلاقات التجارية.

ومن الثابت لدينا من خلال النقوش والآثار والحفريات المختلفة أن النشاط التجاري في اليمن القديم اتسم بالتأرجح بين القوة والضعف. فقد كانت التجارة تزدهر عندما تكون اليمن موحدة ومستقرة سياسياً، لأنها تتمكن من ضبط الأمور في طرقها التجارية ـ البرية والبحرية ـ ولكن عندما تضعف الدولة نتيجة للحروب والنزاعات الداخلية، أو الاعتداءات الخارجية، تضمحل هيبتها، وتضعف قبضتها على تلك الطرق، مما يترتب عليه اشتداد عضد اللصوص وقطاع الطرق والقراصنة في مختلف الطرق التجارية، فتزداد بذلك مشكلاتها الاجتماعية ـ السياسية لأن الدولة في مثل هذه الظروف غير الآمنة تحرم من العائدات المالية التي كانت تحصل عليها في السابق.

(3) إن التطور الثقافي الحضاري الرفيع المستوى الذي عرفته اليمن، وجد انعكاساً له في التطور اللغوي الذي اعتمدت الكتابة فيه على الخط المسند، مما دفع العديد من علماء اللغات السامية إلى التأكيد بأن اللغة اليمنية القديمة تمثل واحدة من أقدم اللغات السامية إن لم تكن تمثل أصل غالبية اللغات السامية وبعض اللغات الحامية ـ مثل الحبشية. وفي ضوء ذلك لا نبالغ إذا قلنا إن اللغة اليمنية القديمة كانت إحدى اللغات الدولية التي عرفت بها تلك الحقبة، نتيجة للبصمات المطبوعة والواضحة التي تركتها في واقع الحضارات الأخرى مثل الحضارة الفينيقية وغيرها من الحضارات.

(4) كان نظام الحكم في اليمن نظاماً ملكياً وراثياً، يستمد شرعيته من القوى المختلفة في المجتمع، ولعل هذا ما كان يميزه عن باقي الأنظمة، حيث كان الملك لا يقرر أمراً في الشؤون الداخلية، أو ما يتعلق بأمور الحرب والسلام، إلا بمشورة المجالس النيابية (المسود) ـ القبلية والمدنية ـ التي كانت تساعده في تسيير شؤون الدولة، لما لها من مكانة رفيعة في إطار السلطة الحاكمة.

(5) كانت المعتقدات اليمنية القديمة لدى الممالك اليمنية، تجسد واقع الحياة السياسية فيها. فقد أكدت النقوش والآثار أن تعدد الآلهة كان انعكاساً لتعدد مراكز القوى في الدولة اليمنية القديمة، كما تسود في إطار الدولة الموحدة والقوية عبادة الإله الواحد، الجدير بالملاحظة في هذا السياق أن نظام المكارب في اليمن جاء ليجسد تمسك الملوك بالآلهة باعتبارها تحمي عروشهم، وتهيئ لهم سبل النصر على أعدائهم. وفي ضوء هذا اتسم سلوك المكارب بالإيمان الراسخ بالآلهة والمعتقدات ـ أسوة بالشعوب الأخرى ـ لما يعتقدون بأن لها تأثيراً قويًا في حياة الإنسان.

ومن هنا كانت نظرتهم للآلهة على أنها مصدر كل شيء في حياة الإنسان. لكن هذه المفاهيم أخذت تتغير بعد ذلك، حيث يوضح نقش النصر بأن السلطة الملكية منذ عهد كرب إل وتر؛ قد فصلت السلطة السياسية عن الدينية. التي كان يمثلها المكرّب، فلم يعد الملك هو القائم بالمهام الدينية (الكاهن الأعلى في الدولة) وخاضع لمشيئة المعابد أو الآلهة، بل صار السيد المطاع بين قومه وقادته. وإن كانت النقوش والآثار تحدثنا بعد ذلك؛ أن بعض الملوك ظلوا يعتقدون أن الانتصار في الحرب ـ على سبيل المثال ـ لايمكن أن يتحقق إلا إذا

منحها الإله للملك، لأنه أراده له. لذلك كان الملك بعد تحقيق الانتصارات يسعى لشكر الإله الذي نصره، ووفقه في أعماله عن طريق تقديم القرابين ومن ثم استقطاع جزء من الأراضي الزراعية، فضلا عن جزء من الأسلاب والغنائم التي حصل عليها لمصلحة المعبد.

(6) كانت المظاهر الاجتماعية في اليمن تشير إلى انقسام المجتمع اليمني إلى طبقتين أساسيتين هما: الطبقة الأرستقراطية التي تضم الأعيان والوجهاء وكبار رجالات الدولة، وكبار قيادة الجيش. بينما تضم طبقة الأحرار فئات عدة مثل الفلاحين والجنود، والتجار والصناع وغيرها من الفئات. وكان اختلال التوازن الاجتماعي بين هذه الفئات يؤدي غالباً إلى استشراء مظاهر التمرد والعصيان ضد الدولة، مما ساهم في تفككها، ووقوعها تحت سلطة القبائل، أو القوى المعادية لها. خاصة وأن النقوش والآثار تؤكد لنا بأن الملوك والطبقة الأرستقراطية وكذا الكهنة، الذين كانوا يمتلكون أراضيَ شاسعة، كان استثمارها لصالحهم يتم عن طريق تسخير شريحة واسعة من الشعب للعمل فيها، ويلاحظ هنا أن البدايات الأولى للهجرة إلى مختلف المناطق وخاصة شرق أفريقيا، كانت غالباً ما تتم في فترة الاضطرابات السياسية.

(7) كان الملك يعتمد في تثبيت أركان حكمه على الأقيال والأذواء، الذين أسهموا من خلال جيوشهم وقبائلهم في الحفاظ على الحكم وتدعيم سلطته الملكية. ومن أجل ضمان ولائهم، كان الملك يعمل على استرضائهم، من خلال إقطاع قادته مساحات واسعة من الأراضي الخصبة، فضلا عن منحهم المناصب الإدارية الحساسة في الدولة. وعلى الرغم من الدور الإيجابي الذي لعبته هذه الطبقة في تدعيم هيبة السلطة الملكية وإعلاء مكانتها في المجتمع إبّان قوة الدولة، إلا أنها كانت تستغل مظاهر الضعف عند الملوك لتسهم في ضعضعة الدولة وإنهاكها، للإنفراد بحقوق السيادة على مناطقهم، ومن ثم الاستقلال الكامل بها، بعيداً عن أي تدخل من قبل الدولة.

(8) كان التطور الحضاري باليمن يجد انعكاسه في الإرث الثقافي القديم، فقد استخدم ملوكها الألقاب الملكية التي جسدت واقع الحياة السياسية فيها مثل "مكرب، ملك، قيل".

وكدليل على التطور الحضاري الذي شهدته اليمن في تاريخها القديم،

استخدامهم الخط المسند في تدوين كتاباتهم ورسائلهم، بل وفي صياغة قوانينهم بالنقش على الأحجار، في المعابد أو في أسوار المدن أو في الأسواق. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن التطور الحضاري في اليمن ارتقى إلى أعلى مستوياته بعد تحقيق وحدته الوطنية، مع تطور اللقب الملكي (ملك سبأ وذي ريدان).

(9) ومن المظاهر الحضارية التي عرفت بها اليمن أيضاً، فن المعمار الذي اتسم بالتنوع. فقد كانت المباني الهندسية الرائعة الجمال والإتقان؛ تعكس الأهداف التي أقيمت من أجلها، سواء كانت دينية أو مدنية أو عسكرية.

كما اعتمد اليمنيون القدماء في إقامة منشآتهم المعمارية على مواد البناء التي تشمل الطين والأخشاب والأحجار الرخامية وكذا الأحجار الكريمة والجرانيت والمرمر، فضلاً عن الأوتاد المعدنية والنحاس الذي يستخدم بعد صهره.

بينما جاءت الرسومات على شكل صور للمناظر الطبيعية التي تمثل النباتات والحيوانات، لتعكس واقع الجمال في ذهن الإنسان المتحضر في اليمن. ولعل هذا يفسر قدرة الإنسان اليمني في الإبداع في فن العمارة، التي برزت بصورة واضحة في بناء المعابد والأسوار والسدود.

(10) كانت اليمن بحكم موقعها الجغرافي المهم، الذي يتوسط قارات العالم القديم، فضلاً عن سيطرتها على تجارة الطيوب والذهب والفضة والنحاس والعطور والبخور والتوابل بأنواعها، وكذا البرود والسيوف وغيرها. مما لفت أنظار الإمبراطوريات القديمة؛ التي سعت جاهدة لاحتلال اليمن منذ حملة (أليوس جاليوس) عام 24ق.م.

وكانت الاستراتيجية اليمنية من أجل مواجهة تلك الأخطار؛ تختلف من حقبة لأخرى. ففي الوقت الذي كانت مملكة سبأ تؤمن فيه بأن بقاء اليمن قوية وتتمتع بالسيادة على الشعوب الأخرى، لابد من الاهتمام بتحقيق السمو الثقافي والازدهار التجاري، بينما كانت الدولة الحميرية تعتقد أن بقاء مكانة وهيبة اليمن على الساحة الإقليمية؛ تعتمدان على قوة الجيوش ومدى تسليحها، فضلاً عن الأساطيل البحرية التي يمكنها الإشراف على الطرق التجارية في خطوط مواصلاتها مع الدول الأخرى.

(11) تشير النقوش والآثار والحفريات المختلفة، إلى أن تحقيق الوحدة الوطنية في اليمن في عهد ملوك سبأ، قد كلفها تضحيات بشرية كبيرة، فضلاً عن

ذلك أدت السياسات المتباينة لدى ملوك تلك الحقبة تجاه قضية الوحدة، حيث نظر البعض إليها باعتبارها حروباً لاستعادة وحدة الأرض والإنسان، بينما نظر إليها البعض الآخر باعتبارها حروبَ فتح لإخضاع الممالك الأخرى وفرض الجزية عليها، الأمر الذي كان يؤدي في الغالب إلى تنشيط المقاومة القبلية ضد الدولة، بهدف استعادة مكانتها في المجتمع وفي إطار أروقة السلطة الحاكمة، وكانت عندما تتمكن من بناء قوتها تهاجم المراكز السياسية والعسكرية للدولة، ومن أجل إزاحة سلطان الدولة عن مناطقها.

ومن هذا المنطلق كانت المقاومة القبلية للدولة غالباً ما تؤدي إلى ضعف الحكومة المركزية، وبالتالي سقوط الدولة اليمنية القديمة، خاصة إذا عرفنا أن الأسوار العظيمة والمحصنة التي كانت تحيط بالمدن لحمايتها من أخطار الحروب الخارجية، وتسجل كثير من النقوش أن تهدم تلك الأسوار كان نتيجة للصراعات العنيفة التي كانت تشهدها المنطقة بين أطراف قبلية والدولة، أو بين الممالك اليمنية فيما بينها، أكثر من الحروب أو الصراع الذي استهدف غزو اليمن من قبل القوى الخارجية.

(12) إن الاحتلال الحبشي لليمن عام 525 م، لم يخضع لاعتبارات دينية؛ بل جاء باعتباره يمثل إحدى حلقات التآمر ضد اليمن. وأبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص أن مؤتمر السلام الذي عقد بين بيزنطة وفارس في الرملة (جنوب شرق الحيرة) عام 524 م، أتاح لبيزنطة فرصة دعم الحملة الحبشية بقيادة أرياط لاحتلال اليمن. وقد أكدت الأحداث المتلاحقة بعد ذلك، أن الاحتلال الحبشي لليمن لم يتم بهدف إبعاد الظلم عن المسيحيين فيها، بل جاء لاستعباد شعبها ونهب ثرواتها، واستغلال موقعها الاستراتيجي المهم لإخضاع شمال شبه الجزيرة العربية، وهدم الكعبة، وتحويل أنظار الحجيج إلى كنيسة القليس التي أقامها أبرهة في صنعاء.

الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن الحملة الحبشية على اليمن وما ترتب عليها من نتائج؛ تجد انعكاساً لها في الحملة الفارسية على مصر التي تمت في عام 525 ق. م، فقد تمكنت الإمبراطورية الفارسية بعد معركة "بلوزيوم" من احتلالها الأول لمصر الذي استمر مابين 525 ـ 404 ق. م، بينما جاءت السيطرة الفارسية الثانية لمصر ما بين 341 ـ 332 ق. م. وعندما تمكنت مصر من إزاحة النفوذ الفارسي وقعت في قبضة الإسكندر المقدوني عام 334 ق. م، وكما مثل

الاحتلال الحبشي الثاني نهاية التاريخ الحضاري لليمن القديم؛ كان الاحتلال الفارسي الثاني لمصر؛ خاتمة للتاريخ الفرعوني، خاصة بعد أن تمكن البطالمة من الاستقلال بحكم مصر لحقبة طويلة من الزمن. ليس هذا فحسب، بل إن الحاكم الفارسي لمصر وهو "قمبيز" الذي حكم مصر ما بين 525 ـ 522 ق. م حاول توسيع رقعة نفوذه في المناطق المجاورة، إلا أن محاولاته تلك باءت بالفشل. ودفع قمبيز ـ أسوة بأبرهة ـ حياته ثمناً لذلك.

(13) أخيراً، كانت الحضارة اليمنية بكل مظاهرها عربية أصيلة، على عكس الحضارات الأخرى في المنطقة مثل الحضارة الفرعونية التي تأثرت بالمقومات الحضارية اليونانية والرومانية، والحضارة التدمرية التي كانت خليطاً من عناصر سورية وفارسية ويونانية. ومن هذا المنطلق كان البناء الهندسي الرفيع المستوى للسدود والقصور والأسوار والمعابد والمدن... الخ، يمثل ذروة الثقافة التي يمثلها الشعب العربي في اليمن.

وتأسيساً على ذلك، يمكننا القول إن الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم، هي هوية عربية خالصة ذات أبعاد وطنية لم تهزمها الحروب، ولم تنل منها الاعتداءات الخارجية عليها.

الهوية السياسية والحضارية

لليمن في التاريخ القديم وعصر الإسلام

دراسة في تطور الهوية السياسية
والحضارية في اليمن منذ العصور القديمة
وحتى أواخر العصور الوسطى

د. صادق عبده علي قائد

الجزء الثاني

SANA'A 2004
صنعاء عاصمة للثقافة العربية 2004
Sana'a 2004 the arab cultural capital
إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

الباب الثاني

الهوية السياسية والحضارية لليمن في عصر الإسلام

الفصل الأول: شبه الجزيرة العربية بين الجاهلية والإسلام.

الفصل الثاني: حركة الردة في اليمن في صدر الإسلام.

الفصل الثالث: المنطقة اليمنية في عهد الفتوحات الإسلامية.

خاتمة الباب:

الفصل الأول

شبه الجزيرة العربية
بين الجاهلية والإسلام

أولاً: أوضاع العرب في الجاهلية وموقف الإسلام منها :

أ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية عند العرب قبل الإسلام .

ب ـ مظاهر الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام .

ج ـ موقف الإسلام من حياة العرب في الجاهلية .

ثانياً: اليمن في عهد الإسلام .

ثالثاً: الفرس في ظل الإسلام .

شبه الجزيرة العربية بين الجاهلية والإسلام

يطلق العصر الجاهلي على الفترة التي سبقت قيام البعثة أو هجرة النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وهو اسم أطلقه القرآن الكريم على تلك الحقبة من الزمن، وأطلقها المؤرخون على كل ما كان سائداً في بلاد العرب قبل الإسلام. وقد غلب أو ساد في المجتمع الجاهلي التنازع، والتقاتل، والعداوة، والثأر، والتعاون على الإثم والعدوان، ووأد البنات والنجدة وإلى غير ذلك من سمات كانت سائدة في بلاد العرب قبل الإسلام، وهي سمات تدل على الجهل الذي هو ضد الحلم لا على الجهل الذي هو ضد العلم. فمن المعروف أن العرب كانوا على قدر مقبول من المعرفة والعلم، وعلى دراية خاصة ببعض المعارف؛ التي دعتهم حاجتهم لمعرفتها كمعرفتهم لبعض أمور الطب، والفلك، واقتفاء الأثر وغير ذلك من أمور حضارية، وربما لا تقل ـ في بعض النواحي ـ عن حضارة معاصريهم من الروم والفرس[1].

وهذا يفسّر نزول الوحي وظهور رسالة محمد ﷺ باللسان العربي، ومن ثم ظهور الإسلام على أنقاض العلاقات القبلية الجاهلية، التي كانت تعيش في ظلها شبه الجزيرة العربية، وكادت تهدد حياتها بعد أن أصبحت الإمبراطوريات العظمى في ذلك العهد ـ روما وفارس ـ تفكر كل منها في السيطرة على هذه المنطقة المهمة في العالم القديم. خاصة وأن الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة كان يقع تحت براثن الاحتلال الحبشي. في وقت كان الصراع والتنافس بين الفرس والروم على دول التخوم مثل مملكة الأنباط والبتراء ومملكة تدمر ثم الغساسنة والمناذرة ومملكة كندة، قد وصل إلى الذروة، بعد أن أصبحت هذه الدول؛ تقع في إطار خارطة هاتين الإمبراطوريتين[2].

---

(1) د. محمد احمد زيود: تاريخ العرب والإسلام ـ منذ ما قبل الإسلام وحتى القرن السابع الهجري، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1997م، ص 9 ـ 10.

(2) حول هذا الموضوع، انظر:

جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة، بدون تاريخ، ص 209 ـ 211.

ولعل هذا ما جعل سكان مكة يشعرون بخطرهم سياسياً واقتصادياً، الذي تجسد في غزو أبرهة الحبشي لمكة في عام الفيل بدعم من الإمبراطورية الرومانية، لاستكمال سيطرتها على الطرق التجارية، حتى تستطيع تشكيل سدّ منيع يحول دون تحركات الفرس في هذه المنطقة، وما كان على الإمبراطورية الفارسية أن تقف مكتوفة الأيدي، بل عملت على مد يد المساعدة للثورة اليمنية التي تزعمها سيف بن ذي يزن، حتى تستطيع النفاذ إلى قلب الجزيرة، ومن ثم إخضاع المنطقة كلها لنفوذها. غير أن القبائل تمكنت من هزيمة الفرس في موقعة ذي قار سنة 609م[1].

أولاً

أوضاع العرب في الجاهلية وموقف الإسلام منها

من المعروف أن علاقات تجارية ـ اقتصادية متطورة ربطت بين شمال الجزيرة وجنوبها، ولعل أبرز معالم هذا الاتصال يتمثل في رحلة الشتاء والصيف، التي جنى منها الجانبان أرباحا كبيرة. لكن هذه العلاقة تغيرت بانطواء اليمن تحت لواء الدولة العربية الإسلامية حيث أصبحت اليمن جزءاً مهما في إطار إمبراطورية إسلامية عظيمة، تخضع لسياستها العامة في مختلف مجالات الحياة، بل وعلى كافة الأصعدة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافيا.

أ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية عند العرب قبل الإسلام:

إن أهم ما كانت تتمايز به الجزيرة العربية آنذاك هو أن مظاهر الحياة الطبيعية تنعكس في مظاهر الحياة الاجتماعية، فهناك دائما هذا الأسلوب من

(1) تكمن قيمة معركة ذي قار في تاريخ العرب أن العرب قد تجرؤوا لأول مرة في تاريخهم على لقاء الفرس في معركة مفتوحة (لا في غارة). أن العرب قد حاربوا لأول مرة أمة غير أمتهم وكان في عدد من قبائل العرب شيء من الوعي جمعهم على هدف واحد، ومع أن عددا من قبائل العرب أصر على الوقوف إلى جانب الفرس (كتغلب مثلا) فان الاتجاه العام كان نحو توحيد الجهود. وسنرى هذا التوحيد للجهود تماما حينما يبدأ الإسلام بالانتشار بين القبائل. وقد دلت هذه المعركة على صحة القيمة العصبية أن الأمة الفتيه (التي لم تهزم بالترف) تستطيع (ولو كانت قليلة العدد والعدة) أن تتغلب على أمة كانت (كثيرة العدد والعدة) إذا كانت تلك الأمة قد ضعفت عصبيتها بالمنافسة والترف. انظر: د. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت، 1964، ص 145.

العيش الرعوي حيث ينبت المرعى وتسام الإبل، وهذا الأسلوب من العيش الزراعي حيث تفلح الأرض وتلقى البذور، وبالتالي هناك هذا الأسلوب من التنقل إلى الاستقرار.. من حياة البادية إلى حياة الحضر، وهكذا. وكلا اللونين من الحياة الاجتماعية يعكس لوناً من النظام الاقتصادي، فهناك اقتصاد الرعي واقتصاد الزراعة، وهناك إلى جانب ذلك اقتصاد تجاري أتاحه مركز الجزيرة من العالم القديم.

إنّ كلّاً من مظاهر الحياة الاجتماعية ـ السياسية تعبر عن هذه الوحدة المتنوعة وتمثلها، فالأسواق المتنقلة على مدار السنة تمضي، إلى جانب المدن الثابتة في الأطراف، وكذا الحياة القبلية في الهضبة الداخلية، إلى جانب الملكيات والإمارات في السواحل[1].

وفي ظل هذه الأوضاع كانت العصبية القبلية تحكم جوانب حياة المجتمع في الجزيرة العربية[2]، حيث نشبت بدافع العصبية القبلية حروب كثيرة بين القبائل المختلفة، ومن أشهر تلك الحروب، حرب البسوس، التي قال مؤرخو العرب إنها دامت أربعين عاماً، وكانت هذه الحرب بين قبيلة بكر بن وائل وتغلب بن وائل وهما أبناء عمومة[3].

وهناك أيضا حرب داحس والغبراء والتي يقال إنها دامت أربعين سنة أيضاً بين عبس وذبيان، وكان سبب القتال رهانا بين رؤساء الحيين على فرسين تلاحيا فترة من الزمن؛ يدّعي كل منهما بأن فرسه السابق، وانتهى التلاحي؛ بمعارك دامية بين الفريقين[4].

وعلى الرغم من ذلك تشير الكثير من الدراسات، أن أيام العرب في الجاهلية تعتبر مصدراً خصباً من مصادر التاريخ العربي، وينبوعاً من ينابيع

(1) ـ شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1952، ص ص 16 ـ 17.

(2) د. ريجنس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، القاهرة، بدون تاريخ، ص 25.

(3) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983 ص ص 187 ـ 193.

(4) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، القاهرة، 1343هـ ص 168 ـ 187. ولمزيد من المعلومات، انظر: محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية ـ، ج1، بيروت، 1969، ص 11 ـ 16.

الأدب، فهي توضح شيئاً من الصلات التي كانت قائمة بين العرب القحطانيين والعدنانين، وأن خلاف ما بين العدنانيين أنفسهم كان من أسباب النزاع، بل أنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب بعد الإسلام من حروب نشبت بين القبائل، ووقائع بين البطون والأفخاذ والعشائر[1].

والواقع أن المجتمع العربي قبل الإسلام لم يكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت، ولم تكن القبائل تعيش في هذا التحاجز والتباعد، ولم يكن يظلها هذا اللون من الحياة الانطوائية الضيقة الذي تصوره لنا كتب التاريخ أو توحي به إلينا كتب الأنساب، وإنما كان هناك دائما حركة متجددة تسوق هذه القبائل وتقارب بينها، تصل بينها بالنسب وتصل بينها بالحلف.. فلم تكن كل قبيلة موجة متميزة عما عداها منفصلة عما حولها.. وإنما كانت القبائل متصلة متداخلة.. تتخذ شكلاً معيناً حتى يعرض لها من ضرورات الصلة ومصالح الجوار ومؤالفة المجتمع ما يضطرها أن تندمج أو تنصهر في قالب جديد، ولا تكاد تتميز في السمات أو الاسم أو المكان حتى يعرض لها ما يعرض لهذا المجتمع المتحرك، فتتغاير السمات وتختلف الأسماء ويتباين المكان[2].

لذا كان طبيعياً أن يضع العرب في مطلع القرن السابع مفهوم "القبيلة" في مركز الصدارة من تفكيرهم السياسي، إذ لم يكن لدى غالبية العرب هيئة سياسية أخرى غير القبيلة[3]. وإذا وجد في مكة ما يشبه المجلس (الملأ) فهو قد لا يختلف كثيراً عن المجلس القبلي للشيخ باستثناء أنه لم يكن هناك قائد واحد للدولة في مكة بل زعماء قبائل متساوون في منزلتهم. وفضلا عن ذلك فالقليل فقط من تجار مكة كانت لهم صلات بالإدارات الإقليمية البيزنطية والفارسية أو بالقضاء الحبشي. والصلات في الحالتين الأولى والثانية تتصف بضيقها وسطحيتها، فلم تزود المكيين بفكرة جلية عن كيفية عمل تلك المؤسسات الحكومية، وحتى لو اكتسبوا فهما معقولا عنها لتعسّر عليهم نقلها إلى أقرانهم العرب، قليلي الأنصار[4].

---

(1) محمد احمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ص2.

(2) شكري فيصل: مرجع سابق، ص 22 ـ 23.

(3) حول هذا الموضوع، انظر:

سبتينو موسكاتي: الحضارة السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، 1986، ص 55.

(4) منتغمري وات: الفكر السياسي الإسلامي ـ المفاهيم الأساسية ـ، ترجمة صبحي حديدي، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت، 1981، ص 85.

وعلى الرغم من هذا، امتازت مكة بخصائص متميزة، فمكة وإن كانت مجتمعاً مستقراً حضرياً، وأهله أهل مدر في الغالب، غير أنها لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم، لأن الحياة فيها مبنية على أساس العصبية: فالمدينة مقسمة إلى شعاب، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة، تحكمها الأسر وبين هذه الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ ـ " وهذا ما حاربه الإسلام، وقد بقي مع ذلك متحكماً في النفوس حتى اليوم، لا في مكة وحدها، بل في العالم العربي كله، نزاع بين بني هاشم وبين أمية على الرئاسة في مكة قبل الإِسلام، ثم على الرئاسة والزعامة في الإسلام[1].

وعلى الصعيد ذاته جاءت التصورات العقائدية تعكس واقع القوى الاجتماعية المتشرذمة والمقسمة في إطار المجتمع الجاهلي. حيث كانت كل قبيلة تتخذ لها آلهة خاصة بها، سواء كانت عبادات طوطمية ـ "عبادة الحيوانات" ـ، او عبادات فلكية قوامها ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة، أو عبادات وثنية مثل الأحجار والأشجار، التي كانت عبادتها تتم في أماكن خاصة بها، عرفت باسم بيوت الآلهة. فضلا عن عبادة الأصنام التي جسدتها أشهر المعبودات الصنمية مثل هبل واللآت والعزى[2].

ليس هذا فحسب، بل نستطيع القول إن الحياة الدينية المتحنفة جاءت على حساب الحياة الوثنية المتأخرة، حيث ظهرت قُبيل الإسلام حركة جديدة تضم جماعة من عقلاء العرب، سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان، ولم يجنحوا إلى اليهودية أو إلى النصرانية وإنما قالوا بوحدانية اللّه، ويعرف هؤلاء بالأحناف أو الحنفاء أو المتحنفين، واللفظة جمع حنيف (صفة إبراهيم عليه السلام) الواردة في القرآن الكريم[3].

ولم تكن الحنفية ديناً جديداً كالنصرانية واليهودية والإسلام، إنما كانت مجرد حركة دينية وصف دعاتها بالحنفاء، ومن أشهر المتحنفين قيس بن ساعدة الإيادي، وزبيد بن عمر بن نفيل، وأمية بن أبى الصلت، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو بكر الحميري، وورقة بن نوفل القرشي، وزهير بن أبي

---

(1) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون تاريخ، ص 360 ـ 399.

(2) عرفت شبه الجزيرة العربية بكثرة معبوداتها من الأصنام، حول هذا الموضوع، انظر: الزبيدي: تاج العروس، ج2، المطبعة الخيرية بمصر، القاهرة، 1306هـ، ص 263 ـ 265.

(3) انظر: ابن الكلبي: الأصنام، تحقيق احمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924، ص 47.

سلمى، وكعب بن لؤي بن غالب، وعثمان بن الحارث، وقد كان معظم هؤلاء نساكاً تشككوا في عبادة الأصنام وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح. . . واعتقدوا بالوحدانية للّه خالصة، ولقد كان لهذه الأفكار أعظم الأثر في تقويض الوثنية في شبه الجزيرة العربية[1].

ولعل هذا ما دفع الكثير من الدراسات للإشارة بان الحنفية والإسلام دين واحد ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿**وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين**﴾[2]. فضلا عما يروى عن الرسول ﷺ في هذا المعنى قوله: "**لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحاء**"[3]، وفي ضوء هذا يؤكد: د. أحمد هبّو "على أن الحنيفية هي دين إبراهيم وملته، وأن الإسلام جاء بهذا الدين وأظهره للناس ثانية"، ليس هذا فحسب، بل يذهب أبعد من هذا قائلا: "بان حديث الإخباريين الذين يذكرون أن الجاهليين جميعاً كانوا على دين إبراهيم، موحدين لا يشركون باللّه أحدا حتى جاءهم عمرو بن لحي الخزاعي بالأصنام وطلب منهم عبادتها فكان أول من نصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة. . ، فلاقت دعوته استجابة من أكثر العرب، وقل عدد من حافظ على دين إبراهيم فلم يبق منهم إلاً عدد محدود في كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية"، ويستطرد د. أحمد هبو قائلاً: "ويتبين من مطالعة أخبار الحنفاء أنهم كانوا مثقفي عصرهم، فهم يقرأون الكتب ويعقدون المناقشات، ويتصلون بأتباع الديانات السماوية من يهود ونصارى، وكان بعضهم يلم بلغات أجنبية كالسريانية والعبرية تتيح لهم الإطلاع على علم الآخرين، ويسترسل سبل تثقيف النفس"[4].

---

(1) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ج1، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 122 ـ 165. انظر كذلك: د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص 434 ـ 435.

(2) سورة آل عمران، الآية 67.

(3) احمد بن حنبل: المسند، ج4، المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 116.

(4) د. أحمد أرحيم هبو: تاريخ العرب قبل الإسلام (السياسي والحضاري)، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1996م، ص 307 ـ 308. انظر كذلك:

ابن كثير: السيرة النبوية، ج1، ص 122، 165.

هكذا استمرت بلاد العرب وقبائلها في الجاهلية، ولمدة قرون ستة سبقت البعثة، تشكل قبائل يكتنفها الغموض. والمعلومات عن هذه القبائل قليلة، مع تعاطيهم الأعمال التجارية مع الشام ومصر وغيرها، وكان بعض أبناء القبائل العربية يمارسون الجندية كمرتزقة في الجيشين البيزنطي والفارسي، وكان يسيطر على هذا المجتمع النظام القبلي القائم أكثره على عمليات السلب أو النهب وغزو بعضهم بعضا، ولم تقم في الجزيرة العربية دولة توحدهم، ولا قوة عسكرية واحدة تعمل لحمايتهم، ولا فكرة سياسية عامة تجذبهم نحوها، بل كان جل ما يقال عنهم أنهم أصحاب شعر وأرباب خيال، وغزو وتجارة، لا أصحاب سياسة أو سلام واستقرار، ولم يعتمدوا على فكرة دينية واحدة تدعم وحدتهم وتجمع صفوفهم وتشد من تنظيمهم.

واستمر العرب كذلك يسيرون في فراغ سياسي وفكري، وكانوا بأمسّ الحاجة إلى فكرة سامية تجمع شملهم، وتوحد إمكاناتهم، وتفجر طاقاتهم الكبيرة باعتبارهم أهل صبر وأناة وتحمل للمخاطر، وفيهم الشجاعة واحترام للعهود والنجدة والمروءة، وحب الحرية، وعشق الشرف والسؤدد، والتمرن على الترحال والتنقل، وعدم التذمر من حياة التقشف وضنك العيش، والتطلع إلى النهوض والمجد حتى جاءهم رسول من قومهم مبشراً ونذيراً، يدعوهم إلى عبادة اللّه، وجمع شملهم، وشكل منهم نواة دولة قوية وأمة موحدة[1].

ونستدل من ذلك أن العصبية القبلية كانت من أكثر الآفات الاجتماعية، التي عانت منها الدولة العربية الإسلامية، لهذا حارب الإسلام العصبية، ودعا لتكوين أسرة واحدة هي أسرة الإسلام، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر، وكان الرسول ﷺ عدواً للعصبية يهاجمها بعنف كلما ظهرت، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلت تظهر كلما أتيحت لها فرصة، وكان الكثير من العرب يرون في الإسلام؛ وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش، فلما مات الرسول ﷺ وظهر للعرب أن قريشا أخذت السلطة ولن تدعها، قويت هذه الحركات واشتدت، فظهر في كثير من القبائل من ادعى النبوة وأيده قومه باسم العصبية، مع أنه كان واضحاً لهم كذبه وبهتانه[2].

(1) انظر: د. محمد احمد زيود: تاريخ العرب والإسلام، ص 10 ـ 24.

(2) د. احمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1970، ص 278.

ب ـ مظاهر الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام:

وفيما يتعلق بمظاهر الحياة الاقتصادية فقد أصبحت مكة في القرن السادس الميلادي من أكبر الأسواق التجارية العالمية بفضل ما كان العرب يجدون من أمن وسلم في الأشهر الحرم.

وهناك من الدلائل ما يؤكد بان مكة كانت مركزاً تجارياً منذ قديم الزمن وهذا المركز أسهم في جعلها منزل للآلهة، وكعبة يحج إليها أبناء القبائل المتاخمة، ويتخذونها سوقاً يتبادلون فيه السلع ويتاجرون بمختلف الأساليب المعروفة آنذاك[1].

فضلا عن ذلك كانت الأسواق التي تقام في غير مكة كذي المجاز وعكاظ، وبدر[2]، أثر عظيم في التراث الأدبي الذي خلفه عرب الجاهلية. ففي هذه الأسواق كان الشعراء يلقون قصائدهم، والخطباء نثرهم، والكهان مواعظهم، والنقاد آراءهم حتى وصل إلينا التراث العربي القديم، وكانت روائع القصائد تعلق على الكعبة، وعرفت بالمعلقات.

هكذا كانت قريش تؤمن بالسلم، وحاجة البلاد العربية إلى أمن داخلي حتى تروج تجارتها ويغنى تجارها، ويزداد ثراء أفرادها. وكانت تحاول أن تبسط نفوذها السياسي كما بسطت نفوذها الديني والأدبي فعمدت إلى عقد محالفات مع قبائل عدة ممن جاورها حتى تزداد قوتها غير أنها لم تبلغ بعد الطور الذي يجعلها تؤلف دولة موحدة في كل البلاد حتى يعم الأمن والسلام[3].

وعلى الرغم من ذلك جاء الإسلام يدعو إلى عبادة اللّه سبحانه وتعالى، ويفرض تصوراً جديدا للّه والكون والإنسان والحياة يتناقض مع التصور الجاهلي لها. وفي ضوء هذا جاء التشريع الإسلامي ليعرف الناس على حدود اللّه في شتى مناحي الحياة. خاصة وان العلاقات التجارية في مكة كانت قد بلغت مرحلة الاحتكار، فكان التاجر يشتري كل المعروض من سلعة معينة فيحتكرها، ويحدد السعر الذي يراه.. وهذا مما حاربه الإسلام.

---

(1) انظر: سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، 1937، ص 242 ـ 245.

(2) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ح5، بيروت، 1968، ص 267.

(3) ضرار صالح ضرار: العرب، من معين إلى الأمويين، الدار السودانية، الخرطوم، بدون تاريخ، ص 34.

وإلى جانب ذلك كانت في مكة أعمال مصرفية واسعة النطاق. إذ كان توظيف المال عملية سائدة عن طريق القروض بالفائدة وبضمانات مختلفة كان بعضها يصل إلى رهن الزوجة أو الولد. وكانت هناك فوائد بسيطة وفوائد مركبة.

وبلغت هذه الأعمال المصرفية درجة من التوسع حتى أن كبار التجار، كانوا يتعاملون فيها جميعا. وسوف تعجب إذا علمنا أن العباس بن عبدالمطلب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان، فضلا عن أبي سفيان بن حرب وغيرهم كانوا من كبار المتعاملين في الأعمال المصرفية(1).

خصوصاً وأن هذا النمو خلق طبقة ثرية، لم تكتف بغنائها المالي فحسب بل بدأت تمد سواعدها الأخطبوطية لتسيطر على مصادر الثروة الطبيعية العامة ـ الآبار والمراعي المشاعية(2).

وقد كان هناك إلى جانب هذا الثراء الشديد، فقر شديد، ففي الوقت الذي كانت تحمل فيه عير أبي سفيان بن حرب سلعاً بخمسين ألف دينار، كانت المجاعة تلتهم أعداداً طائلة من أبناء قريش، ويذكر المؤرخون كيف أن هاشماً عندما حلت المجاعة سافر وأحضر خبزاً وسمناً وإبلاً، فهشم الخبز وعجنه بالسمن ونحر الإبل وأطعم المعدمين في مائدة هائلة يتحدث عنها المؤرخون حتى الآن، ويشتقون من هشمه للخبز تسميته الهاشم(3)، ومع أن مكة كانت سوقاً دائمة.. إلاّ أن البطالة كانت شاسعة لقلة حاجة التجارة إلى الأيدي العاملة، ولهذا انتشرت الصعلكة حيث ينشق المعدم عن القبيلة ويكمن للقوافل فينقضّ عليها ويستولي على ما فيها(4).

لهذا كان لا بد للرسول ﷺ الذي أخذ يدعو للتغيير في البنية الاجتماعية السياسية، من أن يصطدم بهذه الفئة. لذا نجد التجار الكبار والمرابين في مكة وكان أبو لهب، عمّ الرسول ﷺ واحدا منهم ـ يحسون بعمق متزايد وبحقد متأجج إزاء خطر الرسول ﷺ وأتباعه ضد مصالحهم الاجتماعية ـ الاقتصادية

(1) احمد عياش صالح: اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، 1979، ص22.

(2) د. أميل توما: الحركات الاجتماعية في الإسلام، بيروت، بدون تاريخ، ص 27.

(3) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 143.

(4) احمد عياش صالح: مرجع سابق، ص26.

والسياسية والحقوقية والدينية.. ذلك لأننا لو استنطقنا المسألة علمياً عبر واقعها الاجتماعي والتاريخي العياني؛ فإننا سوف نصل إلى اليقين بأن الملأ الملكي كافح ورفض فكرة (الإله الواحد) ورأى فيها خطراً محدقاً لأنه انطلق بالدرجة الأولى، من الدفاع عن مصالحه وامتيازاته الاجتماعية والمالية.

فقد وجد في مكة فعلا عدة مئات من الآلهة والأصنام الصغيرة، كانت تدر عليهم، بشكل دوري ومنتظم، أموالاً طائلة من قبل العرب الوافدين إلى مكة لزيارة هذه الآلهة والأضداد، وتقديم الصلوات والهدايا والقرابين لها، إن هذا يكشف بوضوح عن الطابع الاجتماعي الايجابي للحركة الإسلامية[1].

ويعطينا موسم الحج أكبر دليل على مكانة البيت الحرام وسدنته في نفوس العرب، ولئن عجزت قريش عن فرض سيادتها السياسية على الجزيرة وقبائلها فإنها نجحت في أن تجمع أكثر سكان الجزيرة تحت دين وثني واحد، وقبل كل هؤلاء أن يجعل من البيت الذي بناه إبراهيم مركزاً دينياً مقدساً يلتفوا حوله مرة كل عام[2].

ج ـ موقف الإسلام من حياة العرب في الجاهلية:

في هذه الأوضاع التي عاش في ظلها العرب في العصر الجاهلي، في مختلف مناحي حياتها اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، كان ظهور الإسلام ضرورة حتمية من أجل إعادة صياغة الأوضاع من جديد. لهذا يمكننا القول إن الإسلام حين ظهر في مجتمع الجاهلية العربية، في أوائل القرن السابع الميلادي، لم يظهر كمفاجأة منقطعة الأسباب والصلات عما كان يعتمل في حياة تلك "الجاهلية" أو عما كان يتحرك في ذلك المجتمع بشكل ظاهرات اقتصادية واجتماعية ودينية وبيانية (شعر، خطب، أمثال) معلنة أن هذا المجتمع القبلي لا بد أن يتغير من الأساس، وكانت تلك الظاهرات بحد ذاتها تبشر بالأمر الكبير المنتظر الذي سيخرج من جسد الواقع الاجتماعي الجاهلي نفسه، ليسكب في هذا الجسد دماً جديداً، يعمل لوحدة كيانه، ولدفع قواه وطاقاته نحو العالم كله خارج شبه الجزيرة.

وليس مصادفة أن الدعوة الإسلامية ظهرت في مكة، وفي مكة

(1) د. طيب تزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، المرحلة الأولى، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص 158.

(2) ضرار صالح ضرار: مرجع سابق، ص 33.

بالخصوص، بل كان ذلك تعبيراً عن تاريخية الدعوة ومقياسا لثورتها، ويتلخص ذلك بجذرية العلاقة الواقعية بين ظهور الإسلام في مكة واحتدام التناقضات الاجتماعية في هذا المركز الرأس لمجمل العلاقات الاجتماعية التي كانت تحكم حركة التاريخ العربي الجاهلي كله حتى لحظة ظهور الإسلام[1].

وقد استطاع الإسلام بدعوته القائمة على تحقيق العدالة الاجتماعية للفئات المسحوقة التي كانت تتألم وتكفر بالنمو الاقتصادي الناجم عن التجارة الواسعة (كما وصفها المعاصرون برحلتي الشتاء والصيف)[2].

في البداية لم تكن للدعوة الإسلامية التي بدأها محمد ﷺ أي دلالة سياسية واضحة. إلاّ أن كبار تجار مكة بدأوا بمرور الزمن يخشون محمداً وحركته الدينية، ورأى من عاصره خاصة أن تفرده بمكانة الداعية إلى الحق المقدس كانت أساساً يضم بين جنباته بذور التدخل السياسي[3].

ولعل هذا ما دفع قريش لإصدار تهديداتها الكثيرة، وتقديم إغراءاتها الكثيرة للرسول ﷺ حتى يكف عن دعوته الجديدة التي تطالب الناس بالابتعاد عن عبادة الأوثان والأصنام، بإعلان عبوديتهم للّه سبحانه وتعالى. وقد واجه سيدنا محمد ﷺ أساليب قريش في الترهيب والترغيب في قوله: **"واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه ما تركته"**[4].

وقد وجد المسلمون الأوائل أنفسهم أمام بيانٍ شاف وحازم يؤكد إصرار رسول الرحمة على هدم الحياة الجاهلية، وإحلال الإسلام كبديل عنها اعتقاداً وفكراً وتشريعاً. فقوى، ذلك من عزائمهم سواء في تحمل أذى قريش، أو

---

(1) د. حسين مروة، محمود أمين العالم، محمد دكروب، سمير سعد: دراسات في الإسلام، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت، 1985، ص 9 ـ 10.

(2) كانت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ورحلة الصيف إلى الشام. ولمزيد من المعلومات انظر:

البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد اللّه، ج11، مطبعة دار المعارف بمصر، 1959، ص 95.

انظر كذلك: احمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1969، ص 14 ـ 17.

(3) منتغمري وات: مرجع سابق، ص10.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص64.

بتحملهم مشاق الهجرة إلى الحبشة عام 615م[1]، التي مكثوا فيها لبضع سنوات وسط مجتمع تمايزت فيه عاداته وتقاليده ولسانه ومكانه بالتباين عن مجتمعهم في شبه الجزيرة العربية.

بيد أن أهم المآثر التي تجلى بها الدين الإسلامي الحنيف عن بقية الرسالات السماوية الأخرى، وكان لها أثر كبير في تكوين الدولة ـ الإمبراطورية ـ الإسلامية، وهو أن الإسلام جعل العقل حكماً في الدين والإيمان. يقول اللّه سبحانه وتعالى في سورة البقرة: **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاً دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾**.. ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول: إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين وان المرء لا يكون مؤمناً إلاً إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحا بغير فكر، فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم فيعمل الخير، لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته، والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه، يكررها القرآن مئات المرات في صوره المختلفة، وكلها موجهة إلى قوة الإنسان العاقلة، تدعوه إلى التدبير والأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينه، وتحذر الأخذ بما وجد عليه آباؤه، من غير نظر فيه وتمحيص له، وثقه ذاتية بمبلغه من الحق[2].

وعلى ضوء هذا، شرع النبي في انتهاج سياسة حكيمة لمعالجة تلك الأوضاع على أرض الواقع. وعلى سبيل المثال.. في المدينة كانت المشكلة الأولى التي عليه أن يواجهها مشكلة اقتصادية، نبعت من واقع الصحابة المهاجرين الذي تركوا أموالهم في مكة وغادروها مملقين، لا أمل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون. وكان في الوقت نفسه يحاول أن يقيم رابطة متينة من الأخوة بين الفئتين: المهاجرين والأنصار.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ومعادن الجوهر، ج2، تصنيف أبي الحسن علي ابن الحسين، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الثامنة، 1973، ص76. وحول الهجرة الثانية إلى الحبشة، انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص 27.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، ـ الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة، القاهرة، 1975، ص ص203 ـ 204.

لهذا كله وتوكيداً لوحدة المجتمع الإسلامي الأول أوجد الرسول ﷺ نظام المؤاخاة؛ وقد نص نظام المؤاخاة هذا على حق التوارث بين المتآخين دون الأرحام... وقد جرت هذه العملية قبل غزوة بدر لمواجهة الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منه المهاجرون المسلمون الذين تركوا ديارهم، وجاؤوا إلى ديار غريبة ليس لهم فيها ما يساعد على إقامة أودهم وأسرهم، فجاء نظام المؤاخاة حلاً مؤقتاً لأزمتهم[1].

وعلى الصعيد ذاته، عمل الرسول ﷺ على التخلص من العشائر اليهودية حتى يحمي المسلمين في المدينة من مكائدها. حيث تخلص بعد معركة بدر في السنة الثانية للهجرة الموافق 623م من بني قينقاع، كما تخلص بعد معركة أُحد في السنة الرابعة للهجرة الموافق 626م من بني النضير، وأخيراً تخلص بعد موقعة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة الموافق 626م من بني قريضة[2]، بعد أن تأكد للمسلمين تورطها في إقامة تحالفات سياسية ـ عسكرية مع المشركين أثناء معاركهم الفاصلة مع قريش، لإنهاء الوجود الإسلامي في المدينة. لكن استمرار اليهود في دسّهم ومؤامراتهم ضد الدولة الإسلامية في المدينة، اضطرت الرسول ﷺ على مهاجمة حصون خيبر التي يتحصنوا بداخلها. وقد تم فتحها في السنة السابعة للهجرة. وقد صالحهم الرسول ﷺ بعد إعلانهم خضوعهم للدولة الإسلامية الناشئة، وعاملهم معاملة أهل الذمة[3].

---

(1) د. . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الإسلام، سلسلة تاريخ العرب والإسلام ـ 1 ـ ، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1983، ص 339 ـ 340.

(2) لمزيد من المعلومات حول الغنائم التي حصل عليها المسلمون بعد التخلص من اليهود، انظر: الواقدي: المغازي، القاهرة، 1948، ص 142 ـ 149.

(3) انظر: علي حسنين الخربوطلي: الدولة العربية الإسلامية، القاهرة الطبعة الأولى، 1960، ص 37 ـ 38.

علما بان الجزية التي فرضت عليهم كانت أقل ما هو مقرر على أهل الذمة في الشام مراعاة للأوضاع الاقتصادية للمنطقة في تلك الحقبة. ؛ انظر: أبو يوسف: الخراج، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ودار الإصلاح، القاهرة، بدون تاريخ، ص 135م.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب تم إخراج اليهود نهائياً من الجزيرة العربية. فذهبوا إلى البلاد الإسلامية الأخرى خاصة الكوفة. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج4، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ، ص 326 ـ 327؛ انظر كذلك: البلاذري: فتوح البلدان، نشر وتحقيق د. صلاح الدين المنجد، النهضة العربية، بدون دار نشر، القاهرة، 1965، ص 36 ـ 39.

وتأسيساً على ذلك يمكننا القول بأن النشاط السياسي المنظم للرسول ﷺ لم يبدأ إلاً بهجرته إلى المدينة، هذا لا يعني حيازته دون سابق إنذار على قوة سياسية هائلة، فقوته في الواقع كانت تنمو ببطء شديد، بل إن المواثيق التي عقدوها مع قبائل المدينة أفضت به إلى تأسيس هيئة جديدة، ولاح داخل هذه الهيئة أفق تحقيق الطاقات السياسية الكامنة في أفكار القرآن[1].

بل استطاع الرسول ﷺ في صلح الحديبية من أن يؤكد على مواهبه السياسية الرفيعة التي كان يستمدها من اللّه سبحانه وتعالى، وبهذا الخصوص يتحدث عباس محمود العقاد في كتابه[2]؛ قائلا: "إن المثل الذي قدمه النبي ﷺ في رحلة الحديبية، يناقض ما توهموه، ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ في كل وسيلة من وسائل الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه، فلا يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع.

وفي ضوء هذا يشير جون جلوب بهذا الخصوص قائلا: "إن النبي محمد ﷺ لم يكن رجل دين فحسب، بل كان رجل سياسة من الطراز الأول، حيث كان يأخذ بمشورة أصحابه في شؤون الحرب والسياسة إذا لم تأته الأوامر من السماء وتعكس الآيات القرآنية التي هبط بها الوحي في مكة في السنوات الأولى من الدعوة عندما كان النبي ﷺ يواجه الفشل والاضطهاد عواطف في منتهى العمق والأصالة، ولكن النبي سرعان ما وجد نفسه في السنوات التالية طوعاً أو إكراهاً، يؤدي دور الحاكم السياسي، وقد عكست السّور القرآنية في المرحلة التالية، محاولات متزايدة من التشريع والاهتمام بالشؤون الإدارية وأحوال المجتمع الإسلامي وتنظيمه"[3].

---

(1) منتغمري وات: مرجع سابق، ص 10 ـ 11. وفي الواقع برزت ملكات الرسول ﷺ () السياسية قبل سن الأربعين، كنتيجة لانخراطه في حلف الفضول، هذا الحلف الذي أخذ على عاتقه حماية الضعفاء من نير الأثرياء واستعبادهم. انظر بهذا الخصوص: شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر السادس عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص94، كذلك انظر عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 133 ـ 134.

(2) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1969، ص 89 ـ 90.

(3) جون جلوب: إمبراطورية العرب، نسخة مصورة بدون دار نشر، وبدون تاريخ، ص 40.

ليس فهذا فحسب بل يمكننا القول أيضا بأن النبي محمد ﷺ لم يكن رجل سياسة يوحى إليه بل كان "رجل حرب، عندما تضطره الأمور إلى الحرب.. ورجل إرشاد، عندما يجد أن الإرشاد يؤتي غايته".. بل ومع استقرار الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية نشأت الدولة الإسلامية، فتحولت" الدعوة من دعوة دينية صرفة إلى دعوة دينية سياسية.

كما حارب الرسول ﷺ العادات والتقاليد الجاهلية السيّئة بكل قوة، خاصة فيما يتعلق بالمعاملات الربوية والأخذ بالثأر. وقد خاطب الرسول ﷺ جماعة من قومه (في تحريم الربا والأخذ بالثأر) قائلا: ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا وإن كل رباً في الجاهلية موضوع، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلَمون قضى اللّه أن لا ربا، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب، وأن دماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم عامر ابن أبي ربيعة بن الحارث (كان مسترضعاً في بني ليث فقتله هذيل).. " ألا هل بلغت؛ "قالوا" نعم، "قال: اللّهم اشهد"[1]. ويؤكد لنا كل هذا، أن النبي ﷺ عندما أراد إصلاح الأمة كان عليه أن يكون قدوة حسنة في كل أعماله، وهذا يدل بما لا يدع مجالا للشك بأن تصرفاته كانت تنبع من واقع معرفته بالواقع الاجتماعي ـ السياسي، التي كانت تعيش فيه الفئات الاجتماعية المختلفة.

وفي ضوء هذا أشارت الدلائل، أن ما تم على يد محمد ﷺ أمور لا يسلم بها العقل لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها، ولا الغض من جلالتها بوجه من الوجوه. فقد تم على يده:

1 ـ توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة.

2 ـ قضاؤه في أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آماد طويلة.

3 ـ إحلاله محلها ديناً يتنافى ما كانت تدين به من كل وجه.

4 ـ إحداثه إصلاحاً اجتماعياً قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة وإباحة متحكمة، وغفلة متغلبة إلى إنسانية متلألئة، وفضيلة متوثبة، ويقظة وصلت إلى زعامة البشرية، في سنين معدودة.

5 ـ تأسيسه دستوراً حكيماً وحملها على أتباعه، فنادت إلى أكمل ما تتوق إليه

(1) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، نسخة مصورة، وبدون دار نشر، وبدون تاريخ، ص 591.

جماعة من ترابط بين أجزائها، وتكافل بين آحادها، وتظافر بين جميع قواها المعنوية للوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم.

6 ـ وضعه أساس أمة عالمية، لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر، بل تقوم على دين واحد هو الدين الفطري الأول، وعلى شريعة واحدة تبنى على أصول الحق الطبيعي والعدل المطلق، وتنشد غرضا واحدا هو الوصول إلى أقصى ما قدر للإنسان من كمال صوري ومعنوي معا[1].

والجدير ذكره في هذا الخصوص، أن الدعوة الإسلامية كانت تلاقي نجاحاً كبيراً في صفوف الشعب، في حين كان الزعماء الكبار يقاومونها بضراوة، ويعملون كل شيء للقضاء عليها، فإذا جاز لنا أن نتكلم بلغة اليوم.. نقول: "إن الحركة الإسلامية، فضلا عن كونها حركة دينية، فهي حركة شعبية ضد مستعبدي الشعب والمتحكمين به"[2].

حيث كان لدعوة الرسول ﷺ وتعاليمه نتائج اجتماعية ملموسة، تحددت صيغتها، كما هي الحال في جميع الحركات الدينية، بما تركته من آثار في البيئة التاريخية الواقعية. وقد تقبل الناس تلك التعاليم في حياة الرسول ﷺ نفسه على ثلاث مراتب مختلفة:

أولاها: التحوّل الديني الكامل الذي أوجد شخصيات دينية كان دافعها في وحدة نشاطها، وفيما تعقد عليه نواياها؛ قبول روح التعاليم ومبادئها قبولاً داخلياً تاماً. وهو الفريق الذي تكونت منه فيما بعد نواة النظام الديني. وقد كان بطبيعة الحال صغيراً في البداية نسبياً، إلاً أنه كبر ونما نمواً مطرداً حين كبرت الجماعة.

وثانيها: هي الولاء الشكلي، أي قبول التعاليم والواجبات دون تمثل لروحها، بل ابتغاء ما يجنيه الانتماء إلى الجماعة الجديدة من مكاسب. وكان أبرز ممثلي هذا الفريق ممن تأخروا في اعتناق الإسلام من أهل مكة، فلقد وجدوا أن فروض الإسلام الخارجية تلائم مزاجهم التجاري إلى حد كبير، ذلك أنه لم يتطلب منهم في واجباتهم الدينية سوى يسير من الوقت والمال، وترك لهم حق التمتع بما بقى من هذين ليحققوا مصالحهم ومآربهم، وكان للإسلام

(1) محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 42.

(2) د. جورج حنا: الإنسان العربي قديمه وجديدة، دار العلم للملايين، بيروت، 1964، ص 48 ـ 51.

فضلٌ آخر في نظر أهل مكة وهو ذلك الحزم الأكيد الذي أخذ به الأعراب وهم الذين قبلوا الإسلام في مرتبة الولاء الإجباري المؤيد أولاً بالتخويف من العقوبات بعيد وفاة الرسول ﷺ[1].

ثانياً

اليمن في ظل الإسلام

كانت اليمن أثناء تكون الدولة العربية الإسلامية تحت راية النبي محمد ﷺ، تعاني من الضعف وأسباب الفرقة والتمزق، ولعل أبرز تلك المظاهر في اعتقادنا هي كالتالي:

1 ـ إن الانتفاضات الشعبية في المنطقة اليمنية، استطاعت إزاحة النفوذ الفارسي من مختلف المناطق ما عدا مدينة صنعاء ومدينة عدن، اللتان كانتا تعانيان من هجمات القبائل عليهما بشكل دائم، مما اضطر الحكومة الفارسية إلى فرض مزيد من الضرائب حتى تستطيع إخماد الهبات الشعبية في الداخل، بل وإفشال محاولات استرداد صنعاء وعدن من قبل القبائل الثائرة ضد سلطتهم من الخارج.

2 ـ كانت الجماهير اليمنية خارج مدينة صنعاء ـ عدن، تخضع لسلطة الأقيال والأذواء الضعفاء، الذين انفصل كل منهم بمنطقة معينة، وتحت شعارات المقاومة لطرد الفرس عن المنطقة اليمنية، كانت هذه الفئة تجبر الفقراء على تقديم أموالهم على شكل تبرعات أو ضرائب إلزامية، حتى تستطيع أن تحقق ما تصبو إليه، مما ساهم في ترسيخ الأوضاع المتردية في اليمن.

3 ـ أدى تحول الفلاحين في القرى والمناطق المختلفة إلى جنود بيد السلطات المحلية التي يمثلها "الأذواء والأقيال" إلى اشتعال الحروب الأهلية فيما بينها، أو مع السلطة الفارسية في صنعاء، وكل هذا ساهم في إهمال الزراعة، وبالتالي إهمال صيانة السدود، وانقطاع سبل التجارة، وعانت البلاد من أزمة خانقة في مختلف مناحي الحياة.

4 ـ كان للديانة اليهودية والمسيحية أثر كبير على وعي الجماهير اليمنية، بحكم تعاليمها، لذا استطاعت أن تقفز بالوعي الاجتماعي ـ الديني من أرضية

---

(1) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، د. محمد يوسف نجد، د. محمود زايد، بيروت، 1964، ص 6 ـ 7.

العبادات الوثنية ـ الفلكية، القائمة على التعداد الإلهي إلى عبادة توحيدية بلغت أوج ذروتها ببروز طائفة من الحنفاء داخل اليمن، كانوا على ارتباط وثيق بالحنفاء داخل مكة نفسها. هذا من جانب، ومن جانب آخر كان لانتشار اليهودية والمسيحية في العالم القديم أثر كبير على تجارة اللبان والبخور، التي حرم استعمالها في الطقوس الدينية فكان لهذا أبلغ الأثر في اقتصاديات المنطقة اليمنية.

كل هذا دفع اليمنيين بمختلف فئاتهم إلى اعتناق الإسلام، على أمل أن الإسلام سيضع حداً للحروب الداخلية وتوحيد المنطقة، بعد تحريرها سياسياً واقتصادياً من نير الاحتلال الفارسي. في وقت كان اعتناق بعض الأقيال والأذواء للدعوة الإسلامية، يعني بالنسبة لهم استعادة مكانتهم السياسية ـ الاقتصادية في إطار المجتمع، بعد أن أهدرتها الأرستقراطية الفارسية.

وهناك عوامل عدة ومتشبعة أدت إلى دخول اليمن في الإسلام، منها العوامل الحضارية والعرقية ومجموع طموح السكان في الجزيرة العربية إلى شغل دور بارز في الحركة الاقتصادية العالمية آنذاك، من حركة تجارية وسيطرة على الأسواق، فلهذا جاء الإسلام تلبية لطموحات فئات يمنية عدة. وسرعان ما أحس عامة اليمنيين بأهميته ومردوده الطيب فيهم، خاصة وأن الصراعات داخل القبيلة الواحدة وبين القبائل اليمنية كان قد أوجد تخلخلا واضحا في قوة نظام القبيلة بشكل عام، مما ساعد على تقبل الإسلام لدى بعض القبائل والعشائر من جانب، وأحبط قيام أي تحالفات قبلية ضد انتشار الإسلام في اليمن من ناحية أخرى[1].

بيد أن أهم الأسباب التي دفعت اليمنيين لاعتناق الإسلام، هو تقبل باذان الفارسي للإسلام وربط المناطق اليمنية الواقعة تحت سلطانه بنفوذ الدولة العربية الإسلامية، ومن ثم إقرار الرسول ﷺ لـ باذان، كي يظل في موقعه كحاكم. لهذا أرسلت اليمن وفودها إلى المدينة، مثلها مثل بقية المناطق في شبه الجزيرة العربية تعلن إسلامها، بل ودخولها في إطار الدولة الجديدة. ومن أسماء القبائل والبطون التي وصلت تعلن إسلامها للرسول ﷺ ـ في عام الوفود: مزينة، وأسد، وتميم، وعبس، وفزارة، وثعلبة، ومحارب، وسعد بن بكر، وكلاب،

(1) محمد سعيد شكري: الأوضاع القبلية في اليمن منذ بداية عصر الراشدي وحتى الفتنة الكبرى، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1986، ص 13 ـ 14.

ورؤاس بن كلاب، وعقيل بن كعب، وجعدة، وقشير بن كعب، وبني البكاء، وكنانة، وأشجع، وباهله، وسليم، وهلال بن عامر، وعامر بن ثقيف، وجاءت وفود ربيعة من: عبدالقيس، وبكر بن وائل وتغلب، وحنيفة وشيبان.

وجاء من اليمن وفد من طيء وتجيب ـ، وخولان وجعفى، وصداء، وسراد، وزبيد، وكنده، والصدف، وخشين، وسعد هديم، وعلي، وبهراء، وعذرة، وسلامان، وجهينة، وكلب، وجرم، والازد، وغسان، والحارث بن كعب، وهمدان وسعد العشيرة، وعنس، والداربين، والرهاويين (من مذحج)، وغامد، والنخع وبجيلة، وخثعم، والاشعرين، وحضرموت، وأزد عمان، وغافق، وبارق، ودوس وثمالة، والحدان، واسلم، وجذام، ومهرة وحمير، ونجران وجيشان[1].

كل هذا جعل العلماء يجمعون، على أن أهل اليمن كافة أسلموا على عهد الرسول ﷺ، عندما بعث إليهم المهاجر بن أبي أمية المخزومي، إلى الحارث ابن عبد كلال الحميري.. يدعوه وقومه إلى الإسلام فأسلموا[2]. فقام الرسول ﷺ بـ إبعاث علي بن أبي طالب (وخالد بن الوليد ويعلى بن أمية وعمرو بن حزم وعكاشة بن أبي ثور ومعاوية بن كندة وجرير بن عبدالله البجلي وغيرهم[3]؛ لتعليم الناس أصول الدين وأحكام القرآن.

وعندما تأكد النبي من انتشار الإسلام في ربوع اليمن، أوفد معاذاً إلى الجند ليعلم أهله ويفقههم وأوصاه قائلا: "يسّر ولا تعسّر وبشّر ولا تنفّر، وانك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة، فقل شهادة أن لا اله ألا اللّه وحده لا شريك لـه "[4]. كما بعث الحكام إليها، وكان كل حاكم منطقة أو مخلافاً من مخالفها يتبع رأساً الحكومة المركزية واستمر الأمر كذلك

---

(1) محمد حسنين هيكل: حياة محمد، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1358هـ ، ص480؛ انظر كذلك: سعيد محمد القمني: رب الزمان ودراسات أخرى، مكتبة أطلس الصغير، الطبعة الأولى، القاهرة، 1996، ص 56 ـ 57.

(2) ابن الديبع: بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق عبداللّه محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1979، ص 18 ـ 19.

(3) يحي بن الحسين: غاية ألاماني في أخبار القطر اليماني، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968، ص 71 ـ 72، كذلك انظر ابن الديبع: مصدر سابق، ص 19 ـ 20.

(4) عبداللّه احمد الثور: مختصر من تاريخ اليمن، دار الهناء للطباعة، 1983، ص 15.
وتشير العديد من الدراسات إن أهل الكتاب الذين أرسل إليهم معاذا في الجند كانوا من أتباع الديانة اليهودية. انظر: نشوان بن سعيد الحميري: منتخبات في أخبار اليمن، نسخ وتصحيح عظيم الدين احمد، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن، 1981، ص 110 ـ 112.

حتى أيام الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وفترة من حكم الدولة العباسية[1].

وعلى الرغم من هذا تخلفت قبيلة نصارى وادي نجران ـ التي تضم جزءاً من مذحج المجاورة لقبائل السراة ـ عن موكب الإسلام، بحجة أنهم أهل كتاب من معتنقي المسيحية، لكن الرسول ﷺ لم يرض لهم بالبقاء على الديانة المسيحية، لهذا أرسل لهم في بداية السنة العاشرة للهجرة خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى سرية من أربعمائة مقاتل يدعو بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ويقاتلهم إن لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسول في كل المناطق فأسلم الناس فكتب بذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فكتب إليهم بأن يقدم مع وفدهم.

فأقبل خالد ومعه وفد بني الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذو القصية ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبداللّه بن قراد الزيادي وشداد ابن عبداللّه الضبابي وعمرو بن عبداللّه الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية، قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم. قال: صدقتم، فأسلموا وأمّر عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم تبعهم عمرو بن جزم من بني النجار ليفقههم في الدين ويعلّمهم السنة[2].

وعلى الصعيد نفسه، راسل رسول اللّه ﷺ نصارى مدينة نجران التي تضم معظم مذحج، فضلا عن قبائل همدان في أواخر العام التاسع الهجري، أو مطلع العام العاشر، وقد قدم وفدهم إلى المدينة المنورة ليس بقصيد الإسلام، إنما بقصيد الجدل والمفاخرة، وبعد عرض الإسلام عليهم جاؤوا رسول اللّه ﷺ وناقشوه ثم تواعدوا على المباهلة ثم أخلفوا وعدهم فخيرهم رسول اللّه ﷺ بين الجزية والقتال فرفضوا القتال. ورفضوا أيضا صورة الجزية ولكنهم قبلوا أن يفرض عليهم شيء من المال (نقداً وعيناً) عرف في كتب النظم الإسلامية بمال الصلح وكان مقداره ألفي جلة يدفع منها الف في رجب وألف في صفر من كل عام واشترط عليهم شروطا وأدرج ضمنها يهود نجران. ولم تحدد قضية ولائهم للروم في هذا الصلح، إلاّ أنه واضح أنه قطع وأصبح موصولا بالدولة الإسلامية. ولهذا طلبوا من رسول اللّه ﷺ أن يبعث إليهم من يحكم

(1) عبدالرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج2، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1981، ص473.
(2) محمد حسنين هيكل: مرجع سابق، ص 485.

فيهم في أمور اختلفوا فيها فأرسل إليهم أبا عبيدة بن الجراح [1].

والحقيقة.. كان إصرار النبي ﷺ على عدم بقاء اليمنيين من أهالي نجران على دين المسيحية، يخضع لاعتبارات سياسية محضة، لان النبي على الأرجح أراد ضم هذه المنطقة برمتها في إطار الدولة العربية الإسلامية الناشئة، حتى تتقوى بمقاتليها الشجعان، الذين عرفوا في الجاهلية باسم: "جمرات العرب" هذا من جانب، وحتى لا يستنجد عرب نجران بالروم، كما فعلوا ذلك في السابق إبان عهد يوسف أسار الحميري وربما أيضا، أراد النبي ضم نجران إلى الدولة الإسلامية على أساس أنهم يمنيون عرب لا وجود بينهم لجاليات أجنبية كما هو الحال في الشام أو مصر. وكان النبي يريد من خلال هذه الإجراءات تقوية دولته وتأمين قاعدتها، عن طريق كسب القبائل العربية التي ستتحمل عبء الفتوحات في المرحلة القادمة، وأيضاً لقوله (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب).

والجدير بالذكر.. أن وفد الأشعريين من زبيد وزمع، كانت أولى الوفود التي وصلت إلى المدينة برئاسة أبو موسى وأخوه أبو بردة وأبو زهم وجماعة من قومهم بعد أن مكثوا فترة من الزمن في الحبشة، بصحبة جعفر بن أبي طالب وإخوانهم المهاجرين فلقوا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال لهم "من أين جئتم" فقالوا "من زبيد" قال "بارك اللّه في زبيد الخير"، وقسم لهم من الغنائم، ولم يقسم لغيرهم ممن لم يشهد الفتح.

وإنّا لنجد في كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البرّ في ترجمة معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قسم بلاد اليمن بين خمسة رجال هم: خالد بن سعيد وقد ولاّه على مدينة صنعاء، كما ولى المهاجر بن آبي أمية على كندة، وزياد بن لبيد على حضرموت، ومعاذ بن جبل الجند، وأبا موسى الأشعري على زبيد مع عدن والساحل. وقد جاء في سيرة ابن هشام أن النبي (استعمل فروة بن مسيك على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصي؛ لكي يقوم على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي الرسول ﷺ.

وقال النبي ﷺ لـ معاذ حين أرسله إلى اليمن"... إن اللّه قد فرض

---

(1) د. عبدالرحمن عبد الواحد الشجاع: تاريخ اليمن في الإسلام ـ حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفكر، الطبعة الثالثة، صنعاء، 1999، ص 65 ـ 66.

عليهم الصدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك فإياك وكرائم أموالهم. . "[1].

ولتنظيم نظام الحكم وخاصة فيما يتعلق بنظام الزكاة، أرسل النبي ﷺ رسالة إلى عماله في اليمن قائلاً: " . . . .وأن تأخذ من الناس ما عليهم في أموالهم من الصدقة. . من العقار عشر ما سقي البعل والسماء ونصف العشر فيما سقي بالرشاء ـ الأرض المرتفعة التي لا تسقى إلاّ بالمطر".

وفي كل خمس من الإبل شاة إلى خمس وعشرين، فإن زاد ففيها ابن مخاض إلى خمس وثلاثين، فإن زادت ففيها بنت لبون إلى خمس وأربعين، فإن زادت واحدة ففيها ابن مخاض إلى خمس وثلاثين، فإن زادت ففيها بنت لبون إلى خمس وأربعين فإن زادت واحدة ففيها حقّه إلى أن تبلغ ستين، فإن زادت واحدة ففيها حقتان إلى أن تبلغ عشرين ومائة ثم في كل خمسين حقة. وفي كل سائمة من الغنم في أربعين شاة إلى عشرين ومائة وان زادت فشاتان إلى مائتين، فإن زادت فثلاث ثم في كل مئة بعد شاة.

وفي كل خمس بقرات شاة إلى ثلاثين فإن بلغت ثلاثين ففيها تبيع، وفي كل أربعين مسنّة وليس في الأوقاص بينهما شيء، وفي كل عشرين مثقالا من الذهب نصف مثقال، وفي مائتين من الورق خمسة دراهم، وفي كل خمسة أواسق نصف الوسق من البر والشعير والثمر والسلت[2].

وقد ارتضى اليمنيون هذه القواعد المتعلقة بالزكاة منذ إسلامهم وحتى أواخر عهد الرسول محمد ﷺ . وذلك عندما أراد زياد بن لبيد أن يأخذ الزكاة منهم من كرائم أموالهم ومن ثم زيادتها دون رضاء منهم، الأمر الذي ترتب عليه المجاهرة بالتمرد والانضمام لحركة الردة ضد الدولة العربية الإسلامية.

ثالثاً

الأبناء "الفرس" في ظل الإسلام

أطلقت تسمية الأبناء على الفرس الموجودين في اليمن بزعامة باذان،

---

(1) القاضي عبدالله عبدالكريم الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، الطبعة الثانية، 1984، ص 53 ـ 54.

(2) الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ ـ جميع وتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، بدون تاريخ، ص 98.

الذين أعلنوا اعتناقهم الإسلام، ليكن ذلك مؤشراً على تغيير هويتهم باعتبارهم جزءاً من هذا الشعب. فمن جهة كانت هذه التسمية تعتبر خطأ فاصلا لكل تراثهم في الماضي كممثلين للإمبراطورية الفارسية في المنطقة اليمنية، ومن جهة أخرى باعتبارهم يمثلون الدولة العربية الإسلامية ويحكمون بكتاب اللّه وسنة رسوله.

ومن المعروف أن " الأبناء في اليمن منذ أواخر القرن السادس الميلادي، قد ارتبطوا باليمن أرضاً وشعباً متزوجين بنساء من العشائر الحميرية المحلية، وقد كان الأبناء منذ تواجدهم الأول في اليمن الأداة الرئيسية للحكم الفارسي، وكانوا يشغلون المناصب الهامة في الشؤون الإدارية ويجنون الرسوم التجارية في صنعاء وعدن[1].

وصاروا تجاراً وأصحاب أراضٍ، وقد كانوا بالذات يمارسون تنظيم استخراج خام الفضة ويملكون مناجمها، وفي العصر الجاهلي تصادمت مصالح الأبناء مع مصالح القبائل الشمالية المترحلة وشبه المترحلة. ولهذا نشأ حلف بين زبيد وخولان والحارث بن كعب والنجرانيين ضد الفرس الذين تحالفوا مع بني همدان، وتحوّل النزاع إلى معارك بين المذحجيين والهمدانيين (مثلا يوم الرزم)، الذي حققت فيه همدان انتصاراً ساحقاً على أعدائها، مكّنها من توسيع رقعة نفوذها القبلي إلى منطقة الجوف. ورغم أن الأبناء كانوا في غالب الأحيان أعداء لشتى القوى السياسية، وغالبا ما ينعتون بالغرباء، ولكنهم في واقع الأمر كانوا مرتبطين باليمن ارتباطاً وثيقاً منذ العصر الجاهلي. لقد كانوا ينحدرون من أمهات يمنيات ولهم أقارب في الكثير من العشائر والقبائل وامتلكوا ناصية الثقافة واللغة المحليتين[2].

وببروز المسلمين كقوة فاعلة في مجتمع الجزيرة العربية، اعتنق الفرس الدعوة الإسلامية، قبل إعلان الأمراء المحليين إسلامهم، مما دفع بالرسول ﷺ إلى المبادرة بتعيين باذان حاكماً على اليمن (المقصود حاكماً على صنعاء

---

(1) انظر: فيليب حتي: تاريخ العرب، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت، 1955، ص 70.

(2) م. ب ـ بيوتروفسكي: اليمن قبل الإسلام، ص 229 ـ 254.

عمل الفرس منذ الأيام الأولى للاحتلال على اضطهاد الأهالي واغتصاب حقوقهم وممتلكاتهم، خاصة الأراضي والضياع الخصبة في مختلف المناطق اليمنية. انظر: الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، تحقيق محمد الشعيبي، دار الكتاب، الطبعة الأولى، دمشق، بدون تاريخ، ص46.

وضواحيها وعدن فقط) وإذا توخينا الحقيقية، من وراء اعتناق باذان للإسلام يمكننا القول إن إسلام باذان كان للأسباب التالية:

1 ـ إن احتلال الفرس للمنطقة اليمنية، وما نتج عنه من اضطهاد واستعباد للجماهير اليمنية، أدى إلى تذمر الأهالي، وإعلانهم التمرد عليه قبل الإسلام كوسيلة يستهدف منها الإطاحة بالنفوذ الأجنبي[*]، في وقت كان الفرس في اليمن قد أصبحوا في مرحلة الضعف، لهذا أعلنوا إسلامهم حتى يتمكنوا من المحافظة على امتيازاتهم السياسية ـ الاقتصادية في المنطقة اليمنية.

2 ـ كانت الإمبراطورية الفارسية في هذه الأثناء تشهد صراعاً ضارياً حول العرش بين الإمبراطور وابنه "شيرويه"، وكان من نتائجه اغتيال الإمبراطور واعتلاء ابنه العرش، وما أدى إليه هذا، من إشاعة الفوضى، وقيام الحروب الأهلية داخل الإمبراطورية الفارسية، الأمر الذي ترتب عليه ضعف الرابطة بين الحكومة المركزية وواليها على اليمن، فأصبح باذان يتصرف بحرية وبدون خوف من حكومته وتسلطها. فدخل في الإسلام غير مكترث بالعواقب التي قد تنجم عن ذلك، بل قبل أن يتخلى عن منصبه كوالي على اليمن من قبل ملك الفرس. وقد تبع اعتناق باذان الإسلام دخول الأبناء في اليمن وغيرهم من اليمانية المتحالفين معهم والمقربين إليهم بالإسلام".

وقد "أجمعت المصادر العربية على أن باذان اعتنق الإسلام سنة 6 هـ، التي توافق سنة 627م. والمعروف أن الرسول أرسل كتابه إلى كسرى ـ الذي دعاه فيه إلى الإسلام ـ بعد عودته من الحديبية في أواخر سنة 6هـ"[1].

ونستدل من ذلك، أن إعلان باذان (الفارسي) عن إسلامه وإسلام أصحابه يعود لأسباب عدة، منها خوفه من النهاية المحتومة لسلطته، وتسلط أصحابه (الأبناء) على اليمن، نتيجة لعدم استطاعته السيطرة على كل مناطق اليمن، ووجود مناطق بكاملها خارج النفوذ، وهي المناطق التي ذهبت منها الوفود وأعلن أهلها اعتناقهم للإسلام، بالإضافة إلى المقاومة التي أخذت تشتد يوما عن يوم، ثم إحساسه بضعف دولته الفارسية التي أخذت تفقد هيبتها السابقة وتضمحل شيئاً فشيئاً.

وفي ضوء هذا يمكننا الاستدلال أيضا بأن إعلان الفرس اعتناقهم للإسلام

(1) عزالدين كشار: تطور الوعي الديني في اليمن، ـ من أبسط أشكاله حتى التوحيد ـ، الثقافة الجديدة، العدد ـ 3 ـ 5/ 1985، ص 60.

قد حرك المشاعر الجماعية لدى اليمنيين تجاه الإسلام، فسارعت معظم القبائل لإعلان اعتناقها الإسلام، بعد أن كانت محصورة في أفراد قلائل، نذكر منهم على سبيل المثال أبو موسى الأشعري والطفيل بن عمرو الدوسي وقيس بن نمط الأرحبي الهمداني وغيرهم. ممن اسلموا منذ بداية الدعوة، ولم يتمكنوا من إقناع أقوامهم بالإسلام.

والواقع أن قرار النبي ﷺ فيما يتعلق بسلطة الفرس (الأبناء) في المنطقة اليمنية كان ينطلق في إعطائهم هذه الصلاحيات كنتيجة للاعتبارات التالية:

1 ـ كسب حكام المنطقة اليمنية إلى صف الدولة العربية الإسلامية ـ بغض النظر عن ماهية هؤلاء الحكام ـ، بالإضافة إلى هذا، أراد النبي ﷺ من خلال موقفه هذا، التأكيد على حق المساواة التي يدعو إليها الإسلام بين جميع المسلمين والتي تتجلى بقوله.. "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلاّ بالتقوى"[1].

2 ـ حاول النبي ﷺ إخراج المبادئ الإسلامية بهذا الصدد إلى حيز الواقع العملي في المنطقة اليمنية، وكان يعتقد بأن إسلام (الأبناء) واليمنيين سيفتح جسراً من التفاهم فيما بينهم، مما سيدفعهم هذا لتناسي خلافاتهم السابقة لمصلحة الدولة الإسلامية الفتية. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك عندما تحدث بهذا الخصوص: "ودهش الناس حينما جاء الإسلام، لما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة.. ونسي الناس أمر العصبية مسلمهم وكافرهم"[2].

وكانت تجربة الرسول ﷺ مع المشركين تؤكد بأن التعاليم الإسلامية، يجب أن تكون لها الريادة في نفوس الناس وتصرفاتهم، دون النظر لأي اعتبارات أخرى، طالما أن ذلك في مصلحة المسلمين جميعا. وعلى هذا الأساس بدأ النبي ﷺ بتربيتهم على أهداف الإسلام ومبادئه، واستطاع أن يحقق نجاحاً ملحوظاً بهذا الصدد.

ومن خلال هذه الرؤية العقائدية السامية؛ نظر الرسول ﷺ للقضية اليمنية. خاصة وأن "الأبناء" الفرس تعهدوا له بحكم البلاد وفق الشريعة

(1) تشير بعض الدراسات أن هذه القاعدة تم تجاوزها في اجتماع السقيفة. ويذهب الدكتور عبد السلام نور الدين في دراسته (العقل والحضارة) إلى أن العصبية القائمة على الدم "الأئمة من قريش قد وضعت في مواجهة الأخوة القائمة على الدين، ووضعت الأفضلية القائمة الإقليمية أو السبق للإسلام أو تأخره (منا أمير ومنكم أمير) في مواجهة الأفضلية القائمة وهي التقوى". نقلا عن: د. هشام محسن السقاف ـ الإسماعيلية في الميزان، سبأ، العدد ـ 10 ـ، يوليو، 2002، ص140.

(2) تاريخ ابن خلدون، ج3، ص4.

الإسلامية. وقد تحدث د. جعفر الظفاري بهذا الخصوص قائلا.. " وقد كان موقف الأبناء في هذه الفترة ضعيفاً ومزعزعاً، كما تدل عليه بعض حقائق تتصل بحركة الأسود العنسي عليهم في السنة العاشرة من الهجرة. فهل اشترط باذان، فيما اشترط، على سيدنا محمد ﷺ في شمال الجزيرة. أن يكون له سنداً ضد أي ثورة يقوم بها أعداؤه ومنافسوه من أقيال اليمن وقبائلها؟ وهل استجاب الرسول لهذه الشروط؟.

ويستطرد الظفاري في هذا الخصوص: "وفي خضم الحوادث التي جرت في اليمن نقع على خبر مثير مفاده بأن أبا العباس السفاح، أول خليفة عباسي استعمل علي بن الربيع عاملاً على اليمن، وفي أيامه كان التشاحن بين الأبناء وأهل صنعاء.. فوكل أهل صنعاء عمر بن ثمامة، ووكل الأبناء إبراهيم بن مراس. فأخرج إبراهيم كتاب الرسول ﷺ وقد اثبت بأن صنعاء للأبناء. فقال عمر بن ثمامة أنه يكفر بهذا الكتاب فغضب علي بن الربيع، وضربه خمسة وسبعين سوطاً. ولعل في هذا النص كفاية للتدليل على أن باذان كان حصيفاً في استخراجه عهداً مكتوبا من الرسول ﷺ بأن صنعاء وما حواليها ستبقى في يد الأبناء في ظل الدولة الإسلامية الوليدة "[1].

الجدير ذكره بهذا الخصوص أن عدداً من الدراسات التاريخية التي أيدت وجود مثل ذلك الاتفاق بين رسول اللّه ﷺ وبين باذان قد ذكرت بأن الاتفاق بين الجانبين نص على بقاء الأبناء في حكم المنطقة اليمنية في عهد باذان فقط[2]؛ وعليه يمكننا القول بأن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا بمختلف إجراءاتهم يسعون من أجل بناء دولة إسلامية قوية. لهذا وافق النبي ﷺ على إبقاء باذان حاكما على المنطقة اليمنية، في ظل الدولة العربية الإسلامية خصوصاً بعد أن تأخر الأمراء اليمنيون في إعلان إسلامهم، والانضمام تحت رايتها.

من هذا المنطلق كان النبي ﷺ يود أن يجعل من باذان وحلفائه جبهة قوية، في وجه التيار المعادي له. هذا من جهة ومن جهة أخرى أراد أن يؤكد للجماهير الفارسية التي تعاني من الاضطهاد الطبقي، فضلاً عن الشعوب الواقعة تحت نير الاحتلال الساساني، بأن سياسة الدولة الإسلامية تقوم في مجمل

---

(1) د. جعفر ظفاري: عقدة اللون الأسود ومسألة الوجود الفارسي في اليمن بعد الإسلام، الثقافة الجديدة، العدد ـ 2 ـ ، 3/ 1974، ص35.

(2) انظر: احمد عطية اللّه: القاموس الإسلامي، ج1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963، ص 249.

أهدافها ومبادئها، على تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية الحقيقية لمختلف الشعوب التي تدخل في إطار الدولة الإسلامية.

وفي ضوء هذا كانت اليمن هي الميدان الفعلي لإبراز هذه السياسة بحكم ظروفها المتميزة عن بقية المناطق في الجزيرة العربية.

لكن اليمن؛ ونتيجة لظروفها الاجتماعية ـ السياسية في ظل الاحتلال الأجنبي ـ الحبشي الفارسي ـ لها، وكذا مخلفات الجاهلية؛ وما ترتب عليها من انضمام قاعدة واسعة من الجماهير القبلية، التي لم يترسخ الإيمان بداخلها للّه ورسوله، ولم تتفهم تعاليم الإسلام وأهدافه، لحركة الردة، لأنها لم تتمكن من أن تفقه فحوى تلك الإجراءات، فكان بقاء الأبناء في حكم المنطقة اليمنية، يعني استنفار هذه القوى، التي أغضبها قرار الدولة الإسلامية بهذا الشأن، لذا كان لابد من تصادم هاتين القوتين خصوصاً وان أعداء الدولة الإسلامية أُخذوا يروّجون الشائعات بأن الزكاة التي تأخذ من اليمنيين ـ، قد تحولت إلى نوع من الإتاوة أو الضريبة، وأن جبايتها تناقض أحاديث النبي ﷺ ونصوص آيات القرآن بهذا الصدد، فبدلاً من توزيعها على الفقراء والمحتاجين، وهم القاعدة العريضة من الشعب، كانوا يقومون بإرسالها إلى المدينة.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الواقع يجعلنا نقف على طرفي نقيض من الرأي القائل بأن الدولة العربية الإسلامية، حاولت فرض الوصاية الأجنبية على المنطقة اليمنية. خاصة وأن الرسول ﷺ كان يدرك أهمية انطواء اليمن إلى الدولة الإسلامية لبنائها نظام الدولة، ولخبرة أهلها في شؤون الحكم والاقتصاد والسياسة والإدارة، وهي بهذا عكس مكة، التي كان " الملأ المكي" نواة أولية للدولة، بينما كانت المدينة تتنازعها العلاقات القبلية ـ العشائرية فضلاً عن التناحرات الدينية بين الوثنيين من جانب، واليهود من جانب آخر.

وبصدد إنشاء سلطة مركزية كانت الشريعة الإسلامية هي الدستور الشرعي للدولة في زمن النبي محمد ﷺ والخلفاء الراشدين..، في هذا العهد كانت أعمال الخلفاء مقيدة بأحكام الكتاب والسنة، وما أدى إليه اجتهادهم في الأمور المسكوت عنها في هذين الأصلين، واعتبرت أعمال الخلفاء الراشدين فيما بعد من مصادر التشريع[1].

---

(1) د. عصام الدين عبدالرؤوف: اليمن في ظل الإسلام، ـ منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول ـ، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1982، ص 27.

الفصل الثاني

حركة الردّة في اليمن في صدر الإسلام

أولاً: أسباب حركة الردّة.

ثانياً: حركة عبهلة بن كعب العنسي.

1 ـ أسباب سقوط حركة عبهلة بن كعب.

2 ـ تقييم حركة عبهلة بن كعب العنسي.

ثالثاً: الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ وحركة الردّة في عهده:

1 ـ حركة قيس بن مكشوح.

2 ـ حركة عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

3 ـ عمرو بن معدي كرب الزبيدي في عهد الفتوحات.

4 ـ حركة الأشعث بن قيس الكندي.

حركة الردّة في اليمن في صدر الإسلام

انطلقت القوى الإسلامية في جهادها منذ هجرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام إلى المدينة، وقد جسّد المسلمون الأوائل مبدأ الجهاد من خلال تأسيس الدولة العربية الإسلامية في هداية آيات اللّه سبحانه وتعالى لقوله: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**[1]. وقوله تعالى أيضاً: **﴿قاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين﴾**[2]، بعد أحداث عظيمة مثل غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، وغزوة أُحد في السنة الثالثة للهجرة، وغزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة، وفتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وغزوة حنين والطائف في أول شوال من السنة الثامنة من الهجرة، وغزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة التي تمخض عنها توحيد شبه جزيرة العرب في إطار الدولة العربية الإسلامية.

ولكن بعد وفاة الرسول ﷺ وبروز الخلاف بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، تجرأت القبائل العربية في مختلف أنحاء شبه الجزيرة على إعلان ارتدادها الديني ضد الدولة العربية الإسلامية، مما كان يعني أن حركة الردّة منذ أواخر عهد الرسول ﷺ شكّلت دوامة خطيرة حاولت ابتلاع الدولة الإسلامية.

وفي ضوء هذا لا يسعنا تقييم تلك الأحداث التي عرفتها المنطقة في تلك المرحلة، إلاَّ باعتبارها حركة ردّة انطلاقاً من المفهوم الذي تتظافر عليه كتب التشريع الإسلامي، وهو أن الردّة تعني قطع الإسلام بنية كفر أو قول كفر أو فعل كفر، سواء كان القول مزاحاً، أو استهزاءً، أو عناداً، أو اعتقاداً. وسواء كان الفعل إثباتاً للفعل أو امتناعاً عنه، فمن جحد حكماً من أحكام الإسلام مجمعاً

(1) سورة البقرة الآية 216.

(2) سورة البقرة الآية 190.

كان كمن جحد جميعه، ومن نصب الحرب في منع فريضة، أو منع حق يجب عليه لآدمي وجب قتاله. ويصبح ـ بهذا المفهوم ـ الفرد والجموع مرتداً إذا ما حصل منه ما يقتضي ذلك المفهوم، وهذا نابع أيضاً من المفهوم العام لدار الإسلام ولدار الكفر، لان الإسلام يقسم الأرض إلى دارين لا ثالث لهما: فدار الإسلام هي الأرض التي نزلها المسلمون، وجرت عليها أحكام الإسلام ـ وإن كان أغلب سكانها من غير المسلمين ـ ودار الحرب أو دار الكفر هي الأرض التي لا تجري عليها أحكام الإسلام وإن كان أغلب سكانها من المسلمين. وإذا جرت أحكام المرتدين على بلاد صارت دار حرب في اغتنام أموالهم وسبي ذراريهم[1].

وعلى الرغم من ذلك نجد الكثير من الدراسات لا تصنف أحداث المعارضة ضد الدولة الإسلامية الناشئة بأنها ردّة عن الإسلام، خاصة وان الوثائق السياسية ـ أيام النبي وأبي بكر ـ لم تُسَمِّ المعارضين لحكومة المدينة " بمرتدين". عدا وثيقة وردت بعيد انتهاء معارك حكومة المدينة ضد المعارضين في الجزيرة العربية. والنبي ﷺ يسمّي أحداث المعارضة في اليمن " كيد.. معرة". وفي أيام أبي بكر تشير الوثائق السياسية إلى" رجعة عن الإسلام". أما كلمة " ردّة " فقد صيغت بعناية بعد انتهاء الأحداث. واشتهرت بعد ذلك في المصادر العربية القديمة.

والخليفة علي بن أبي طالب ـ إبان خلافته ـ سمّى حركة التجار في صنعاء والجند؛ وامتناع بعض أهالي اليمن من دفع الصدقة " خروج هذه الخارجة، ولم يسمّها "ردة"[2].

ليس هذا فحسب بل يذهب د. السيد عبدالعزيز سالم أبعد من ذلك قائلا.. " كانت حركة الردّة؛ حركة سياسية اتخذت من الدين قناعاً زائفاً، وكانت تستهدف الاستقلال عن سلطان المدينة أو المطالبة بملك وسلطان، وبدليل أن العدد الأعظم من المرتدين اعتبروا الزكاة نوعاً من الإتاوة التي يؤديها المغلوب إلى الغالب، فطالبوا إعفاءهم منها، أو التمس بعضهم من وراء انتحال النبوة نوعاً من الرئاسة السياسية المنافسة لقريش، وقد أيدت المتنبئين قبائلهم تعصباً فحسب دون أي اعتبار آخر"[3].

---

(1) د. عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: تاريخ اليمن في الإسلام، مرجع سابق، ص 85 ـ 86.

(2) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 215.

(3) د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص 440.

ونستدل من ذلك أن حركات المعارضة لحكومة المدينة، كانت تسعى لتحقيق الاستقلال الاقتصادي ـ السياسي، بعد أن أحست بأن مختلف الإجراءات التي اتخذت بشأنها، أصبحت تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهلها. ومن جهة أخرى كانت هذه الحركات تريد أن تعيد عجلة التاريخ إلى الوراء، عن طريق عودتها للحياة القبلية ـ الجاهلية ـ التي عرفتها الجزيرة العربية قبيل الإسلام، باستثناء المنطقة اليمنية التي عرفت سمات الدولة بكل معانيها منذ عهود سحيقة في القدم.

أولاً

أسباب حركات الردّة

هذا وتوجد أسباب عامة لردة العرب عامة واليمنيين خاصة، منها العامل الاقتصادي، الذي كان سبباً للمعارضة لعزوف أفراد القبائل عن دفع الصدقة، حيث خاطب أحد الراغبين في منع الصدقة الخليفة أبا بكر قائلا... " إن العرب لا تطيب لك نفساً بالإتاوة (الصدقة)، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع. وأن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم". وتعللت بعض القبائل المعارضة لخلافة أبي بكر قائلة " واللّه ما رجعنا عن الإسلام، ولكن رجعنا عن أموالنا".

وينظر علي عبد الرزاق لموقف القبائل السابق قائلا: "ولعل بعض أولئك الذين حاربهم أبو بكر لأنهم رفضوا أن يؤدوا إليه الزكاة، لم يكونوا يريدون بذلك، أن يرفضوا الدين وان يكفروا به، ولكنهم رفضوا الإذعان لحكومة أبي بكر، ومن البديهي أن يمنعوا الزكاة عنه، لأنهم لا يعترفون به ولا يخضعون لسلطانه". وهكذا فقد جاب جنود الخلافة الجزيرة العربية وهم يسألون "أين من يمنع الصدقة منا"، إذ كان دفع الصدقة محور إعادة العلاقة بين القبائل والخلافة في المدينة. فالقبيلة التي تدفع الصدقة تعتبر مسلمة، والتي تمنعها مرتدة عن الإسلام، ويتضح الدور الكبير الذي شغلته قضية الصدقة من خلال تتبع ثورات القبائل اليمنية خاصة والعربية عامة ضد خلافة أبي بكر. أما العامل الاجتماعي؛ فقد شكلت المجتمعات الزراعية في اليمن واليمامة أعنف مناطق المقاومة الإسلامية، كونها مجتمعات محافظة في تقاليدها وطريقة معيشتها، ولها عقيدتها المرتبطة بأوضاعها الحياتية[1].

---

(1) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 217.

ثانياً

حركة عبهلة بن كعب العنسي

قامت في أواخر عهد النبي ﷺ حركة ارتدادية واسعة في اليمن، ضد الدولة العربية الإسلامية، استمرت حتى أواخر عهد أبي بكر. وقاد هذه الردّة كل من عبهلة بن كعب المعروف بـ" ذو الخمار " أو" الأسود العنسي" وقيس ابن مكشوح، وعمرو بن معد كرب الزُبيدي، والأشعث بن قيس الكندي.

ولم تكن هذه الردّة وليدة الصدفة، وإنما لها جذورها في الواقع، بفعل قساوة الاستغلال والجور، الذي مارسه بعض ممثلي الدولة الإسلامية في اليمن؛ خاصة وأن اليمن كانت قبل دخولها في إطار الدولة الإسلامية الجديدة تعاني من وطأة الحكم المزدوج للأرستقراطية الفارسية والأرستقراطية المحلية المتحالفة معها.

وعلى هذا الأساس عانت العامة من نير التناقضات الطبقية داخل المجتمع، مما أدى إلى التذمر الواسع بين أوساط الأهالي، وهذا ما ساعد على انتشار الإسلام في ربوع اليمن، مما يؤكد أن قاعدة عريضة من القوى الاجتماعية ظلت حديثة الإسلام[1]، ولم تفهم أهمية الإجراءات، بل والظروف التي أحيطت بها الدولة العربية الإسلامية آنذاك. لهذا اعتقدت تلك القوى أن النظام الجديد لا يختلف تماماً عن النظام القديم، بل وسائر على نهجه الطبقي القائم على الاستبداد، دون النظر لأحوال الأهالي الاقتصادية السيئة.

وإذا أمعنا النظر في عوامل الحركات الارتدادية في اليمن، نلاحظ أنها تمت بصورة تلقائية ومن دون تنظيم أو تدبير مسبق، حيث اشتعلت أوارها كرد فعل للإجراءات التي تم اتخاذها من قبل بعض الولاة في اليمن.

وقد حاولت حركة الأسود العنسي تبرير ارتدادها عن الإسلام من خلال بعض الشعارات الوطنية البراقة مثل القضاء على بقايا "الأبناء" في المنطقة اليمنية، ومن ثم الضغط على حكومة المدينة، حتى تتراجع عن قرارها بشأن استمرار ولاية " الأبناء " بشكل مباشر. فضلاً عن أنها نظرت إلى الزكاة، وكأنها ضريبة يقدمها شعب ضعيف لشعب قوي، لهذا كتب الأسود العنسي لحكومة المدينة قائلا.. " أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من

---

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص 115 ـ 125.

أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه"[1].

ونستدل من ذلك بأن أهداف حركة عبهلة بن كعب تتلخص بما يلي:

1 ـ التحرر من السيطرة السياسية الفارسية (الأبناوية).

2 ـ التحرر من الأعباء الاقتصادية في عهد الدولة الإسلامية.

وفي هذا السياق نظر عبهلة بن كعب لهاتين القضيتين على أنهما قضية واحدة يؤدي النضال في إحداها إلى النضال في الأخرى. وكان من الطبيعي أن تجد أهداف الأسود العنسي صداها الواسع لدى جماعات قبلية لم تدخل الإسلام إلاً لتحقيق أهدافها، والتي يسميها الطبري " العوام"، لأنها لم تتفهم حتى ذلك الحين ماهية الإسلام وحدوده ولم يترسخ إيمانها به بعد[2].

وهنا يجدر بنا التوقف قليلاً، حتى نتمكن من معرفة هوية عبهلة بن كعب " الأسود العنسي" لان ذلك سيجعلنا نحدد أهداف حركته الارتدادية عن الإسلام. أما بخصوص ما تردد عن عدم اعتناقه الإسلام لا يمكننا أن نوافق بأن عبهلة بن كعب والقوى التي آزرته ظلت على حياة " الجاهلية " ولم تعلن إسلامها إلى ذلك الوقت، خصوصاً وان شهاب الدين النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب؛ أكد أن وفد عنس كان ضمن الوفود، التي قابلت الرسول ﷺ . وأعلنت إسلامها على يده، بل إن الرسول نفسه امتدح إسلام بعض رجال عنس[3].

وقد انطلقت حركة الأسود العنسي «من الجنوب، ولكن سرعان ما انتصر على العمال من الفرس، وغزا "نجران" وهزم ابن "باذان" العامل الفارسي السابق؛ وقتله، ثم استولى على العاصمة "صنعاء"، ودانت لـه جميع بلاد العرب الجنوبية الغربية»[4].

---

(1) الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ ، مرجع سابق ـ ص148.
ومن المعروف أن عدن أيضا كانت تدفع زكاتها نقداً وعيناً خاصة من الأقمشة والثياب التي اشتهرت بها المدينة. انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، دار الفكر، بيروت، 1955، ص 80 ـ 81.

(2) انظر محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، الطبعة الرابعة، دار الفكر، 1973، ص 18 ـ 19.

(3) شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري: مصدر سابق، السفر التاسع عشر، ص 49ـ 50.

(4) مصطفى أبو ضيف: دراسات في تاريخ العرب " منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين"، مؤسسة شباب جامعة، الإسكندرية، 1982، ص 139 ـ 140. كذلك بخصوص تسمية الأسود العنسي، انظر د. عبدالسلام الترمايني: أزمة التاريخ الإسلامي، ج1، م2، مراجعة وتحقيق د. شاكر، د. شاكر مصطفى، د. احمد مختار العبادي، الطبعة الأولى، الكويت، 1982، ص 526، انظر كذلك: الأمام البلاذري، فتوح البلدان، ص 113.

وقد تحدث شهاب الدين النويري بهذا الخصوص: ". . تمكن عبهلة بن كعب من السيطرة على منطقة واسعة تمتد من حضرموت جنوباً إلى الطائف شمالا، ومن البحرين والإحساء شرقاً إلى عدن غرباً، واستتب الأمر له بعد قتله واليها شهر بن باذان"[1]. كما تمكن عبهلة بن كعب من السيطرة على لحج وأبين، مما اضطر الهاربين من الولاة المسلمين إلى التوجه صوب حضرموت.

وقد ذهب شهاب الدين النويري أبعد من هذا؛ عندما قال بأن عبهلة بن كعب: "خرج في عامة مذحج، بعد حجة الوداع، من كهف خبان ـ وهي كانت موطنه وداره ـ فكاتبته مذحج وواعداه نجران فوثبوا عليها، وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص، ثم أنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك فأجلاه، ونزل منزله، فلم يلبث عبهلة بنجران أن سار إلى صنعاء ومن ثم إلى عمان وإلى الطائف"[2].

وأول عمل قام به عبهلة بن كعب بعد الاستيلاء على صنعاء هو فتح الطريق التجاري المهم بين صنعاء وعدن، إذ أرسلت على وجه السرعة كتيبة " الردّة" التي اشتهرت فيما بعد باسم "اللحجية" ـ نسبة إلى مدينة لحج ـ والتي استقرت فيها لهذا الغرض.

لكن حركة " الردّة " ارتكبت أخطاء سياسية وتكتيكية من قبل العنسي؛ تمثلت في الإبقاء على الفئة الأرستقراطية الفارسية كممثلة للأبناء، لها حجمها الاجتماعي في صنعاء، وثانيها إرسال معظم القوات إلى جنوب اليمن راغباً فرض سلطته على هذه المناطق الزراعية التجارية المهمة، هذان الخطان أتاحا فرصة التآمر للأبناء وقيس بن مكشوح المرادي وجماهير اليمنيين ممن ظلوا متمسكين بالإسلام للتخلص من عبهلة بن كعب نهائياً والاستيلاء على صنعاء، كما لم تتعدَ إجراءات عبهلة ضد الأبناء قتل شهر بن باذان. فالمصادر لم تشر البتَّة إلى قيام عبهلة بتهجير الأبناء من صنعاء، أو القيام بمصادرة أراضيهم، بل على العكس تعامل مع الفئة الأرستقراطية الفارسية ومن أبرز ممثليها: داذوية وفيروز وجشيش، والعلاقة بين عبهلة والأبناء مشهورة تباهى بها فيروز الديلمي عندما خاطب عبهلة قائلا: "اخترنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء".

ويبدو أن حاجة عبهلة إلى الخبرة الإدارية والسياسية لزعامة الأبناء، قد

(1) النويري: مصدر سابق، السفر الثامن عشر، ص 103.

(2) انظر: النويري: مصدر سابق، السفر التاسع، ص 352.

جعلته يتعامل معهم لأنه يعتبر فيروز الديلمي ـ حسب، قوله ـ أكبر من هاهنا (أي من في صنعاء، (وأعلمهم بأشراف أهلها".

وقد جاء " تأييد العامة لردة عبهلة، لكونها رفعت شعارات جزئية تطالب بإلغاء " الضرائب" على المحاصيل الزراعية، وأسقطت رأس النظام الفارسي رمز الظلم بالنسبة لها. في الوقت ذاته كانت إجراءاته الاجتماعية ـ الاقتصادية غامضة، ولا تعرف سياسته الإدارية تجاه الأراضي الزراعية، ونظام الضرائب الذي اتبعه على الفلاحين..

والحقيقة أنه لا يمكن مطالبة ردّة مذحج بحل مشكلة اجتماعية، والقيام بمصادرة أراضي كبار الملاك من الأبناء وتوزيعها على الفلاحين، أو إلغاء الضرائب عن كاهلهم، لأن الظروف السياسية والدولية وغايات قبيلة مذحج والعصر الذي عاشته، فرض عليها أن تتصرف حسب منطلقات مصلحتها، واستجابة لأسباب وعوامل تعانيها فعلاً وتؤثر على حياتها"[1].

ولما استفحل أمر عبهلة بن كعب وعظمت قوته؛ أمر النبي ﷺ أن يعمل "الأبناء" وبقية اليمانية الذين توجد لديهم رغبة في مساعدة حكومة المدينة من أجل التخلص من عبهلة بن كعب " إما غيلة " وإما مصادمة"[2].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم؟! مفاده لماذا لم يرسل النبي ﷺ جيشاً للقضاء على هذه الحركة، إن كان مقتنعاً بأنها بما تضمه من أخلاط متعددة، وعناصر متباينة من مختلف القوى القبلية باعتبارها حركة ردّة عن الإسلام، هذا جانب، ومن جانب آخر لماذا اختار " الأبناء " بزعامة فيروز الديلمي إبلاغ هذا الأمر لقيس بن مكشوح وهو القائد العام لجيوشه؟

تكمن الإجابة على هذا التساؤل في اعتقادنا من خلال معرفة النبي محمد ﷺ وأصحابه في المدينة، بأن هذه الردّة كانت تضم شريحة واسعة من الناس، لم تكن تسعى إلاً لإبعاد " الأبناء" عن، السلطة وأن يتمكنوا من حكم أنفسهم بأنفسهم خاصة وأن عبهلة بن كعب نفسه كان قد أطلق على نفسه لقب (رحمان اليمن)[3].

(1) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 222 ـ 224.

(2) ومن الثابت تاريخيا أن الرسول ﷺ كان يلجأ لأسلوب الاغتيال السياسي ضد الذين يخططون لأعمال عدوانية للإضرار بالإسلام. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1978، ص 50 ـ 51. انظر كذلك: ابن هشام: السيرة النبوية، ط2، ج3، ص 273 ـ 275.

(3) عرف الأسود العنسي بـ (رحمان اليمن)، وقد اختلف المؤرخون في اصل هذه التسمية. =

ومهما يكن من الأمر، فإن اغتيال عبهلة على يد قيس بن مكشوح، قد حسم الوضع لصالح أنصار الإسلام، فقد أدى الاغتيال بدوره إلى نجاح الانقلاب بسرعة وبأقل كلفة، مما أغنى عن حروب طويلة كانت ستكلف الدولة الإسلامية ما كلفه القضاء على حركة مسيلمة من ثمن باهظ، لا سيما وأن عبهلة أثبت أنه يتمتع بقدرات كبيرة، لعلها هي التي أجمعته أن يضع نفسه نذاً لحكومة المدينة[1].

وبمقتل العنسي يقود قيس بن مكشوح (ت37هـ) حركة الردّة، خاصة بعد أن عين أول خليفة في الإسلام ـ أبو بكر الصديق ـ فيروز الديلمي عاملاً على اليمن خلفاً لباذان. ويكتب الصديق إلى قواده وبعض من أقيال اليمن: "أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدوا معه، فإني قد وليته". ويكتب قيس بن مكشوح إلى ذي الكلاع وأصحابه الذين أمرهم الصديق بمناصرة فيروز: " إن الأبناء نزاع في بلادكم، وثقلاء فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأي أن أقتل رؤساءهم، وأخرجهم من بلادنا " فلم يمالئه القوم، ولم ينصروا " الأبناء " واعتزلوا.

ونستدل من ذلك إن حركة الأسود العنسي جاءت في عهد النبي ﷺ، أي قبل حروب (الردّة) بزمن قصير، وقد وجهت جم غضبها على بقايا الفرس (الأبناء) الذين ظلوا كحكام على المنطقة اليمنية، وبهذا الخصوص تحدث عبدالباري طاهر قائلا.. " إن هذا التمرد كان موجها بالدرجة الأولى ضد النفوذ الفارسي ممثلاً في الأبناء" ـ فيروز ـ باذان ـ شهر ـ داوذيه ـ جشيش " زعماء الفرس الذين أقرتهم الدولة الإسلامية على بقائهم في الحكم بعد إسلام ـ باذان ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى الطموح لتحقيق نوع من الاستقلال الذاتي ممثلاً في الشعار الذي رفعه اليمنيون يومها " نحبس فضول أموالنا في أرضنا نأخذها من أغنيائنا ونوزعها على فقرائنا"[2].

= تشير بعض الدراسات بأنها تعود إلى أصول وثنية (الشوكاني: فتح القدير، ج3، دار الفكر بيروت، بدون تاريخ، ص266)، بينما تشير دراسات أخرى بان أصلها يعود إلى الحنيفية (د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص88). كما أشارت دراسات إستشراقية أخرى بان اسم الرحمان كان مرادفاً لاسم الموحدين للّه في جنوب الجزيرة العربية (أغناطيوس: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، دمشق، 1966، ص 61 ـ 119).

(1) محمود كامل: اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت، بيروت، 1968، ص138.

(2) د. جعفر ظفاري: مرجع سابق، ص 36.

والواقع أن شريحة واسعة من اليمنيين ممن انخدعت بشعارات الأسود العنسي، واعتقدت بأن تصرفها هذا يقع في إطار تعاليم النبي ﷺ ومبادئ القرآن الكريم فيما يخص مسألة الزكاة.

1 ـ أسباب سقوط حركة عبهلة بن كعب:

هناك جملة من الأسباب التي أدت في مجملها إلى سقوط حركة عبهلة بن كعب العنسي، هي:

1 ـ طموح عبهلة في الزعامة.. كان لطموح عبهلة في الزعامة أثر سيئ حال دون تنفيذ الأهداف التي من أجلها قامت الحركة، حيث بقيت أوضاع الأبناء كما كانت في السابق، باستثناء قتل زعيمهم، ، وتولي عبهلة أمر السلطة بدلاً عنه.

2 ـ كانت الحركة رغم نجاحها في ضم المناطق اليمنية تحت نفوذها، لا تعدو أن تكون تمرداً في إطار السلطة الإسلامية القائمة، نتيجة لطبيعة القوى القبلية المتعددة فيها، والتي كانت معظمها تأمل في أن تعترف لها حكومة المدينة بالسيادة على المنطقة، لهذا لم تسع لتحقيق الاستقلال الكامل عن حكومة المدينة، وأبلغ مثال على هذا أن عبهلة بن كعب لم يتمكن من اتخاذ موقف حاسم من فروة بن مسيك المرادي أحد عمال النبي ﷺ في منطقة مذحج.

3 ـ لم يكن للحركة برنامج اقتصادي ـ اجتماعي محدود، كما تميزت الحركة بأنها قامت بشكل عفوي، ، جعل عبهلة بن كعب يختار قيادته وأركان حربه، دون اختبار إخلاصهم، وإيمانهم للقضية التي يناضل في سبيلها.

2 ـ تقييم حركة عبهلة بن كعب:

تعاني المعلومات الواردة في كتب الأخباريين العرب المسلمين من التناقض، وعدم المنطقية في رصد الأحداث التي صاحبت قيام هذه الحركة، فمن جهة أضربت هذه الكتب عن ذكر أي معلومات تتطرق لماهية العلاقة التي ربطت الفرس (الأبناء) بحكومة المدينة، واكتفت بعض الكتابات بإلصاق هذه الحركة إلى مجمل حركات الردّة التي حدثت بعد ذلك في مناطق شتى في الجزيرة العربية. ومن جهة أخرى حاولت هذه الكتب تأكيد ادعاء النبوة من قبل عبهلة بن كعب، ولعل أبلغ مثال على ما ذهبنا إليه ما ذكره أبي سعيد الخدري قائلا.. سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب على منبره، ويقول: أيها الناس أني

قد رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها، ورأيت في ذراعي سوارين من ذهب، فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولهما هذين الكذابين صاحب اليمن وصاحب اليمامة[1].

وفي معالم التنزيل ذكر أنه ارتد في حياة النبي ﷺ ثلاث فرق، الفرقة الأولى بنو مذحج ورئيسهما الأسود العنسي، في القاموس ـ العنسي لقب زيد بن مالك بن أدد أبو قبيلة من اليمن ومخلاف بها، مضاف إليه، واسم الأسود عبهلة ابن كعب العنسي، ويقال لـه ذو الخمار بحاء معجمه لأنه يغطي وجهه بخمار، ويقال إن ذا الخمار اسم شيطانه، وكان يقال لـه ذو الحمار بالحاء المهملة لقب بذلك لأنه كان يقول يأتيني ذو خمار. وفي تفسير الكوراني لأنه كان له حمار إذا قال لـه قف وقف، قد ادعى النبوة باليمن في عهد النبي ﷺ فاتبع على ذلك، وكان كاهناً مشعوذاً يُري الناس الأعاجيب، ويسبي منطقه قلب من سمعه، وكان يزعم أن ملكين يكلمانه اسم أحدهما شهيق والآخر شريق، وكان لـه شيطانان اسم أحدهما سحيق والآخر شقيق، وكانا يخبرانه بالأمور الحادثة بين الناس فلما مات باذان الفارسي بصنعاء اليمن اخبراه بموته فسار إليها، واستولى عليها، وكان أول خروجه بعد حجة رسول اللّه ﷺ حجة الوداع"[2].

وإذا فتشنا في بطون كتب الإخباريين الأخرى بهذا الخصوص، فسنجد أن هذه المعلومات تعتبر نسخة طبق الأصل فيما يتعلق بنبوة الأسود العنسي، بينما تتباين وتتناقض فيما يخص نسبه وأتباعه من الحمير والشياطين والملائكة، فضلاً عما رافق تلك المعلومات من زيادة ونقصان بحجة التدقيق بصحتها، أو في تغير صيغ الروايات التي استقت منها تلك المصادر معلوماتها.

وفي ضوء هذا يتبادر إلى أذهاننا جملة من الملاحظات، يمكننا تحديد أهمها فيما يلي:

1 ـ لم ترصد لنا هذه الكتب وجود أي نوع من الاتصال بين عبهلة والنبي ﷺ، خاصة وأنها لا تورد معلومات عن أي نوع من المراسلة تمت بين

---

(1) للحديث روايات أخرى بهذا الخصوص، انظر: ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السلفية 1380 هـ ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة 1978، ص 213 ـ 214. انظر كذلك: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت 1969، ص 216 ـ 218.

(2) الإمام حسين بن محمد بن الحسين الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، بيروت، بدون تاريخ، ص 155 ـ 156.

الجانبين. على العكس من ذلك كانت حركة مسيلمة، حيث تؤكد الدلائل والمعلومات والرسائل المتبادلة بين النبي ﷺ ومسيلمة، أن زعيم اليمامة كان قد ادعى النبوة[1].

2 ـ لم تذكر هذه الكتب وجود أي نوع من "الكلام" لعبهلة بن كعب، أراد من خلاله دحض "كلام" القرآن الكريم. ومن المعروف أن كتب الأخباريين العرب المسلمين قد أوردت لنا "كلاماً" مليئاً بالسجع، على أنه "كلام" لمسيلمة أراد به منافسة الآيات القرآنية[2].

3 ـ إن الحديث حول أعاجيب عبهلة بن كعب فيما يتعلق بحماره المطيع، يكون مرده ربما معرفة عبهلة بعلم ترويض الحيوانات، خاصة وأن عبهلة سليل مجتمع حضاري عرف العلوم والآداب وفنون الحضارة، فلا يستبعد بعد كل هذا، من أن يقدم عبهلة على ترويض أحد الحمير. بينما يكون الحديث حول "الملكين" و"الشيطانين" الذين يأتونه بالأخبار، خالياً من أي منطقية ولا تعدو أن تكون مجرد افتراضات خيالية.

4 ـ إن قدرة عبهلة بن كعب، في إقناع شريحة واسعة من الجماهير القبلية التي قبلت بالإسلام دون وعي به أو إيمان بمبادئه، بآرائه، بل واستحواذه على اهتمامهم بهذه الآراء، ونضالهم من أجل تطبيقها، لا يكمن في "سحره" أو" أعاجيبه"، كما تدعي هذه المصادر، بل لأن منطقه؛ كان يتبنى أفكار العامة، التي كانت تطالب بمعالجة ذلك الوضع في تلك الحقبة من الزمن هذا من جانب، ومن جانب آخر كانت مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي مطالب الغالبية العظمى من هذه القوى.

5 ـ تميز التراث الشعري عند عمرو بن معد كرب الزُبيدي وقيس بن مكشوح وهم من كبار القادة في حركة الأسود العنسي، على أنه تعبير حي عن الصراع الدائر في ذلك العهد، الصراع اليمني الفارسي من جانب، والصراع القحطاني العدناني من جانب آخر.

---

(1) انظر: المقريزي: إمتاع الإسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، ج1، تحقيق محمد شاكر، القاهرة 1941، ص 515 ـ 538. ولمزيد من المعلومات حول دور سجاح في هذه الحركة، انظر: ابن قتيبة: المعارف، صححه وعلق عليه محمد إسماعيل الصاوي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1970، ص 404 ـ 406.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، بيروت، 1956، ص 355 ـ 356.

ثالثاً

الخليفة أبو بكر وحركة الردّة في عهده

بموت الرسول ﷺ وتولى أبي بكر منصب أول خليفة في الإسلام، ارتدت معظم قبائل شبه الجزيرة العربية، عن دفع الزكاة. لهذا قدمت وفود العرب إلى المدينة، تقرّ بالصلاة وتمتنع عن أداء الزكاة، ومنهم من امتنع عن دفعها إلى الصدّيق، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم**﴾، قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلاّ إلى من صلاته سكن لنا. وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، وبتآلفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم: ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه، فقال واللّه لو منعوني عناقا. وفي رواية: عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه ﷺ لأقاتلهم على منعها، إن الزكاة حق، واللّه لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة[1].

وفي هذا الخصوص تحدث خالد محمد خالد ـ أحد المتخصصين في الدراسات الإسلامية ـ قائلا.. " والحق أنها لم تكن ردّة كاملة عن الدين وإنما كانت " إضراباً " ، عن دفع الزكاة، لكن أبا بكر رآها ردّة، ورآها عجما لعود الإسلام بعد أن مات رسوله، ويومئذ ظهر رأيان: رأي يرى ألا يقاتل هؤلاء، ماداموا لم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة، وعلى رأس هذا الفريق " عمر بن الخطاب " . لهذا وجه عمر إلى الخليفة هذا السؤال: "كيف تقاتل قوما يشهدون ألا اله إلاّ اللّه، وقد أخبر الرسول ﷺ أن من قالها، فقد عصم دمه وماله " . . ؟[2].

كما تحدث الإمام الحافظ عبدالرحمن بن علي الديبع؛ فيما ذهبنا إليه قائلا: " الردّة التي نسبت إلى بعض القبائل؛ ليست نكوصاً عن الإسلام، أو رجوعاً إلى الجاهلية وإلى عرجونهم القديم، بل كانوا ثابتين على إسلامهم، وإنما هي ثورة على الأوضاع ولأسباب ولدتها الظروف، وكما يحدث عادة بعد حادث عظيم " [3].

---

(1) ابن كثير: البداية النهاية، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، بيروت، 1974، ص 311. ولمزيد من المعلومات عن ماهية حركة الردة " وطابعها الاجتماعي، انظر: د. حسين مروه: النزعات المادية في الإسلام، ج1، دار الفارابي، الطبعة الرابعة، بيروت، 1987، ص 404.

(2) خالد محمد خالد: خلفاء الرسول، نسخة مصورة، ليس عليها دار نشر، وبدون تاريخ، ص 76 ـ 77.

(3) ابن الديبع: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة، 1374هـ ، ص 50.

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن امتناع العرب عن دفع الزكاة، كان قضية القضايا، ومحور الخلاف بين عرب شبه الجزيرة وحكومة المدينة، والتي من أجلها قامت ما يسمى بحروب الردّة، وبشكل خاص في المنطقة اليمنية.

و"الزكاة" ركن من أركان الدين، جعلت في الأصل كعمل خير وبر؛ يوجه لذوي الحاجة، فكانت عملاً اختيارياً فقد ورد في القرآن الكريم.. " **﴿يَسْئَلونَكَ ماذا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أنفَقْتُم مِّن خَيْرٍ فلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ ومَا تَفْعَلوا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّ اَللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**[1]، ولكنها سرعان ما فرضت على المسلمين، وأصبحت الزكاة جبرية ولم ترد تفاصيل جبايتها في القرآن الكريم وإنما بينتها السنة، ولم يرد بالقرآن الكريم سوى أبواب صرفها"[2].

وهنا يتضح جلياً فحوى التعارض بين تعاليم الإسلام، فيما يتعلق بالزكاة أو الصدقة، وواقع الدولة العربية الإسلامية الناشئة، التي كانت بحاجة إلى المال لتموين حروب الفتوحات خارج شبه الجزيرة العربية. وهذا ما لم تفهمه القبائل الثائرة حينها. فقام " عدد من قبائل العرب في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية بخلع سلطان المدينة، وبطرد عمال الصدقات، مستهدفين من وراء ذلك التخلص من الزكاة التي اعتبروها إتاوة تحدّ من استقلالهم، والاكتفاء من الإسلام بالصلاة"[3].

وعلى الرغم من هذا صمم أبو بكر (على محاربة المرتدين حتى لا يضعف من جانب حكومة المدينة في تلك الظروف العصيبة، التي قد تشكل عامل إغراء لأعدائها، فيجتمعون من كل صوب لمحاربتها.

في البداية، كان على أبي بكر (أن يرسل حملة أسامة بن زيد لمحاربة البيزنطيين، حتى يؤكد للقبائل المتمردة ضد سلطة المدينة، أن جيوشه تستطيع ليس فقط القضاء على حركة الردّة، بل وتأديب البيزنطيين على التخوم.

وبعد عودة جيش أسامة بن زيد من مهمته خارج الجزيرة العربية، بدأ أبوبكر (بمراسلة عماله الموجودين على مقربة من مناطق الاضطرابات، من أمثال المهاجر ابن أبي أمية وعرفجة بن هرثمة بن الأزدي وعكرمة بن أبي جهل

(1) ـ سورة البقرة الآية 215.

(2) د. مصطفى أبو ضيف احمد: مرجع سابق، ص 142.

(3) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب: "تاريخ الدولة العربية، ج2، ص164.

وحذيفة بن حصن الغلفاني وشراحبيل بن سحنة الكندي فضلاً عن مراسلته للشخصيات والتجمعات القبلية في اليمن، التي عرفت بمواقفها الصلبة المناهضة لمظاهر حركة الردّة، لتنسيق جهودها من أجل دعم الجيوش الإسلامية في حربها لاستئصال دابر المرتدين[1].

وبدأ أبوبكر (يستعد لمحاربة المرتدين في شتى أنحاء شبه الجزيرة، لكن الخليفة أبا بكر كان يدرك تماما، أن ماهية الصراع الموجود في المنطقة اليمنية، ينبع بالأساس من الصراع حول السلطة، لهذا تعامل خليفة المسلمين أبو بكر (مع الزعماء المعارضين لسلطان المدينة، بكل حلم ورفق.

1 ـ حركة قيس بن مكشوح:

توفي الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وعماله على اليمن يومئذ ثلاثة: إبان بن سعيد بن العاص على صنعاء وأعمالها، ومعاذ ابن جبل الأنصاري على الجند ومخاليفها، وزياد بن لبيد البياض على حضرموت[2].

ويتضح مما ذكره المؤرخون أن الرسول ﷺ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى كان الإسلام قد انتشر في بلاد اليمن، ودانت له الغالبية العظمى من الناس، بدليل أن مبعوثي الرسول إلى بلاد اليمن لجمع الزكاة من المسلمين والجزية من الذميين ـ لم يلاقوا مصاعب في مهامهم، فبعث الرسول ﷺ في أواخر أيامه المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وعلي بن أبي طالب إلى نجران، فأدوا ما أمرهم به الرسول دون صعاب وعقبات، ولو كان الإسلام مزعزعاً وغير مستقر، ويلقى معارضة من اليمانية، لما استطاع مبعوثو الرسول ﷺ تأدية ما كلفوا به[3].

وبعد قيام حركة الردّة ومقتل قائدها الأسود العنسي، فإن قيس بن مكشوح أصبح في حكومة ثلاثية تدين بالولاء لحكومة المدينة. فكتب أبوبكر إلى عمر ذي مران، وإلى سعيد ذي زود، وإلى ذي الكلاع، وإلى حوشب ذي ظليم،

---

(1) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص 185.
انظر كذلك: القلقشندي: نهاية الإرب في معرفة انساب العرب، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص238 ـ 239.

(2) الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ: مرجع سابق، ص159.

(3) ابن الديبع: مصدر سابق، ص22.

وإلى شهر ذي يناف يأمرهم بالتمسك بدينهم والقيام بأمر اللّه، ويأمرهم بإعانة الأبناء على من ناوأهم والسماع لفيروز، وكان فيروز وداذوية وقيس قبل ذلك متساندين، فلما سمع قيس بذلك كتب إلى ذي الكلاع وأصحابه يدعوهم إلى قتل الأبناء، وإخراج أهلهم من اليمن، فلم يجيبوه، ولم ينصروه على الأبناء، فاستعد لهم قيس (وتربص لقتل رؤسائهم) وكاتب أصحاب الأسود المرتدين في البلاد سراً؛ يدعوهم ليجتمعوا معه فجاؤوا إليه"[1].

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول بأن انضمام قيس بن مكشوح لحركة عبهلة بن كعب، كان ينطلق أساساً من قاعدة العداء للفرس "الأبناء"، ولكن النبي ﷺ عندما أعطى أوامره بالقضاء على عبهلة، ظن قيس بأن حكومة المدينة بعد إحداث هذه الحركة ستعمل على إعادة حساباتها بهذا الشأن، الأمر الذي سيترتب عليه إقرار بالأمر الواقع وتعيّنه ضمن زعماء " الأبناء" في حكومة مشتركة لحكم المنطقة اليمنية.

ولكن عندما تأكد لقيس بن مكشوح، أن أبا بكر (مصمم على تطبيق سياسة حكومة المدينة بتعيين الأبناء كحكام على المنطقة اليمنية، ثار قيس ضد السلطة السياسية ـ العسكرية التي يمثلها " الأبناء" وحكومة المدينة، وآزرته ـ كما أكد ابن خلدون ـ جماهير مذحج، لهذا تمكن قيس من هزيمة الأبناء وطردهم من مختلف المناطق ـ "من البر والبحر"[2]. خاصة وأن تعيين فيروز الديلمي والياً على صنعاء من قبل أبي بكر (قلب الأمور رأساً على عقب، ليس فقط بالنسبة لقيس بل لفروه بن مسيك وخالد بن سعيد بن العاص، وربما فسر هذا الموقف تصرف خالد بن سعيد بن العاص اللاحق في عدم مبايعة أبي بكر (عند عودته إلى المدينة[3].

ليس هذا فحسب، بل تؤكد رسالة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، أن الدولة العربية الإسلامية كانت تتوقع تصاعد أحداث المعارضة ضدها من قبل الكثير من القوى القبلية والسياسية بعد توليه الخليفة لفيروز الديلمي.

وتأسيساً على ذلك نجد أن الخليفة (يبدأ رسالته في تعيين فيروز الديلمي كوال على صنعاء بدعوته القبائل اليمنية وشيوخها والقوى الأخرى، التي ناصرت

(1) د. عصام عبدالرؤوف: مرجع سابق، ص 35.
(2) ابن خلدون: مرجع سابق، ص 492.
(3) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 226.

الدولة الإسلامية في محنتها أثناء بروز عبهلة بن كعب، أن عليها مواصلة جهودها، والتصدي لأي قوى أخرى ـ قبلية أو سياسية ـ ستحاول مناهضة سلطة "الأبناء"، ناهيك عن الامتثال الكامل لمشيئتها كسلطة شرعية تمثل الدولة الإسلامية في المدينة.

وقد وصف د. عصام الدين عبد الرؤوف حركة قيس بن مكشوح قائلا: "على أن أكثر حركات الردّة شدة في بلاد اليمن، كانت بزعامة قيس بن عبد يغوث بن مكشوح، ذلك أنه على الرغم من تآمره على الأسود العنسي، إلاَّ أنه كان يعتنق مبادئه وتعاليمه، ويرى ضرورة طرد الأبناء من اليمن، فكتب إلى بعض كبار اليمانية يستحثهم على الانضمام إليه في حركته، والتخلص من الأبناء وطلب من الجميع الوقوف إلى جانبه في طرد الأبناء"[1]، ولإثبات زعامته لقوى المعارضة لحكومة المدينة هذا من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يؤكد للجميع أنه جاد في نضاله ضد الدولة الإسلامية، قام بتدبير عملية اغتيال لزعماء الأبناء، ولكن فشل هذه المحاولة، ساعد فيروز الديلمي على الاستنجاد بالقبائل اليمنية المناصرة له مثل عقيل وعك، بالإضافة إلى استقباله جيوش الدولة العربية الإسلامية.

وقد ساهم كل هذا في هزيمة جموع المرتدين،الذين يقودهم قيس بن مكشوح، " فانقلب إلى خولان ومراد، حيث ظل يرقب مجرى الحوادث عن كثب، فلما جاءت القوات من أبي بكر يقودها قواد محنكون، استسلم للأمر الواقع، وحاول الأبناء الاقتصاص منه فلم يفلحوا. وبعث أبوبكر (إبان إلى اليمن، فكلمه فيروز في دم داوذيه الذي قتله قيس بن مكشوح، فقال إبان قتلت رجلاً مسلماً فأنكر قيس أن يكون داوذيه مسلماً، وإنما قتله بأبيه وعمه فخطب إبان فقال: إن رسول اللّه ﷺ قد وضع كل دم في الجاهلية، فمن أحدث في الإسلام أخذناه به. ثم قال إبان لقيس الحق بأمير المؤمنين عمر (وأنا أكتب أني قضيت بينكما، فكتب إلى عمر فأمضاه"[2].

إن إطلاق سراح قيس بن مكشوح، بعد تبرئة ساحته، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن اعتناق الأبناء للإسلام، كان لأغراض سياسية محضة،

---

(1) د. عصام الدين عبدالرؤوف: مرجع سابق، ص 42.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص 55، كذلك انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، 266، بخصوص تسمية قيس، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص 586.

بينما هم في الواقع لم يكونوا مسلمين حتى تلك اللحظة، وقد تأكد إبان مبعث حكومة المدينة للتحقيق في هذا الأمر، من صدق قيس بن مكشوح فيما يتعلق بهذه المسألة، لهذا أخلى سبيل هذا الزعيم اليمني[1]. فشارك في حركة الفتوح الإسلامية وقد خلفت لنا كتب التاريخ معلومات وفيرة عن إقدامه وشجاعته في أهم المعارك الحاسمة التي شهدتها الجيوش الإسلامية في فارس والعراق والشام.

2 ـ حركة عمرو بن معد كرب الزُبيدي:

كان عمرو بن معد الزُبيدي من أوائل الزعماء اليمنيين من بني زبيد[2]، الذين أعلنوا إسلامهم على يد الرسول ﷺ. لكن جملة من العوامل دفعت بعمرو بن معد لإعلان حركته الارتدادية على الأوضاع السائدة، لهذا آزر عبهلة ابن كعب في حركته، بل وكان نائبه في مذحج معقل الردّة. وبقي عمرو على ولائه لعبهلة العنسي حتى بعد اغتياله[3].

وحقيقة الأمر في هذا السياق، لم يكن ظلم الأبناء واستبدادهم بالسلطة سبباً كافياً لاستنفار عمرو بن معد الزُبيدي، بل كان لسياسة التعسف والقهر، التي مارسها عمال حكومة المدينة، أثر كبير في ارتداده عن الإسلام، وقد أنشد عمرو بن معد بهذا الخصوص قائلا:

وجدنا ملك فروه شر ملك ... حماراً ساف منخرة بثفر

---

(1) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: د. علي اكبر فياض، د. عبدالوهاب علوب: تاريخ الجزيرة العربية والإسلام، مركز النشر لجامعة القاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1993، ص 137.

(2) والمعروف أن زبيد جزء من تهامة.. وتنقسم تهامة إلى ثلاثة أقسام.. الأول ـ تهامة الشمالية وتسمى تهامة الحجاز وتمتد من العقبة إلى الليث.. الثاني ـ تهامة الوسطى وتسمى تهامة عسير اليمن، وتمتد من الليث إلى شرجة جازان.. الثالث تهامة الجنوب وتسمى تهامة اليمن وتمتد من شرجة جازان إلى باب المندب. لكن هذا الشريط الصحراوي يسكنه عرب خلص تمتاز حياتهم بدماثة الأخلاق والجلد والصبر والتحمل لعواصف وتغيرات الطبيعة على مدار السنة، فتهامة الأولى سكنتها قبيلة يمنية تسمى جرهم، والثانية قبائل خولانية وكنانة والازد. وبنو النجم. وآل ورقة بن شهاب. ومن أبناء معد كرب عمرو ودخار. وسردد وبه سمي وادي سرر الذي سكنه بنودهن. انظر عبدالرحمن الحضرمي: تهامة في التاريخ، مجلة الإكليل، العدد ـ 2 ـ ، صنعاء، 1980، ص41.

(3) لمزيد من المعلومات حول موقف عمرو من اغتيال الأسود العنسي، انظر: عبدالبارى طاهر: عمرو بن معد كرب الزبيدي في العصر الإسلامي، ص30.

وكـنـت إذا رأيـت أبـا عـمـيـر ترى الحولاء من خبث وغدر[1]

ليس هذا فحسب، بل أن استمرار أبي بكر (في توليه الفرس على اليمن، كان قد استفز عمرو بن معد كرب الزُبيدي وزاد الطين بلة، أن نظام الزكاة أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهل شريحة واسعة من الجماهير اليمنية، التي تعيش ظروفاً اقتصادية ـ اجتماعية متخلفة ومزرية، خاصة وأن طريقة جباية هذه الأموال، كانت تتم بطريقة عنيفة.

وفي اعتقادنا كانت ردّة عمرو بن معد الزُبيدي، بكل أهدافها، تمثل تمرداً ضد السلطة المركزية في المدينة، ولم تسع إلاً لتغيير النظام السياسي الذي كان يقف الأبناء على قمة هرمه. وما يدفعنا لقول هذا ما يلي:

أولاً: اعتناق اليمنيين للإسلام دون إكراه أو خوف، وقد حسن إسلامهم. ويكفي أن الرسول ﷺ استقبل الوفود اليمنية قائلا: " اللّه أكبر جاء نصر اللّه والفتح، وجاء أهل اليمن، هم أرقّ قلوباً وألين أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية "كما نزلت" سورة النصر في أفواج اليمنيين التي جاءت تعلن إسلامها على يد الرسول ﷺ.

ثانياً: كان اشتراك قيس بن مكشوح في مؤامرة اغتيال عبهلة بن كعب، كنتيجة لطموح شخصي، ورغبة محمومة في تزعم الدولة، تحت مظلة حكومة المدينة، وتحت راية الإسلام التي أصبحت دستور الدولة ونظامها؛ مما أغضب عمرو بن معد الزُبيدي؛ الذي شارك في حروب الردّة حيناً من الدهر بدافع الحرص على الزعامة[2]. وقد أورد الطبري نماذج من أشعار هذين الزعيمين، تؤكد على الخلاف الذي نشب بين عمرو بن معد وقيس بن

(1) ابن هشام: مصدر سابق، ص 585.

(2) مطاع الطرابيشي: عمرو بن معد كرب الزبيدي بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الاكليل، العدد ـ 1 ـ يناير 1980، ص 54 ومما يؤكد أن عمرو بن معد الزبيدي لم يكن على وفاق مع قيس ابن مكشوح، رغم كونه ابن أخته، ما قاله بهذا الخصوص.

أريـد حـيـاتـه ويـريـد قـتـلـي غـديـرك مـن خـلـيـلـك مـن مـراد

انظر: احمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، ج4، بيروت، بدون تاريخ، ص20، ليس هذا فقط، بل أن عمرو بن معد كتب أشعار كثيرة بهذا الخصوص توضح عدم التوافق بينهما، انظر: ابن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد، ج1، تحقيق مفيد محمد قمحية، وعبد المجيد الرحيمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، 1987، ص 86.

مكشوح حول الرئاسة، على أثر اغتيال عبهلة بن كعب، رغم أنهما في جبهة واحدة ضد الأبناء والدولة العربية الإسلامية.

ثالثاً: لم يعمد قادة الردّة ـ قيس بن مكشوح وعمرو بن معد الزُبيدي ـ إلى قتل الولاة والمحتسبين (جباة الزكاة)، رغم أنهم كانوا يستطيعون فعل ذلك، واكتفوا بطردهم فقط، على أمل أن تثمر هذه المحاولة مع حكومة المدينة للتراجع عن تعيين " الأبناء" الفرس كحكام للمنطقة، أو على الأقل تشكيل حكومة مشتركة من اليمنيين والأبناء لتسيير شؤونها في شتى الميادين.

رابعاً: إن الصراع القرشي ـ اليمني في المنطقة اليمنية وخارجها لا يمكن تفسيره إلاً من منطلق التنافس العدناني ـ القحطاني، كنتيجة للتباين الحضاري من جهة، ومن جهة أخرى حول الغنائم والمناصب أثناء حركة الفتوح الإسلامية. وأبلغ مثال على هذا ما قاله عمرو بن معد الزُبيدي يوم القادسية[1]، مؤكداً انتهاج زعماء قريش سياسة غير عادلة تجاه القادة اليمنيين. . وقد قال: ـ

"إذا قلنا . . . . لا يبكي لنا أحد

قالت "قريش" إلاً تلك المقادير. . . . .

نعطي السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطي الدنانير"[2]

خامساً: على الرغم من تأكيد كتب الأخباريين العرب المسلمين على أن حركة الأسود العنسي، قامت على أساس العصبية، بعد ادعائه النبوة. رغم هذا لا تشير هذه الكتب من قريب أو بعيد إلى قيس بن مكشوح أو عمرو بن معد الزُبيدي على أساس أنهما أو أحدهما كان قد ادعى النبوة. وفي الواقع كانت دراستنا لحركات الردّة في اليمامة وفي غيرها من المناطق، تؤكد بأن مقتل زعماء هذه الحركات، قد عجل بفشل حركاتهم، بل وانتهائها. لكن هذه الوضعية لا يمكن تطبيقها على الواقع في المنطقة اليمنية، حيث لم يؤدِ مقتل عبهلة بن كعب إلاً إلى زيادة توهج حركة الردّة ضد الدولة العربية

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص 265 ـ 271؛ انظر كذلك: صبحي عبدالحميد: معارك العرب الحاسمة، نسخة مصورة، بدون دار نشر، وبدون تاريخ، ص 55 ـ 73.

(2) احمد بن محمد الشامي: دامغة الدوامغ، من مطبوعات الإمام الهادي للتأليف والنشر، ـ 1 ـ، 1966، ص 17.

الإسلامية، ويؤكد هذا أن زعماء هذه الحركة من جانب، والقوى التي وقفت إلى جانبهم من جانب آخر، قد وجدت بينهما أهدافاً مشتركة أدت إلى قيام حركة الردّة ضد الأوضاع القائمة آنذاك.

سادساً: لم تتخذ حكومة المدينة أي إجراءات قاسية بحق قادة حركة الردّة في المنطقة اليمنية، لأنها كانت تدرك ماهية ذلك الصراع وفحواه، لهذا أرسلتهما الدولة العربية الإسلامية للمشاركة في حركة الفتوح، على الرغم من أن الخليفة أبا بكر الصديق كان قد استثناه المرتدون من المشاركة في حركة الفتوح[1].

مما يعني، أن حكومة المدينة أرادت معالجة القضية اليمنية بشكل خاص، على أرضية من التفاهم المشترك تضمن من خلالها اشتراك الجماهير اليمنية في تقويض أسس الإمبراطوريات القديمة ـ الفارسية والبيزنطية ـ كنتيجة لخبراتهم الحربية، خاصة مع الدول الأجنبية.

سابعاً: إن ديوان أشعار عمرو بن معد الزُبيدي من الغلاف إلى الغلاف وأشعار رفاقه، تنصبّ كلها على نقد فساد الأوضاع الاجتماعية، وتفضح بعض الأبناء وزعماء القبائل وأحفاد الملوك من الأذواء والأقيال؛ الذين حاولوا استغلال الدعوة الجديدة لمآربهم الدنيئة وأغراضهم الدنيوية. وبهذا الخصوص يمكننا القول، بأن تصالح قادة الردّة اليمنية مع قادة الدولة الإسلامية، قد جاء في وقت تفجر فيه الصراع بين العرب والفرس وكان عمرو ورفاقه من قواد المحاور والأجنحة، الذين لعبوا دور البطل في هزيمة الفرس النكراء في القادسية[2].

3 ـ عمرو بن معد الزبيدي في عهد الفتوحات:

كان حظ عمرو بن معد الزُبيدي في عهد الخلفاء الراشدين، وبداية عهد الدولة الأموية أعلى وأكبر، إذ اتاحت وقائع الفتوح في اليرموك[3]، والقادسية ونهاوند، المجال واسعاً لفروسية عمرو أن تظهر وتظفر، ففي معركة اليرموك

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص 385. انظر كذلك: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص 127.

(2) انظر: عبد الباري طاهر: مرجع سابق، ص 32 ـ 33.

(3) لمزيد من المعلومات، انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، القاهرة، 1328هـ، ص 97 ـ 98.

أبلى عمرو بلاء حسنا، وذهبت عينه يومئذ، ثم إن عمر بن الخطاب (كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح وهو بالشام يحارب الروم أن يمد سعداً في العراق بخيل، فأمده بألف فارس من زبيد ومراد وغيرهما، وكان فيهم تسعة عشر رجلاً من أبطال اليرموك منهم عمرو، فساروا حتى قدموا على سعد بالقادسية. وهناك كان كتاب من الخليفة إلى سعد بن أبي وقاص يأمره فيه أن يصدر في الحرب عن مشورة عمرو" فإن كل صانع هو اعلم بصناعته " وإنها لشهادة حق بشأن هذا الفارس البطل، بل هي وسام تزهو به فروسيته وتختال[1].

غير أن هذه المكانة التي حظي بها عمرو بن معد الزُبيدي عند الخليفة عمر ابن الخطاب (قد أوغلت صدر سعد بن أبي وقاص، لذا لم يمر وقت طويل إلاً وكان الخلاف قد مد له جذوراً في نفوس هذين القائدين. على أن الخلاف بينه وبين سعد (قائد) جيش القادسية، يكون الطرف المباشر ـ من وجهة نظر عمرو ـ باعتباره يمثل الصراع بين "القحطانية" و"العدنانية"، وقد سجله عمر بن معد في قصيدة عصماء تناولت هذا الموضوع[2].

4 ـ حركة الأشعت بن قيس الكندي:

عندما بدأت الوفود اليمنية تصل إلى المدينة، تعلن إسلامها بين يدي الرسول ﷺ أرسلت كندة وفداً من قبلها بزعامة الأشعت بن قيس في السنة العاشرة للهجرة، وقد استقبل رسول اللّه ﷺ هذا الوفد بحفاوة كبيرة. و" جاء الإسلام وبحضرموت ملوك عديدون من كندة وحضرموت، وقد عرفوا بألقابهم

(1) مطاع الطرابيشي: مرجع سابق، ص 50.

(2) انظر: عبد الباري طاهر: مرجع سابق، ص 35. وحول تقسيم العرب إلى قحطانيين وعدنانيين، انظر:

ابن حزم: جمهرة انساب العرب، ج1، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1962، ص 7 ـ 8.

وفيما يتعلق باستمرار الصراع العدناني ـ القحطاني في ظل الدولة الإسلامية تشير بعض الدراسات: ((بان استغلال القبائل اليمنية المهاجرة والفاتحة لمصر مع القائد العربي عمرو بن العاص، لموضوع سيف بن ذي يزن بما فيه من صور أسطورية وحوادث خرافية، قد سخر في خدمة النزاعات القبلية بين بني كلب اليمانية وقيس المضرية، وهذا إن دل على شيء فانه يدل على أن القبائل اليمنية وعلى رأسها زعماؤها هم الذين طرحوه حين وجدوا فيه عاملا مساعدا لتأجيج الشعور القبلي اليمني، ليسهل الالتفاف حولهم في صراعهم حول السلطة والمراكز الحساسة فيها بعد الفتح)) انظر: ثريا منقوش: سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980، ص 231.

كملوك، لأن كل واحد منهم كان يملك وادياً بأكمله، وهؤلاء الملوك هم: بنو عمرو بن معاوية بن كندة، والأشعث بن قيس أمير بني الحارث بن معاوية من كندة بعد أبيه الملك قيس بن معد كرب، ووائل بن حجر الحضرمي من قبيلة حضرموت الذي سماه رسول اللّه ﷺ لما وفد عليه بقية أبناء الملوك سيد الأقيال (جمع قيل) أي الملوك وقالوا: إنه اجتمع بهينين ممتازة أو بما يشبه العقال كما تصنع بعض العشائر اليوم ومنها الحموم فإنه إذا مات مقدمهم أي رئيسهم ألبسوا من يخلفه عمامة التتويج بدلاً عنه"[1].

وبعد موت النبي ﷺ رفض الأشعث بن قيس الكندي مبايعة أبي بكر (كخليفة للمسلمين، وكان ذلك بمثابة احتجاج على مختلف الإجراءات التي تم اتخاذها في المنطقة اليمنية من قبل حكومة المدينة. خصوصاً وأن علي بن أبي طالب وبعض كبار رجال الصحابة امتنعوا عن مبايعة أبي بكر، ولم تستطع حكومة المدينة يومها اتخاذ أي إجراءات ضدهم. غير أن ابن لبيد بدأ بظلم أهالي كندة عندما استولى على بكرة (ناقة) لأحد الأهالي من بني عمرو بن معاوية، على الرغم من أنه دفع ما عليه من الزكاة، ورفض أن يعيدها إليه حتى بعد أن عرف بأمرها. وعندما توسط حارثة بن سراقة (وهو أحد زعماء القبيلة) لإقناع زياد بن لبيد برد البكرة لأصحابها، فما كان من زياد إلاّ أن أمر بضربه وإهانته، وعندما غضب قومه على هذا التصرف، هاجمهم ليلاً وقتل أعداداً كبيرة منهم، بينما هرب الباقون إلى شتى المناطق وقد غنم زياد في هذه المعركة غير المتكافئة سبايا من النساء والرجال والأطفال[2].

غير أن ظلم زياد بن لبيد وقسوته وتعسفه استفز مشاعر الأشعث بن قيس الكندي، وهو زعيم عشيرته، خاصة بعد أن استنجدت به السبايا، مما دفعه لمقاتلة زياداً وجيوشه. ودارت بين الجانبين معارك عظيمة، كادت خلالها الجيوش الإسلامية أن تسحق الأشعث بن قيس وقواته لولا أنهم تحصنوا وراء أسوار حصن النجير، وعندما اشتد الحصار حول الحصن، اشترط قادة الجيوش

---

(1) محمد بن احمد عمر الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1983، ص 60 ـ 61.

(2) انظر: ابن كثير: ص 342؛ انظر كذلك: الطبري: تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، ج2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص 334.

الإسلامية المحاصرة للحصن بعد رفضهم للصلح بأن عليه أن يفتح الحصن مقابل تأمين حياة عشرة أشخاص من ذويه وأقاربه.

ووافق الأشعث بن قيس على هذا العرض، بعد أن تأكد من عدم جدوى استمرار المقاومة، ودون أن يسعى إلى تأمين أهالي الحصن الذين ناصروه، بادر بكتابة أسماء عشرة من المقربين إليه ـ دون أن يكتب اسمه ـ وكان قادة الجيوش الإسلامية يعتقدون أن الأشعت بن قيس سيكتب اسمه على أول القائمة، ولكنهم بعد فتح الحصن قتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وجمعوا بهذا غنائم وفيرة لأنفسهم. بيد أن قادة الجيوش الإسلامية لم يقتلوا الأشعت بن قيس، لأنهم فضلوا إرساله مع السبايا إلى حكومة المدينة.

ومن المعروف أن خليفة المسلمين أبا بكر الصديق ﷺ كان قد صمم على معالجة الأوضاع في المنطقة اليمنية بشكل هادئ، عن طريق انتهاج سياسة لينة تجاه زعمائها الثائرين، لذا عفا عنه، بل وزوجه من أخته أم فروة على سبيل الكسب السياسي لهؤلاء الزعماء، إلى جانب الدولة العربية الإسلامية.

على الأرجح كان امتناع الأشعث بن قيس الكندي عن مبايعة أبي بكر، تمشياً مع موقف علي بن أبي طالب بهذا الخصوص. ولعل هذا ما يفسر لنا موقفه المؤيد لكل الخطوات التي اتخذها الإمام علي بن أبي طالب قبل وبعد مبايعته بالخلافة [1]. وقد بلغ التأييد ذروته عندما نشب الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وما أدى إليه هذا الخلاف من اصطدام هاتين القوتين في معركة صفين، التي وقف فيها الأشعت بن قيس الكندي إلى جانب علي بن أبي طالب بكل شجاعة.

لكن نتائج هذه المعركة وما أسفرت عنها، دفعت بالأشعت بن قيس للانضمام إلى حركة الخوارج [2]، التي كان لها شأن عظيم في إطار مناهضة السلطة الأموية [3]، التي انحرفت بالدولة العربية الإسلامية عن المبادئ الحقّة

(1) ومن المعروف أن اكبر دعم حصل عليه الأمام علي بن أبي طالب كان من الزعماء اليمنيين من أمثال الأشتر النخعي. انظر: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج1، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1957، ص 46 ـ 49.

(2) لمزيد من المعلومات، انظر: عامر النجار: الخوارج.. عقيدة.. فكراً.. فلسفة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1990، ص 65 ـ 66.

(3) حول هذا الموضوع، انظر: محمد يحي الحداد: التاريخ العام لليمن، ج2، منشورات المدينة، الطبعة الأولى، بيروت، 1986، ص 54

التي رسمها النبي ﷺ وأبوبكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (لتبدأ بالنمو أرستقراطية أموية استأثرت بكل الامتيازات السياسية، والثروات الاقتصادية في المجتمع، على حساب قاعدة عريضة من الجماهير في مختلف الأقطار العربية التي تدين بالولاء للدولة العربية الإسلامية في عهد بني أمية.

بعد هذا الاستعراض السريع لحوادث الردّة في كندة، نود ان نناقش مسألة "الزكاة" التي اعتبرها المؤرخون محور القضايا، بل والسبب الأساسي والمباشر في ظهور حركة الردّة في منطقة كندة. والواقع أن استخدام زياد بن لبيد لسياسة العنف في معاملة أهالي حضرموت كانت وراء ردّة الأشعث بن قيس الكندي، بينما جاء امتناع الكنديين عن دفع "الزكاة" بعد حصار زياد لقبائلهم.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص يمكننا القول استناداً على ما ورد في الوثائق السياسية اليمنية: " بأن النبي ﷺ ولى زياد بن لبيد البياض على حضرموت. . فلما أراد أن يقبض منهم زكاة الإبل انتقى كرايم أموالهم، التي كان قد نهى النبي ﷺ عن ذلك فتفاقم الخلاف فيما بين زياد وبين شطان من كندة أدى إلى الفتنة" . . بل وتستطرد تلك الوثائق السياسية لتحدد أن تلك الفتنة ليست ردّة لأنها ناتجة عن خلاف"[1].

وبمجرد موت الرسول ﷺ وتولي أبي بكر الخلافة من بعده، خرج زياد بن لبيد من قصره شاهراً سيفه، يطالب الناس بمبايعة الخليفة، وبدفع "الزكاة" وكان هذا التصرف العنجهي، بداية الخلاف الذي نشأ بين هاتين القوتين، خاصة وأن زياد بن لبيد استخدم أسلوب القوة في جباية الأموال من الأهالي دون مراعاة لتعاليم الرسول ﷺ بعد أن شكا إليه بنو وليعة (إحدى قبائل حضرموت) فقرهم الشديد، على أخذ الناس باللين، كنتيجة لظروفهم الاقتصادية العصيبة، لكن تصرف زياد، أغضب أهالي حضرموت، لأنه كان مخالفة صريحة لأوامر الرسول ﷺ بهذا المجال، رغم ذلك حاولوا الاتصال بزياد البياض لدفع الزكاة ولكنه رفض الوساطة، وصمم على هزيمتهم وتدمير مواقعهم.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه، يتحدث الطبري في هذا الخصوص قائلا: "لقد أعجب أحد رجال زياد ببكرة فدعا بنار ووضع عليها ميسم الصدقة، وإذا الناقة للعداء بن حجر وليست عليه صدقة، فقال العداء هذه شذرة (باسمها) فطلب من زياد إطلاق شذرة وأخذ غيرها، فرأى زياد أن ذلك اعتلال واتهمه بالكفر،

(1) الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ : مرجع سابق، ص 156.

ومباعدة الإسلام وتحري الشر فحمى وحمى الرجلان، لا ولا تنغم ولا هي لك، وقد وقع عليها ميسم الصدقة، وصارت في حق اللّه ولا سبيل إلى ردها.. فنادى العداء بآل عمر والرياض أضام واضطهد، ونادى يا أبا السميط فاقبل أبوالسميط حارثة بن سراقة بن معدي كرب فقصد زياد بن لبيد وهو واقف فقال أطلق لهذا الفتى بكرته، وخذ بعيراً مكانها فإنها بعير مكان بعير فقال ما إلى ذلك سبيل... ثم أمر زياد شباب من حضرموت والسكون فغثوه وتوطؤوه وكتفوا أصحابه وارتهنوهم وأخذوا البكرة فعقروها، وتصايح أهل الريا عن ذلك، وتنادوا، وغضب بنو معاوية لحارثة، وأظهروا أمرهم، وغضبت السكون لزياد، وغضبت حضرموت، وقاموا جميعاً دونه وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء وهؤلاء فأرسل إليهم زياد؛ إما أن تضعوا السلاح وإما أن تؤذنوا بحرب، فقالوا لا نضع السلاح أبداً حتى ترسلوا أصحابنا، فقال زياد لا يرسلون أبداً حتى ترضخوا وأنتم صغرة فماة يا أخابث الناس.. فنهد إليهم ليلاً فقتل منهم وطار وأعباديد.. فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم ذمروهم فتذامروا وقالوا لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين، فاجمعوا وعسكروا جميعاً ونادوا بمنع الصدقة»[1].

ونستنتج من كل هذا، إن ظلم زياد بن لبيد وعنجهيته وحمقه، كان وراء تأزم الموقف في كندة. مما يؤكد أن ردّة كندة كانت تحاول إيصال صوتها إلى حكومة المدينة، لتعرف بأن بعض ولاتها في المنطقة اليمنية تحولوا إلى ملوك بفعل سلطانهم الواسع، وإجراءاتهم العنيفة بحق الناس في هذه المنطقة أو تلك.

ولعلّ أبرز أسباب سقوط ردّة كندة هي: ـ

1 ـ عدم وحدة عشائر كندة منذ البداية مما جعل زياد بن لبيد ينفرد بها واحدة تلو الأخرى.

2 ـ الصراع العشائري داخل القبيلة مما جعل قلة من عشائر كندة المسلمة تقف مع زياد.

3 ـ تضرر بعض عشائر قبيلة حضرموت من السيطرة السياسية والإدارية القديمة لقبيلة كندة على حضرموت.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 271، ولمزيد من المعاملات فيما يتعلق بشكوى بني وليعه، فقرها وعوزها، لرسول اللّه (وأوامره لزياد بن لبيد بهذا الشأن، ثم مخالفة زياد الأوامر الرسول، واستخدامه سياسة إرهاب تجبر الأهالي على دفع الزكاة يقررها نفسه. انظر الطبري ـ المصدر نفسه.

4 ـ الدور الانتهازي الذي قام به الأشعث بن قيس زعيم الردّة حيث استجاب لمقترحات جيوش المدينة وسلم المقاومين للقتل الجماعي.

5 ـ حشد جموع كبيرة من جند الخلافة من أجل المعارك ضد كندة ومن والاها من قبيلة حضرموت. خاصة بعد استتباب الأمن في بقية مناطق اليمن، مما جعل حكومة المدينة تنفرد بقبيلة كندة، والتي كانت معارضتها آخر أشكال المقاومة على الأرض اليمنية.

6 ـ عدم توحيد جهود القبائل اليمنية وتحالفها ضد جند حكومة المدينة، وكان الأجدر بكندة، أن تساعد مهرة وتتحالف معها، وأن تنسق مع قبيلة مذحج بدلاً من العداء والخوف القائم بينهما[1].

7 ـ لم تمتلك ردّة كندة رؤية واضحة فيما يتعلق بمطالبها السياسية ـ الاجتماعية، واكتفت بأن تكون هذه الردّة وسيلة ضغط على حكومة المدينة، لتشديد رقابتها على الولاة في اليمن بهدف التخفيف من إجراءاتها التعسفية.

وبالقضاء على هذه الردّة واستتاب الأمر لحكومة المدينة، ظن الأبناء أن أمر اليمن أصبح بأيديهم. وعلى الرغم من هذا لم يستطع الأبناء أن يكونوا الشريك المأمول فيه في الإدارة بما فيه الكفاية، وهو ما بينته ردّة قيس بوضوح. في الوقت نفسه لا نستطيع أن نتصور المجتمع الأبناوي، أو قسماً كبيراً منه، بعد مرور زمن طويل من بقائه في اليمن، تحت سلطة الدولة العربية الإسلامية، إلاّ ممتزجاً بكيان الشعب اليمني، أخذ بالتدريج في الذوبان فيه كما تقضي سنة الحياة، إلاّ أن عملية الذوبان هذه قد أطالت من مدتها عوامل خارجية، أهمها تلك العصبية العنصرية، التي شجعتها الأرستقراطية العربية الحاكمة، والممثلة خير تمثيل في بني أمية، ومن تفلك في فلكهم من قواد وعمال[2].

(1) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 252 ـ 253.

(2) د. جعفر ظفاري: مرجع سابق، (2)، ص 41.

وقد كان خلدون بن عبدالله القسري رمزا لليمانية في ظل الحكم الأموي.. وقد قال الإدريسي عنه، انه قدم صنعاء سنة ست وتسعين " فقبحت سيرته، وظهرت منه عصبية قبيحة، وذلك أنه وجد قوما من الأبناء.. قد نكحوا في قحطان، فكان يؤتى بالرجل منهم فيحمله على طلاق زوجته.. ويأبى القدر إلا أن يعيد هذه الحادثة حفيد خالد، في العصر العباسي الأول المتميز عن العصر الأموي، بتغلب العنصر الفارسي (في بغداد العاصمة) على العنصر العربي. فقد أتى يزيد بن جرير القسري عاملا على اليمن من قبل المأمون، فوجد " قوما من الأبناء... قد تزوجوا من العرب، فأمرهم بطلاق من بأيديهم من نساء العرب، فلما بلغ المأمون ذلك عزلـه. نقلا عن. د. جعفر ظفاري دراسات في المجتمع اليمني القديم ـ الحركات الشعبية في=

والجدير ذكره أنه كان لحروب الردّة تأثير كبير على اقتصاديات اليمن من خلال:

1 ـ انشغال الحرفيين والعمال ـ في الصناعات التقليدية ـ والعمال الزراعيين والفلاحين في المعارك، مما أدى إلى انخفاض الإنتاج الزراعي والصناعي في اليمن، وعانت بعض الصناعات نقصاً في الأيدي العاملة بسبب قتل الكثير من حرفييها.

2 ـ تأثر المدن التجارية والموانئ المهمة بالغزو، ونهب الأسواق والممتلكات. كما أن قيام المدينة بتسكين قبائل بدوية لا تعرف مهنة التجارة في هذه المدن والموانئ، عطل الحياة الاقتصادية فيها، بل ودمرها نهائياً، مثلما حصل لميناء ومدينة دبا.

3 ـ تمّت مصادرة أملاك القبائل المرتدة، مما أدى إلى نقص كبير في الثروة الحيوانية سواء الإبل والخيول والأغنام. أو في الممتلكات الزراعية.

4 ـ الامتزاج بين جنود حكومة المدينة واليمنيين، وقيام بعض هؤلاء الجنود بالاستقرار والزواج في اليمن، بينما تزوجت النساء اليمنيات الأسيرات واللواتي قدمن ضمن السبايا إلى المدينة ـ من عرب الشمال.

5 ـ خفوت صوت العصبية القبلية وبروز سلطة الدولة.

6 ـ دخول اليمن تحت نفوذ حكومة المدينة وتوحيدها لأول مرة منذ انفراط عقد الوحدة لمعظم أقاليمها منذ بداية القرن السادس الميلادي 525م، تحت سلطة واحدة ممثلة بالخليفة في المدينة.

7 ـ كما انتشر النظام والقانون الإسلاميين في كافة الأراضي اليمنية، وجرى تقسيمها إلى أربع وحدات إدارية كبرى. صنعاء، الجند، حضرموت، عمان. ومن الجدير ذكره هنا، أن اليمن حكمت لأول مرة من قبل دولة داخل الجزيرة العربية لم تكن اليمن مقراً لها.

8 ـ انتشار الإسلام بين عامة الناس في اليمن، وإتاحة الفرصة لليمنيين للمشاركة مع إخوتهم عرب الشمال في الفتوحات الإسلامية، وأضحى الاقتصاد اليمني المموّل الأكبر لحروب الفتح ونشر الإسلام[1].

= التاريخ اليمني، الثقافة الجديدة، العدد الرابع، الحلقة ـ 3 ـ ، 1974، ص22.

(1) محمد سعيد شكري: مرجع سابق، ص 254 ـ 255.

الفصل الثالث

المنطقة اليمنية
في عهد الفتوحات الإسلامية

المنطقة اليمنية
في عهد الفتوحات الإسلامية

لقد أدت المشكلات الاجتماعية ـ السياسية على الساحة اليمنية، إلى دفع حكومة المدينة لإيجاد مخارج معقولة لهذه الأزمة. لهذا ارتأت حكومة المدينة، أن أفضل طريقة لاستتاب الأمن في المنطقة اليمنية، هي دعوة الناس للمشاركة في عملية الفتوح الإسلامية، لهذا " كتب أبو بكر ﷺ إلى جميع العرب ـ ومنهم أهل اليمن ـ يدعوهم إلى الجهاد في سبيل اللّه، باعتبار المسلمين حملة رسالة من خلال الجهاد، الذي هو بذل الجهد لإيصال الحق إلى الناس، وجعلهم يعيشون فيه كمسلمين أو يستظلون بظل عدالة نظامه، وإزالة العوائق ـ بالقتال ـ الحائلة بين الناس وسماعهم لهذا الدين. فالقتال ليس لإكراه الناس على تغيير دينهم، ولكن لتوفير الجوّ المناسب للناس حتى يسمعوا ويقرروا أمرهم كما يريدون، وإلا عاشوا في ظل الإسلام العادل دون حجر على الفكر أو إكراه في الدين[1].

هذه المعاني السامية للجهاد تضمنتها دعوة أبي بكر ﷺ في كتابه: إن اللّه كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً ـ قال تعالى: ﴿**وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه**﴾ فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند اللّه عظيم، فسارعوا عباد اللّه إلى فريضة ربكم، وإحدى الحسنين، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن اللّه تعالى لم يرض عن عباده بالقول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون[2].

فما كاد خطاب الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ يتلى على أهل اليمن، داعياً لهم بالجهاد، حتى نهض عدد من قبيلة ذي الكلاع بقيادة زعيمها ذو الكلاع الحميري، ومن قبيلة مذحج بقيادة زعيمها قيس بن هبيرة، ومن قبيلة

(1) انظر د. عبدالرحمن عبد الواحد الشجاع: تاريخ اليمن في الإسلام، ص 105 ـ 106.
(2) د. عصام الدين عبد الرؤوف: مرجع سابق، ص 48.

دوس (الأزد) بقيادة زعيمها جندب بن عمر الدوسي، ومن طيء بقيادة زعيمها حابس بن سعد الطائي، ووصل هؤلاء جميعاً إلى أبي بكر ﷺ في يوم واحد، وكان عددهم يزيد عن العشرين ألفاً بكامل سلاحهم وعتادهم، وقد بعثهم أبو بكر ﷺ إلى العراق والشام، فجاهدوا أصدق جهاد، وأبلوا أعظم بلاء، كما كانوا أيضاً في طليعة الجيش الإسلامي في موقعة الجمل وحرب صفين، تحت راية الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[1]، وكان لـه في الثناء على قبائل اليمن ـ وخاصة همدان ـ ما رواه الكثير من المؤرخين والكتّاب.. وأبرز المجاهدين اليمانيين رجال حملوا على كواهلهم رايات الفتح الإسلامي التي خفقت في إفريقيا والمحيط الأطلسي.. حتى قال المؤرخون ومنهم الدكتور جورجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه " التمدن الإسلامي: "إن أكتاف اليمانية هي التي رفعت عرش الدولة الأموية"[2].

ومن أشهر القادة السياسيين الذين اشتركوا في الفتوحات الإسلامية نذكر على سبيل المثال لا الحصر: موسى بن نصير ـ فاتح الأندلس[3]، وعبد الرحمن الغافقي الذي استشهد وهو على أبواب باريس (عاصمة فرنسا في معركة بواتييه أو بلاط الشهداء). كما اشتهر عمرو بن مسلمة الهمداني، وعمرو بن مسلمة

---

(1) لمزيد من المعلومات حول الأحداث التاريخية منذ أواخر عهد الخليفة عثمان ـ الفتنة ـ وحتى حرب صفين وموقف الصحابة منها، انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج5، ص 24 ـ 29. انظر كذلك: ابن عبدربه: العقد الفريد، ج4، ص 290 ـ 295. انظر كذلك: البلاذري: انساب الأشراف، ج5، 1963م، ص 90 ـ 94.

(2) نقلا عن: احمد حسين شرف الدين ـ اليمن عبر التاريخ ص 168.

وقد تغنى قيس بن مكشوح في منظوماته الشعرية بحركة الفتوحات الإسلامية، بعد مشاركته في الجهاد ضد الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية وقد قال بهذا الخصوص:

جلبنا الخيل من صنعاء تردى	بكل مذحج كالليث حامي
إلى وادي القرى فديار كلب	إلى اليرموك فالبلد الشامي
ولما أن زوينا الروم عنها	عطفناها ضوامر كالجلام
فابنا القادسية بعد شهر	مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموع كسرى	وأبناء المرازبة العظام

انظر: د. جعفر ظفاري ـ عقدة اللون الأسود ومسألة الوجود الفارسي إلى اليمن (3) ص 38. انظر كذلك: الهمداني: الاكليل، ج2، تحقيق محمد علي الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1966، ص 334 ـ 335.

(3) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص 276 ـ 277.

الأرحبي، وسعد بن قيس الهمداني، ومحمد بن الأشعث الكندي، وآخرين غيرهم كقادة عسكريين من الطراز الأول، لأنهم تمكنوا من رفع رايات الإسلام في مختلف الجبهات التي قاتلوا فيها. لهذا سميت بعض قلاع الأندلس بأسمائهم من ذلك قلعة همدان بالقرب من مدينة غرناطة، وقلعة خولان بالقرب من أشبيلية، وقلعة يحصب وغيرها من القلاع والحصون.

وقد نبغ بالعراق والشام والأندلس من أبناء أهل اليمن الفاتحين جماعة من العلماء، استوطنوا أرض العراق منهم القاضي عامر بن شراحبيل الشعبي، ومسروق الهمداني، وطلحة بن معروف اليامي الهمداني، وأبو إسحق السبيعي الهمداني، وإبراهيم النخعي المذحجي وغيرهم. ومن اليمنيين الذين استوطنوا الشام واشتهروا بالعلم والفضل وتولوا الرئاسة أبو عمر الاوزاعي الحميري.

ومن أهل الفضل من أمثال الإمام مالك بن أنس الأصبحي صاحب المذهب المشهور، والقاضي عياش اليحصبي. ومن الأمراء البارزين الأمير المنصور بن أبي عامر المعارفي صاحب الأندلس، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي العتكي، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي وغيرهم.

كما نبغ في اليمن نفسها جماعة من العلماء منهم وهب بن منبه الأنباري، وأخوه همام، وطاووس بن كيسان اليماني وابنه عبدالله، والقاضي إسحق الدبري؛ وهو الذي قصده الإمام الشافعي للأخذ عنه، وقال: لا بد من صنعاء وإن طال السفر، وعبدالرزاق بن همام الصنعاني صاحب " المسند" وكان يرحل إليه لسماع الحديث منه، وكان ممن رحل إليه الإمام أحمد بن حنبل[1].

والجدير ذكره؛ أن المنطقة اليمنية كانت إبَّان الفتوحات الإسلامية تعيش أوضاعاً اقتصادية ـ اجتماعية متباينة بفعل عدد من العوامل: ـ

1 ـ إن الحملات الإسلامية التي وجهت نحو المرتدين انتهت بالنجاح، وساعد على ذلك عدم اتحاد القبائل المرتدة في حلف واحد، بسبب طبيعتها البدوية التي لم يكن من الممكن أن تتخلص من العصبية، وذلك على عكس الأمة الإسلامية الواحدة؛ التي تربطها صلة الدين وذكريات الجهاد في سبيله.

(1) القاضي الجرافي: مرجع سابق ص 56 ـ 57. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق د. حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار، الطبعة الأولى، بيروت، 1974، ص 468. انظر كذلك: بن سمرة الجعدي: طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1957، ص 73 ـ 84.

فانتهز أبو بكر ﷺ هذه التفرقة وطعنهم قبيلة قبيلة، معتمداً على قواد مهرة، هذا فضلاً عما امتاز به هذا الخليفة من حنكة وحسم وتصميم على قتال المرتدين: وذلك بحرقهم بالنار، وقطع أرجل وأيدي بعض النساء المرتدات، والرجم بالحجارة ورميهم من الجبال، وتنكيسهم بالآبار، وتخريقهم بالنبال، وحتى بسبي النساء والذراري. ولذا كانت هذه جزيرة العرب في عهد أبي بكر ﷺ تعتبر بحق وحدة سياسية لا تتخللها جيوب المقاومة، وهي الوحدة التي تكونت لأول مرة في تاريخ الجزيرة منذ القديم، بحيث تحول العرب إلى أتباع لزعيم واحد يسيرون خلفه، وإلى دولة واحدة موحدة. وكان انتصار أبي بكر ﷺ على المرتدين هو انتصار الإسلام على الشعور القبلي، ومعناه أيضاً أن نُشرت صفحة جديدة في تاريخ العرب[1].

2 ـ كان لحركة الجهاد الإسلامي وما ترتب عليها من اتساع الفتوحات في رقعة واسعة من العالم آنذاك، ازدياد الهجرة الجماعية من اليمن بهدف الاستقرار في الأمصار الإسلامية الأخرى، حيث كان المجاهدون الأقيال يصحبون معهم ذراريهم وفصائلهم المسلحة والتابعين لهم. كما كان زعماء القبائل يهاجرون بصحبة أفراد قبائلهم المتطوعين للجهاد. وغالباً ما كانت ترحل أجزاء كبيرة من تلك القبائل، وفي أيام عمر بن الخطاب (انخرطت أعداد كبيرة من نصارى نجران في حركة الفتوح الإسلامية، سواءً في الشام أو العراق أو مصر، وفيما بعد في الأندلس. وقد اضطلع الكثير منهم بدور مهم في تاريخ هذه البلدان السياسي والثقافي.

3 ـ بعد فتح سورية وما بين النهرين ومصر، فقدت اليمن تلك الأهمية السياسية والاقتصادية، التي كانت لها في الماضي، ونتج عن ذلك استمرار الهجرة الجماعية نحو الأمصار، ونحو أقطار العالم الإسلامي الأخرى فيما بعد[2]. ولأن الهجرة كانت من قبل الفلاحين والعمال الشباب، لهذا تدهورت الزراعة، بالإضافة إلى تحطم منشآت الري ـ الطبيعي والصناعي ـ، كما أدى نقص الأيدي العاملة إلى حدوث أزمة اقتصادية طاحنة في المجتمع، وقد ساعد كل هذا على خلق حركة الرفض اليمنية، التي أغضبها تقسيم المنطقة إلى أقاليم عدة.

---

(1) د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ـ 1 ـ ، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السابعة، القاهرة، 1982، ص 160.

(2) محمد سعيد العطار ـ التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، ـ أبعاد الثورة اليمنية ـ ، سلسلة العالم الثالث، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الطبعة الأولى، نوفمبر 1965، ص 27.

4 ـ كانت الصراعات والاضطرابات السياسية، التي تحدث في عهد دولة الخلافة الإسلامية، تعكس نفسها تلقائيا على الأوضاع في المنطقة اليمنية، كونها جزءاً من العالم الإسلامي[1]. مما ساهم في تحطيم الاقتصاد عن طريق تحطيم وسائل الزراعة، وإحراق القرى والمزارع، وبالتالي هروب الفلاحين من الأراضي الخصبة إلى المناطق البدوية للعيش فيها، بعد أن كانوا ينعمون بحياة الاستقرار في المدن.

5 ـ كان عهد الولاة يتميز بأنه أشد العهود ظلاماً في اليمن، بسبب تفننهم في قمع الأهالي والاستحواذ على حقوقهم، دون رادع من قبل الدولة الإسلامية، التي أوكلت مهمة تسيير شؤونها لأشخاص تمتعوا بثقلهم الاجتماعي والسياسي فيها. وقد كان هؤلاء يتصرفون بأمور الحكم والسياسة في اليمن وفق مصالحهم وأهوائهم، الأمر الذي ترتب عليه عدم استقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية فيها طوال عهد الدولة الإسلامية[2].

وتأسيساً على ذلك يمكننا القول إن اليمن كانت بين قرنين تقريباً (من أواسط القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع) أي خلال الفترة التي غالباً ما تسمى بـ"عهد الولاة" مقسمة إدارياً إلى ولايات عدة ـ مخاليف ـ (منها الجند، صنعاء، حضرموت) فأصبح منصب والي صنعاء بالتدريج المنصب الرئيسي فعليا، في حين كانت صنعاء، أحد أكبر المراكز السياسية والحرفية والتجارية في جنوب الجزيرة العربية في غضون العصر الوسيط المبكر[3].

وعلى الرغم من ذلك عانت صنعاء في ذلك العهد كل ويلات الظلم

(1) كانت اليمن تمثل قاعدة أساسية لكل القوى التي تناهض الدولة الإسلامية مثل الخوارج والشيعة؛ لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: يحي بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص 119، انظر كذلك: بهاء الدين الجندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي بن حسين الأكوع الحوالي، الطبقة الأولى، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1983، ص 216.

(2) لمزيد من المعلومات، انظر: الخزرجي: العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، وزارة الإعلام، صنعاء، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 33. انظر كذلك: الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض، 1974، ص 323.
الجدير بالذكر أن اليمن لم تكن الولاية الوحيدة التي خضعت للسلطة المطلقة للولاة، بل تمايزت تلك الحقبة بوقوع مختلف الولايات الإسلامية تحت قبضة أولئك الولاة.
انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عهد الولاة، القاهرة، بدون تاريخ، ص 15 ـ 165.

(3) م. ب ـ بيوتروفسكي: مرجع سابق ـ ص 85 ـ 86.

والاضطهاد، من حكم الولاة، حيث كانت جباية الأموال تتم بطرق قاسية، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص، هو ما تحدث عنه أحمد بن عبداللّه الرازي قائلا: ". . وكان الوالي على صنعاء يأمر الناس ـ يوم يركب إلى ميدان صنعاء في الأسبوع يوماً واحداً ـ أن يحضر جمع من حواليه من هؤلاء يسعى بين يديه، فإن تخلف منهم متخلف جرى عليه من العقوبة ما يوجبه عليه من ذلك من ضرب، أو غرامة، أو حبس، ومن لبس شيئاً قد لبسه الوالي يضاهيه به؛ لحقته عقوبة شديدة، فكان إذا لبس ثوباً تجنبه سائر عسكره".

وعلى الرغم من الحياة التعيسة التي عانت منها الجماهير اليمنية؛ كان الولاة والحكام وجباة الضرائب، يعيشون حياة مترفة، ويستطرد الرازي قائلا. . "وكانت جبانة صنعاء بباب واحد، وكانت الدور عن يمين وشمال باسقة في الهوا، عليها مساكن وغرف عالية من أبهى العمارة وأحسنها صنعة، وكانت أجمل منازل صنعاء تلك التي يسكنها "الولاة"[(1)]. ومن هذا المنطلق يمكننا تفسير الأسباب الجوهرية، لاستمرار الحركات المناوئة للدولة العربية الإسلامية بشقيها ـ الأموي والعباسي.

الجدير ذكره في هذا الصدد أن الظلم الذي عانت منه اليمن في بعض الفترات يتعارض مع مبادئ الإسلام، حيث تصب الشريعة الإسلامية جام غضبها على الظلم والظالمين. فقد أورد القرآن الكريم عشرات الآيات الدالة على ذلك. ومن هنا كان العدل قاعدة من قواعد الحضارة والشريعة وهدفاً من أهدافها، حث اللّه على تحقيقه بين الناس في (28) آية، عدا الآيات التي ورد فيها ذكر القسط الذي يرادف العدل وهي (25) آية، وقد تعمق ابن الجوزية في كتابه ـ الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ـ في فهم روح الحضارة الإسلامية وجوهر العدالة في تشريعها، فأشار إلى أن الأصل في السياسة والحكومة الصالحة، إنما هو التزام العدل، بل جعل السياسة العادلة جزءاً من الشريعة وفرعاً من فروعها، فلا يمكن أن تكون هناك سياسة غير عادلة " ظالمة " وهي في الوقت نفسه مطابقة للشريعة، فمن لـه معرفة في الشريعة، وإطلاع على أصولها يدرك تماما "أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها"[(2)].

---

(1) احمد بن عبداللّه الرازي الصنعاني ـ تاريخ مدينة صنعاء ـ ص 91.

(2) نقلا عن: د. عبد الرزاق الأنباري: موقف الحضارة الإسلامية من الظلم، سبأ، العدد ـ 8 ـ ، ديسمبر، 1999، ص 22 ـ 23.

وتأسيساً على ذلك، يمكننا القول إن ظلم الولاة، الذي كان يبرز بين الحين والآخر في عهد الدولة العربية الإسلامية؛ يمثل استثناء عن القاعدة العامة التي هي العدل في الحكم والسياسة، خاصة وأننا على يقين أن العدل هو السمة البارزة في النظام الإسلامي، بينما الظلم يمثل جوهر الحياة عند العرب في العصر الجاهلي[1].

(1) انظر: احمد محمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة، 1956، ص 221 ـ 223.

خاتمة الباب الثاني

كانت اليمن تمثل المخزون البشري والمادي للدولة العربية الإسلامية في عصر الإسلام، لرفدها بما تحتاجه من إمكانات متاحة لضمان نجاح حركة الفتوح الإسلامية آنذاك؛ على حساب الإمبراطوريات القديمة في فارس وبيزنطية؛ حتى تكون كلمة اللّه هي العليا، وأن يكون الدين كلّه لله.

حيث شكلت اليمن مع المدينة المنورة نواة الدولة العربية الإسلامية، وقد ساهم في تعزيز هذه الروابط بينهما؛ شروط عدة؛ مثل وحدة الدم، واللغة، والمصير والتاريخ المشترك، فضلاً عن رابطة العقيدة، التي وثقت العلاقات بينهما، بشكل أعمق وأقوى، بحيث تفوقت هذه الرابطة عن سواها من الروابط الأخرى.

وفي ضوء هذا كانت الأحداث السياسية المؤلمة في صدر الإسلام، سحابة صيف بين الجانبين نتيجة الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالمنطقة، مثل استمرار التمسك بالعصبية القبلية التي نهى الإسلام عنها، وما ترتب عليها من أضرار في العلاقات السياسية، والتجارية بين الجانبين. حيث حاولت القوى المتمردة والمرتدة في اليمن؛ استغلال هذه الأحداث بهدف فرض وجودها على الدولة الإسلامية، أو الاستقلال عنها. خاصة وأن اليمن في تلك الحقبة التاريخية؛ كانت تشهد انقساماً سياسياً يجسد أرقى درجات التشرذم والتمزق بين قبائل كبيرة؛ مثل خولان وحمير وبلاد السراة وحضرموت وقبائل صغيرة أخرى، فضلاً عن العشائر والأفخاذ المنتشرة في مختلف المناطق اليمنية، والتي كانت بالطبع مهيأة نفسياً للتمرد بهدف استعادة كيانها المستقل عن العالم الخارجي.

على الصعيد ذاته كان الملأ المكي، يمثل شكلاً أرقى للعلاقات القبلية، باعتبار أعضائه قمة الهرم السيادي على مكة في تسيير شؤونها، مثل السقاية والرفادة التي أعطيت لبني عبد مناف بن قصي، والحجابة واللواء ورئاسة الندوة لبني عبدالدار بن قصي.

هذا التنظيم القبلي المتفاوت بين جنوب الجزيرة وشمالها، فضلاًعن معاناة

اليمن من استمرار سلطة "الأبناء" الفرس على صنعاء وعدن، باعتبارها جسماً غريباً في جسد الأمة اليمنية، قد ترتب عليه تداخل المفاهيم العقائدية مع المفاهيم السياسية. ولعل هذا يفسر لنا انضمام أعداد كبيرة لحركة الردّة المناهضة للحكومة الإسلامية في المدينة، والتي كانت تضم بداخلها قوى عديدة لكل منها أهدافها وشعاراتها.

فإذا كان عبهلة بن كعب "الأسود العنسي" قد تمكن من فرض نفسه كزعيم لتلك الحركة من خلال ادعائه النبوة لما تمتع به من صفات شخصية هيأت له تبوّء مركز القوة في تلك الحركة، إلاَّ أن قوى أخرى انخرطت تحت لوائه من أجل تحقيق طموحاتها وتطلعاتها في الرئاسة والزعامة.

والباحث هنا في تاريخ اليمن في صدر الإسلام يلتمس حزم قوى في محاربة الردّة، وحكمة بالغة في معالجة نتائجها عند الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، الذي كان يدرك واقع القضية اليمنية، بما لها من خصائص تنفرد بها عن باقي حركات الردّة في شبه الجزيرة العربية. وبانتصار القوى الإسلامية، شاركت اليمن بمختلف قبائلها بكل عزم وفعالية في أحداث الفتوحات الإسلامية، سواء في عهد الخلافة الراشدة، أو في عصري بني أمية وبني العباس. كما ساهمت اليمن في إرساء دعائم النهضة الحضارية والعلمية في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، من خلال أدوارها الرائدة في مختلف المجالات. لهذا كان من الطبيعي أن تتغلب الهوية القبلية والمذهبية ـ الدينية في اليمن، على الهوية الوطنية ـ القومية التي أخذت في الظهور مع بداية القرن العشرين.

خاتمة الكتاب

نستخلص من موضوع دراستنا الهوية السياسية والحضارية لليمن في التاريخ القديم وعصر الإسلام، ما يلي:

أولاً:

إن الكثير من الزعامات اليمنية كانت تدرك أن قوة اليمن وتأثيرها الخارجي، لا يتأتى إلاً بوحدتها السياسية أولاً، وبالاندماج الوطني لشعبها ثانياً. وفي ضوء هذا نرى على سبيل المثال لا الحصر أعظم شخصية يمنية في التاريخ القديم هو كرب إل وتر، في القرن السابع قبل الميلاد، يركز كل جهوده السياسية ـ العسكرية من أجل إعادة توحيد اليمن في كيان سياسي واحد، بدلاً عن الكيانات السياسية المتعددة التي عرفت بها.

وسجل لنا نقش النصر الأعمال العظيمة التي قام بها كرب إل وتر، من أجل تعزيز أواصر الوحدة الوطنية بعد أن تمكنت قواته العسكرية من فرض واقع الوحدة السياسية على المدن والقرى في مختلف أنحاء المنطقة اليمنية، خاصة في الأطر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي وحدت الوجدان اليمني، تجاه القضايا المصيرية، التي تهتم بمستقبل اليمن في تلك الحقبة. فضلاً عن استخدامه للشعارات الدينية التي أضفت على حروبه طابع القداسة، من جهة، وإطاراً من الشرعية من جهة أخرى، وبالفعل أفرزت الوحدة السياسية ـ الوطنية، نتائج إيجابية تبلورت من خلال المظاهر الحضارية المتنوعة، التي تتجاوز شكل النظام السياسي، الذي كان من أهم ملامحها تبني أسلوب متميز في الحكم، يقوم على الاستشارة أو المشاركة فيه، من قبل مختلف الهيئات الاجتماعية ـ السياسية في الدولة. فضلاً عن جهودها الدؤوبة من أجل إيجاد وحدة عقائدية، بين عناصر المجتمع، يعكس واقع الوحدة السياسية، التي تعيش في ظلها.

ليس هذا فقط، بل انعكست تلك الوحدة على مظاهر النهضة الاقتصادية من خلال الاهتمام بالزراعة وتنوع محاصيلها، وبالتالي العناية بالسدود والآبار وترميمها، وصيانتها، وقبل هذا وذاك، اهتمت الحكومة اليمنية بالفلاحين

وقدمت لهم الدعم والمساندة اللازمين، بما يضمن لهم الحياة الكريمة، كما تركت الوحدة السياسية آثارها الإيجابية على مظاهر النهضة الحضارية، مثل الفن في مختلف ميادينه، خصوصاً العمارة الذي عرفت به اليمن.

وعلى النقيض من ذلك فقد أدى تجزؤ اليمن بعد ضعف مملكة سبأ، بين قبائل كبيرة وقبائل صغيرة، إلى انهيار مظاهر الحضارة فيها، ومن ثم وقوعها تحت نفوذ القوى الأجنبية ـ الأحباش والفرس ـ إن ضعف اليمن الاقتصادي ـ السياسي في التاريخ القديم، لم يلغ دوره الحضاري، وأبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص أن القبائل اليَمنية المهاجرة إلى شرق أفريقيا، والحيرة (المناذرة)، وبادية الشام (الغساسنة) تمكنت من إقامة دول ذات مكانة حضارية تمايزت بعراقتها وعظمتها، واستحقت بالفعل أن تكون واجهة حقيقية للدول العظمى آنذاك. . المناذرة، الفرس، الغساسنة، البيزنطيين.

ثانياً:

إن الإسلام بكل تعاليمه السمحة وشريعته السامية من أجل تنظيم المجتمع الإسلامي على أسس من الفضيلة والمثل الرفيعة، التي تناهض المعتقدات الجاهلية فكراً وعقيدةً وتشريعاً، لم يتمكن من استنهاض القوى الاجتماعية ـ السياسية في اليمن لإعلان إسلامها باستثناء بضعة أشخاص لم يتمكنوا من تتويج جهودهم بإقناع القوى المؤثرة في المجتمع اليمني من ملوك وأمراء وزعماء عشائر ـ باعتناق الإسلام، وإن حدث ذلك فيما بعد، فلم يحدث إلاً بعد إعلان ـ الأبناء ـ الفرس بزعامة (باذان) إسلامهم.

ولعل هذا ما يفسر لنا كيفية تقبلهم للإسلام، فضلاً عن عوامل ارتدادهم عنه، حيث لم يمر وقت طويل إلاً وكانت اليمن أول ميدان لحركة الردّة في أواخر عهد سيدنا محمد ﷺ عندما حاولت إعادة الحياة الفاسدة بكل مظاهرها إلى سابق عهدها، والقضاء على المنجزات التي حققها الإسلام.

لكن الخليفة أبا بكر الصديق ﷺ تمكن من قمع حركة الردّة، ليس في اليمن فقط، بل وفي كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. لتبدأ الدولة الإسلامية في تنفيذ مشروعها الرباني الذي يدعو الناس كافة إلى إعلاء كلمة اللّه، وأن يكون الدين كله لله، من خلال الدعوة للجهاد، غير أن الخلافة الراشدة واجهت في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فتناً عديدة أضعفت قوتها، وأشاعت الانقسام بين صفوف المسلمين، ولم يتمكن الخليفة علي بن أبي طالب (من تدارك

مخاطرها، والسيطرة على زمام الأمور فيها، الأمر الذي رجح من قوة معاوية بن أبي سفيان، الذي استطاع الانفراد بالحكم، وإعلان قيام الدولة الأموية على أنقاض دولة الخلافة الراشدة، بعد الإطاحة بكل مقوماتها وأسسها، مثل الانتخاب الحر للخليفة من قبل المجتمع الإسلامي في مختلف أمصاره، أو اتخاذ الشورى في الاستخلاف، من خلال إعلان الدولة الأموية مملكة وراثية، اتصف الكثير من خلفائها بالضعف وافتقاد الجدارة في الحكم، فضلاً عن سوء تصرفاتهم، وسلوكهم في معاملة الرعية، الأمر الذي ترتب عليه، تصاعد حدة المعارضة السياسية للسلطة الأموية من قبل قوى اجتماعية وسياسية عدة مثل الشيعة والخوارج، التي أنهكتها عسكرياً، بل وكانت من الأسباب الجوهرية لانهيارها اقتصادياً وسياسياً، خاصة وأن الدولة الأموية اعتمدت على العصبية القبلية في إدارة أزماتها، أو في تسيير شؤون المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية.

ولعل هذا يفند لنا أسباب وقوع اليمن في قبضة الولاة الذين اشتهروا بظلمهم للرعية من ناحية، وتحويل اليمن من أرض عشرية إلى أرض خراجية من ناحية أخرى.

ليس هذا فحسب، بل كان الصراع العدناني ـ القحطاني الذي استفحل في الدولة الأموية سواء في عهد الخليفة الوليد الثاني الذي اشتهر بالتنكيل بالزعماء اليمنيين وقبائلهم، أو في عهد يزيد الثالث الذي تمكن من الوصول إلى سدة السلطة والخلافة بفضل مؤازرة القبائل اليمنية له، في صراعه من أجل العرش.

ومن هنا كانت اليمن تصنف بأنها منطقة اضطرابات تعاني من عدم الاستقرار في أوضاعها الاقتصادية والسياسية في ظل الدولة الأموية.

وإذا كانت حركة عبدالله بن يحيى الإباضي تشكل أحد الأسباب الجوهرية التي عجلت بنهايتها ـ الدولة الأموية ـ ومن ثم قيام الدولة العباسية، فإن استمرار القلاقل في عهد الدولة العباسية في اليمن على ذلك النحو، قد ساهم في انهيار بنيتها الاقتصادية ـ السياسية، وبالتالي نشوء اتجاهات استقلالية بداخلها، عن سلطة الخلافة العباسية، منذ القرن الثالث الهجري الموافق التاسع الميلادي.

كانت اليمن في تلك الحقبة التاريخية ما بين 204 ـ 858هـ/ 819 ـ 1454م ـ التي عرفت في مختلف الدراسات التاريخية بأنها حقبة الدويلات المستقلة في اليمن ـ امتداداً للصراع القبلي المذهبي فيها، إلى درجة أن الباحث تنتابه الحيرة

في استخلاص مفاهيم الهوية السياسية ـ الحضارية، في خضم تلك الصراعات الدامية التي استمرت حتى نهاية تلك الحقبة. خاصة وأن تلك الدويلات اعتمدت في صراعها ضد القوى الأخرى على العصبية القبلية ـ المذهبية، لهذا كان من الطبيعي أن تتمايز العلاقات التي تربط تلك القوى بطابع العداء الدائم، الذي انعكس في تزايد حدة الحروب بينها، وتدمير البنية التحتية للدولة بكل مظاهرها الاقتصادية والحضارية.

وتأسيساً على ذلك يمكننا استيعاب أحد الدروس المهمة في حياتنا السياسية في اليمن، وهو أن الوحدة القائمة على شرعية القوة وحدها لا يمكنها الصمود والاستمرار لحقبة طويلة من الزمن. ولعل أبلغ دليل على ما ذهبنا إليه بهذا الخصوص هو الوحدة السياسية التي تحققت في عهد الدولة الصليحية وعهد الدولة الطاهرية، ورغم التباين المذهبي بين الدولتين، لكن تلك الوحدة في عهديهما لم تستمر طويلاً!، وسرعان ما سقطت في شباك قوى قبلية أكثر تخلفاً، ساهمت في ازدياد ضعف البنى السياسية الوطنية، لأن تلك القوى أخذت في تعزيز مواقعها الاجتماعية الطبقية باعتبارها وحدة سياسية متميزة عن القوى الأخرى في المجتمع اليمني، الأمر الذي ترتب عليه إشاعة الاغتراب الوطني، ومن خلال رؤيتها للحكم، شكلت تلك السلوكيات مقدمات حقيقية لوقوع اليمن في قبضة القوى الأجنبية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً

المصادر العربية

● ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين علي (م/ 630هـ ـ 1232م):

1 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ستة أجزاء، طبعة الشعب، القاهرة، طبعة ثانية، دار الفكر، 1390هـ/ 1970م.

2 ـ الكامل في التاريخ، تسعة أجزاء، دار صادر ودار بيروت، 1965م، بيروت، طبعة ثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1400هـ/ 1980م.

● أحمد بن حنبل (الإمام) (م/ 241هـ ـ 855م):

3 ـ المسند، المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت، دون تاريخ.

● أحمد، يوسف:

4 ـ المحمل والحج، نسخة مصورة، القاهرة، 1937م.

● الأصفهاني، حمزة بن الحسن (م/ 360هـ ـ 980م):

5 ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الطبعة الثالثة، 1961م، دار مكتبة الحياة، بيروت.

● الأصفهاني، أبوالفرج، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم (م/ 356هـ ـ 967م):

6 ـ الأغاني، 24 جزءاً، طبعة أولى، 1369هـ ـ 1951م، دار الكتب المصرية، القاهرة، طبعة ثانية، دار الكتب، 1963م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

7 ـ الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، 1406هـ ـ 1986م.

● الأفغاني، سعيد:

8 ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، 1356هـ ـ 1937م، دمشق.

● الأكوع، محمد بن علي،

9 ـ الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ (جمع وتحقيق)، دار الحرية للطباعة، بغداد، طبعة أولى، 1396هـ ـ 1967م.

● البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (م/ 290هـ ـ 903م):

10 ـ فتوح البلدان، نشر وتحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1956م، 1957م.

11 ـ أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مطبعة دار المعارف، القاهرة، 1959م.

● الجندي، بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف (م/ 732هـ ـ 1331م):

12 ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي بن حسين الأكوع الحوالي، وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب 12 ـ1، صنعاء، طبعة أولى، 1403هـ ـ 1983م.

● ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي (م/ 245هـ ـ 849 م):

13 ـ المحبر، إخراج وتصحيح/ محمد حميدالله، ود. إلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1360هـ ـ 1942م، حيدر أباد، الهند.

● ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد (م 808هـ/ 1405م):

14 ـ مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

● ابن خياط. أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري الملقب ب ـ (شباب) (م 240هـ/ 845م):

15 ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق /د. أكرم ضياء العمري، دار طيبة الرياض، ط2، 1405هـ / 1985م.

● الديار بكري. حسين محمد بن الحسين:

16 ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، بيروت، بدون تاريخ.

● الرازي. أحمد بن عبدالله (م 460هـ/ 1067م):

17 ـ تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق/ د. حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار، بيروت، ط1، 1974م.

● الزبيدي. السيد محمد مرتضى (م 1205هـ/ 1790م):

18 ـ تاج العروس من جواهر القاموس، نشرة دار ليبيا، بني غازي، وطبع في دار صادر، بيروت، 1386هـ/ 1966م.

● الأزرقي. أبو الوليد محمد بن عبدالله:

19 ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، بيروت، 1964م.

● السخاوي. محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان:

20 ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت، 1979م.

● ابن سعد. أبو عبدالله محمد (م 230هـ / 844م):

21 ـ الطبقات الكبرى، 8 أجزاء، دار بيروت، بيروت، 1397هـ/ 1977م.

● ابن سمرة الجعدي. عمر بن علي بن سمرة (م بعد 586هـ/ 1189م):

22 ـ طبقات فقهاء اليمن، تحقيق/ فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1957م، .

● السهيلي. عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي (م 581هـ/ 1185):

23 ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (م 218هـ/ 833م) تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1، 1387هـ/ 1967م.

● الشوكاني. محمد بن علي (م 1250هـ/ 1834م):

24 ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.

25 ـ الدواء العاجل ـ الرسائل المنيرية، ج2، القاهرة، 1350هـ.

● ابن عبدربه. أبو عمر أحمد بن محمد (م 327هـ/ 935م):

26 ـ العقد الفريد، 8 أجزاء، تحقيق/ أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1389هـ/ 1969م ـ 1391هـ/ 1971م.

● ابن العديم:

27 ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج2، تحقيق/ محمد سامي دهان، دمشق، 1954م.

● العسكري. أبو هلال:

28 ـ الأوائل، تحقيق محمد المصري وآخرون، بدون دار نشر، وبدون تاريخ.

● ابن قاضي شهبة:

29 ـ الكواكب الدّرية في السيرة النورية، بيروت، 1971م.

● ابن قتيبة. أبو محمد عبدالله بن مسلم (م 276هـ/ 889م):

30 ـ المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، بمصر، ط2، 1388هـ/ 1969م.

● المقريزي. تقي الدين أحمد بن علي (854هـ/ 1441م):

31 ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفود والمتاع، جزءان، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1941م.

● القلقشندي. أبو العباس أحمد بن علي (م 821هـ/ 1418م):

32 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14 جزءاً، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، صورته عن الطبعة الأميرية، القاهرة، دون تاريخ.

33 ـ نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، بدون تاريخ.

34 ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج3، الكويت، 1964م.

● ابن كثير. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمران الدمشقي (م 774هـ/ 1372م):

35 ـ البداية والنهاية، 14 جزءاً، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، 1394هـ/ 1974م.

36 ـ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

● الكلبي. أبو منذر هشام بن محمد بن السائب (م 204هـ/ 819م):

37 ـ الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر 1384هـ/ 1965م، مصور عن طبعة دار الكتب، 1924م.

● ابن المجاور. جمال الدين أبو الفتوح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (م 690هـ/ 1291م):

38 ـ تاريخ المستبصر (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) تصحيح وضبط أوسكر لونغرين، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1951م.

● المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين (م 345هـ/ 956م):

39 ـ التنبيه والإشراف، تصحيح عبدالله إسماعيل الصاوي، مكتبة المثنى، بغداد، 1357هـ/ 1938م.

40 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، 1965م.

● مسكويه. أبو علي أحمد:

41 ـ تجارب الأمم، ج2، نسخة مصورة، القاهرة، 1916.

● ابن منظور. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي (م 711هـ/ 1311م):

42 ـ لسان العرب، عدة أجزاء، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.

● ناصف. منصور:

43 ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، ج5، دار إحياء الكتب العربية، ط2، القاهرة، بدون تاريخ.

● ابن النديم:

44 ـ الفهرست، القاهرة، بدون تاريخ.

● نشوان الحميري. أبو سعيد (م 573هـ/ 995م):

45 ـ ملوك حمير وأقيال اليمن ـ قصيدة نشوان وشرحها، تحقيق إسماعيل ابن أحمد الجرافي وعلي بن إسماعيل المؤيد، دار العودة ـ بيروت، ودار الكلمة ـ صنعاء، 1978.

46 ـ منتخبات في أخبار اليمن، نسخ وتصحيح عظيم الدين أحمد، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن، 1981م.

● النويري. شهاب الدين أحمد بن علي (م 733هـ/ 1332م):

47 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، 23 جزءاً، مصور من طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.

● ابن هشام. عبدالملك (م 218هـ/ 833 م):

48 ـ السيرة النبوية ـ سيرة ابن هشام ـ (مع الروض الأنف للسهيلي)، نسخة مصورة، المطبعة الجمالية بمصر، 1914م. وطبعة ثانية، سلسلة تراث الإسلام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري ـ عبدالحفيظ شلبي، القسم الثاني، ويشمل الجزءين الثالث والرابع، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط2، 1375هـ/ 1955م.

● الهمداني. أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب. ويعرف بابن الحائك الهمداني (توفي بين عامي 350هـ/ 961م و360هـ/ 970م):

49 ـ الإكليل، ج1، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار الحرية، بغداد، ط2، 1397هـ/ 1977م.

50 ـ الإكليل، ج2، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1386هـ/ 1966م.

51 ـ الإكليل، ج8، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، 1399هـ/ 1979م.

52 ـ الإكليل، ج10، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1368هـ.

53 ـ الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبي، ط1، مطبعة دار الكتاب، دمشق.

54 ـ صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، بإشراف حمد الجاسر، الرياض، 1394هـ/ 1974م.

55 ـ قصيدة الدامغة وشرحها، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1987 م.

● الواقدي. محمد بن عمر بن واقد (م 207هـ/ 822م):

56 ـ المغازي، 3 أجزاء، القاهرة، 1965م.

● وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري (م 114هـ/ 732م):

57 ـ التيجان في ملوك حمير، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دون تاريخ.

● ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (م 626هـ/ 1229م):

58 ـ معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، 1397هـ/ 1977م.

● اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح:

59 ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

● أبو يوسف. يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حنيس (م 182هـ/ 798م):

60 ـ الخراج، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ودار الإصلاح، القاهرة، دون تاريخ.

ثانياً

المراجع العربية والمترجمة

1 ـ الأكوع، محمد بن علي: اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، ط1، 1971م.

2 ـ الأسد: ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف بمصر، إصدار مكتبة الدراسات الأدبية (1)، ط3، 1966م، القاهرة.

3 ـ البطريق، عبدالمجيد عبدالعزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث ـ من عصر النهضة إلى أواخر القرن التاسع عشر، بيروت، 1979م.

4 ـ الجرو، أسمهان سعيد (الدكتورة): موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، الأردن (إرِبد) 1996م.

5 ـ دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، الإسكندرية 2003م.

6 ـ الحداد، محمد بن يحيى: التاريخ العام لليمن، 5 أجزاء، منشورات المدينة ودار التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1986م.

7 ـ الدوري، عبدالعزيز: نشأة علم التاريخ، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 1994م.

8 ـ الشال، جمال الدين: التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، 1958م.

9 ـ الشرقاوي، عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب ـ فكرة التاريخ، نشأتها، وتطورها ـ دار العودة، ط1، بيروت، بدون تاريخ.

10 ـ الحوفي، أحمد محمد: الحياة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة، 1956م.

11 ـ الخضري، محمد: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية، ج1، بيروت، 1969م.

12 ـ الخربوطلي، علي حسنين: الدولة العربية الإسلامية، ط1، القاهرة، 1960م.

13 ـ الرفاعي، أنور: الإنسان العربي والحضارة، دار الفكر، بيروت، 1970م.

14 ـ أغناطيوس، يعقوب الثالث: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، مطبعة باب توما، دمشق، 1966م.

15 ـ العطار، محمد سعيد: التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن ـ أبعاد الثورة اليمنية، سلسلة العالم الثالث، المطبوعات الوطنية الجزائرية، ط1، نوفمبر 1965م.

16 ـ العارف، ممتاز: الأحباش بين مأرب وأكسوم ـ لمحة تاريخية في العلاقات العربية الحبشية ونشوء إثيوبيا الحديثة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1975م.

17 ـ العودي، حمود: المجتمع اليمني ـ بحث في التكوين الاجتماعي والاقتصادي في اليمن القديم ومتغيراته المختلفة، إصدار جامعة عدن ـ دار الهمداني، عدن.

18 ـ التراث الشعبي في التنمية في البلاد النامية ـ دراسة تطبيقية في المجتمع اليمني، ط2، عالم الكتب، القاهرة، 1981م.

19 ـ إيفانوف، نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 ـ 1574م، ترجمة يوسف عطا الله، سلسلة تاريخ المشرق العربي ـ3 ـ، دار الفارابي، ط1، بيروت، 1988م.

20 ـ الشماحي، القاضي عبدالله بن عبدالوهاب: اليمن ـ الإنسان والحضارة، دار الكلمة، صنعاء، ط3، 1985م.

21 ـ الرؤوف، عصام الدين عبد (دكتور): اليمن في ظل الإسلام " منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول"، دار الفكر العربي، ط1، 1982م.

22 ـ العاقل، نبيه (دكتور): الإمبراطورية البيزنطية ـ في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري، دار دمشق، 1966م.

23 ـ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، دمشق، ط3، بدون تاريخ.

24 ـ الثور، عبدالله بن أحمد: مختصر من تاريخ اليمن، دار الهناء للطباعة، 1983م.

25 ـ هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، ط2، 1979م.

26 ـ أحمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، مجموعة أجزاء، نسخة مصورة ليس عليها بيانات أخرى.

27 ـ أحمد، مصطفى أبو ضيف (دكتور): دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1982م.

28 ـ أدهم، علي: الهند والغرب، سلسلة اخترنا لك (15)، دار المعارف بمصر، سنة الطبع.

29 ـ السقاف، عبدالرحمن عمر عبدالرحمن: تطور المعرفة التاريخية لحضارة اليمن القديم، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عدن، ، 2001م، غير منشورة.

30 ـ السياغي، حسين أحمد: معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ط1، 1980م.

31 ـ العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط2، 1980م.

32 ـ الناصري، سيد أحمد علي: فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1982م.

33 ـ العالم، محمود أمين وآخرون: دراسات في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1985م.

34 ـ العمري، حسين عبدالله وآخرون: في صفة بلاد اليمن عبر العصور ـ من القرن السابع ق.م إلى نهاية القرن التاسع الميلادي، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 1990م.

35 ـ العلوي، هادي: في الدين والتراث، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1973م.

36 ـ الاغتيال السياسي في الإسلام، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، توزيع دار الفارابي، ط1، 1987م.

37 ـ الترمايني، عبدالسلام: أزمنة التاريخ الإسلامي، الجزء الأول، المجلد الثاني، مراجعة وتحقيق د. شاكر مصطفى ود. أحمد مختار العبادي، الكويت، ط1، 1982م.

38 ـ الغساني، عبدالقادر: أرض اللبان في سلطة عمان، وزارة التراث والفنون والثقافة، سلطنة عمان، بدون تاريخ.

39 ـ الشاطري، محمد بن أحمد بن عمر: أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط2، 1403هـ/ 1983م.

40 ـ الشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد (دكتور): النظم الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ط1، 1989م.

41 ـ اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987م.

42 ـ تاريخ اليمن في الإسلام ـ حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1 ـ 1987م، ط2 ـ 1994، ط3 ـ 1999م، دار الفكر، دمشق ـ صنعاء.

43 ـ الشيبة، عبدالله حسن (دكتور): دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر، ط1، تعز، 2000م.

44 ـ الشرجبي، قائد: القرية والدولة في المجتمع اليمني، دار التضامن، ط1، بيروت، 1990م.

45 ـ الإرياني، مطهر علي: في تاريخ اليمن ـ شرح وتعليق على نقوش لم تنشر ـ34 ـ مجموعة القاضي علي عبدالله الكهالي.

46 ـ القرحي، ميلاد: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ـ من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، ليبيا، 1995م.

47 ـ أكاديمية العلوم في الإتحاد السوفيتي: دراسات في تاريخ الثقافة العربية ـ القرون 5 ـ 15، ترجمة أيمن أبو شعر، دار التقدم، موسكو، 1989م.

48 ـ المصري، حسين نجيب (دكتور): صلات بين العرب والفرس والترك ـ دراسة تاريخية وأدبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969م.

49 ـ النبراوي، فتحية عبدالفتاح: علم التاريخ ـ دراسة في مناهج البحث، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الإسكندرية، 1993م.

50 ـ النبراوي، فتحية وآخرون: مناهج البحث في علمي التاريخ والسياسة، الإسكندرية، 1982م.

51 ـ النجار، حسين فوزي: التاريخ والسير، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1964م.

52 ـ النجار، عامر: الخوارج.. عقيدة.. فكر.. فلسفة، دار المعارف، ط3، 1990م.

53 ـ النشار، علي شامي: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1978م.

54 ـ النقيب، خلدون حسن: المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1985م.

55 ـ اوسيبيوس ـ لانجلو مارس ـ بول كنت امانويل: النقد التاريخي، ترجمها عن الفرنسية والألمانية عبدالرحمن بدوي، ط4، 1981م، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت.

56 ـ اتكن، هيوج: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة د. محمود زايد، تقديم قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، بيروت، 1963م.

57 ـ الشامي، أحمد بن محمد: دامغة الدوامغ، من مطبوعات معهد الإمام الهادي للتأليف والنشر (1)، 1966م.

58 ـ أمين، أحمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، 1969م.

59 ـ أبو ذؤيب، إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ط1 ـ 1982م.

60 ـ بافقيه، محمد عبدالقادر (دكتور): تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985م.

61 ـ في العربية السعيدة ـ دراسات تاريخية قصيرة، جزءان، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988م و1990م.

62 ـ المستشرقون وآثار اليمن، جزءان، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988م.

63 ـ بافقيه، محمد عبدالقادر آخرون: مختارات من النقوش اليمنية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985م.

64 ـ بافقيه، عيدروس: جغرافية الجمهورية اليمنية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 1997م.

65 ـ براستد، جايمس هنري: العصور القديمة، نقله للعربية داؤود قربان، مؤسسة عزالدين، بيروت، 1983م.

66 ـ بلاي فير، إف. إل: تاريخ العربية السعيدة أو اليمن، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان وآخرون، ط1، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، 1999م.

67 ـ بيستون، وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، مكتبة لبنان، بيروت، ونشريات بيترز لوفان الجديدة، 1982م.

68 ـ تيزيني، طيب: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ـ المرحلة الأولى، دار دمشق للطباعة، بدون تاريخ.

69 ـ ترسيسي، عدنان: اليمن وحضارة العرب ـ دراسة جغرافية كاملة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

70 ـ توما، أميل: العملية الثورية في الإسلام، دار الفارابي، ط1، بيروت، 1981م.

71 ـ باشا، أحمد فؤاد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1983م.

72 ـ باقر، طه وآخرون: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، 1980م.

73 ـ باوزير، سعيد عوض: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديث، القاهرة و1961م.

74 ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي، بيروت، 1979م.

75 ـ بدوي، عبدالرحمن: مناهج البحث العلمي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1977م.

76 ـ بيغوليفسكيا، نيغوفكتوريا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، 1985م.

77 ـ بيوتروفسكي، م. ب: اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة ـ القرن الرابع حتى العاشر الميلادي، تعريب محمد الشعيبي، دار العودة، بيروت، ط1، 1978م.

78 ـ جلوب، جون: إمبراطورية العرب، نسخة مصورة ليس عليها بيانات أخرى.

79 ـ حتي، فيليب: تاريخ العرب (المطول)، جزءان، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ط4، 1965م.

80 ـ حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ ج1 ـ الدول العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس (1 ـ132هـ/ 622 ـ 749م). مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط9، 1975م.

81 ـ حسين، طه: تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول ـ العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م.

82 ـ كتاب إسلاميات، ط1، 1971م.

83 ـ على هامش السيرة، إصدار وزارة التربية والتعليم بمصر، ط1، 1970م.

84 ـ حنا، جورج: الحقيقة الحضارية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1958م.

85 ـ الإنسان العربي ـ قديمه وحديثه، بيروت، دار العلم للملايين، 1964م.

86 ـ خالد، خالد محمد: خلفاء الرسول، نسخة مصورة ليس عليها بيانات أخرى.

87 ـ خليل، محمد رشاد: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ، القاهرة، 1991م.

88 ـ دويدار، أمين: صور من حياة الرسول، نسخة مصورة ليس عليها بيانات أخرى.

89 ـ رودكاناكيس، لنكولوس: الحياة العامة للدول العربية الجنوبية، ترجمة فؤاد حسنين، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1958م.

90 ـ روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، بغداد، 1963م.

91 ـ ريجنس، بلاشير: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، القاهرة، بدون تاريخ.

92 ـ ريسلر، جاك: الحضارة العربية، منشورات عويدات، ط1، بيروت، 1993م.

93 ـ ريمون، اندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ط1، القاهرة ـ باريس، 1991م.

94 ـ رينوفان، بيير: تاريخ العلاقات الدولية 1815 ـ 1914م، ترجمة د. جلال يحيى، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

95 ـ زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، بدون تاريخ.

96 ـ تاريخ أدب اللغة العربية، الجزء الأول، سنة الطبع، بدون تاريخ.

97 ـ زيود، محمد أحمد: تاريخ العرب والإسلام ـ منذ ما قبل الإسلام وحتى القرن السابع الهجري، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1995م.

98 ـ سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ الدولة العربية ـ تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية وحتى سقوط الدولة الأموية، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م.

99 ـ دراسات في تاريخ العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984م.

100 ـ تاريخ العرب في العصر الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971م.

101 ـ سرور، محمد جمال الدين: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، ط4، دار الفكر، 1973م.

102 ـ شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، ط1، 1963م.

103 ـ تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، مطبعة الكيلاني، 1968م.

104 ـ شكري، محمد سعيد: الأوضاع القبلية في اليمن، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة دمشق ـ سوريا ـ لعام 1986م، غير منشورة.

105 ـ شلبي، أحمد: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط5، 1970م.

106 ـ شلبي، رؤوف: المجتمع العربي قبل الإسلام ـ دراسة في مرحلة التمهيد للدعوة، دار الكتب الحديثة، مطبعة حسان، القاهرة، 1977م.

107 ـ سليمان، حسين محمد: المدخل إلى دراسة علم التاريخ، ، دار الإصلاح للنشر والتوزيع، الدمام، 1404هـ.

108 ـ شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري، لجنة نشر الكتاب اليمني ـ عدن، دار الفارابي، بيروت، 1977م.

109 ـ الشيخ، عبدالرحمن عبدالله: المدخل إلى علم التاريخ، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 1994م.

110 ـ شيندروف، فلاديمير: اليمن مشاهدات وانطباعات، ترجمة سعيد محمد عبده، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، 1983م.

111 ـ صالح، أحمد عياش: اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3، 1979م.

112 ـ ضرار، صالح ضرار: العرب من معين إلى الأمويين، الدار السودانية للكتب، بدون.

113 ـ ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، ط6، دار المعارف بمصر، 1974م.

114 ـ عابدين، عبدالمجيد: الحبشة والعرب، دار الفكر، القاهرة، بدون تاريخ.

115 ـ عثمان، حسن: منهج البحث التاريخي ـ نظم التعليم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط4، بدون سنة الطبع.

116 ـ عصفور، محمد أبو المحاسن: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

117 معالم حضارات الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1984م.

118 ـ عطية الله، أحمد: القاموس الإسلامي، ج1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.

119 ـ علوب، عبدالوهاب وفياض، علي أكبر: تاريخ الجزيرة العربية والإسلام، مركز النشر لجامعة القاهرة، ط1، القاهرة، 1993م.

120 ـ علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 8 أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1969 ـ 1978م.

121 ـ غويدي، أغناطيوس: محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة وتقديم إبراهيم السامرائي، دار الحداثة، ط1، 1986م.

122 ـ فاطمة الصافي: الأخدود ونجران القديمة، نسخة مصورة، ليس فيه أي بيانات.

123 ـ فخري، أحمد: اليمن ماضيها وحاضرها، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1957م.

124 ـ فرح، وسام عبدالعزيز: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من 334 ـ1025م، الإسكندرية، مايو1982م.

125 ـ فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم، الجزء الأول، دار العلم للملايين، ط5، يونيو1984م.

126 ـ العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1968م.

127 ـ تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1964م.

128 ـ كلمة في تعليل التاريخ، ط2، بيروت، 1972م.

129 ـ فلندرز بتري، سير. و. م: الحياة الاجتماعية في مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر ـ عبدالمنعم عبدالحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون.

130 ـ فيشر، هيربرت: أصول التاريخ الأوروبي الحديث ـ من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبدالرحمن مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، بدون تاريخ.

131 ـ فيصل، شكري: المجتمعات الإسلامية في القرون الأولى ـ نشأتها ـ مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1952م.

132 ـ فيليبس، وندل: كنوز مدينة بلقيس ـ قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب عمر الديراوي، دار نوبا للطباعة، 1985م.

133 ـ قاسم، عبده قاسم: الرواية الحضارية للتاريخ ـ قراءة في التراث التاريخي العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1983م.

134 ـ قاسم، جمال زكريا: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، القاهرة، 1975م.

135 ـ قنصوه، صلاح: الموضوعية في العلوم الإنسانية ـ عرض نقدي لمناهج البحث، بدون.

136 ـ كاشف، سيد إسماعيل: مصر في عهد الولاة، القاهرة، بدون تاريخ.

137 ـ كامل، محمد: اليمن شماله وجنوبه ـ تاريخه وعلاقته الدولية، دار بيروت، بيروت، 1968م.

138 ـ كربيشانوف، يوري ميخايلوفتش: الشمال الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية ـ من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1988م.

139 ـ كريستين: آرثر: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1957م.

140 ـ الكهالي، علي صالح: الحياة السياسية والدينية في اليمن القديم والحجاز ـ القرن الرابع حتى السادس الميلادي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عدن، 2001م، غير منشورة.

141 ـ لبيب، يونان وآخرون: تاريخ أوروبا في عصر الإمبريالية، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1972م.

142 ـ لاندو، روم: الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، نسخة مصورة بدون معلومات.

143 ـ لينين: موجز تاريخ حياته، دار التقدم، موسكو، 1969م.

144 ـ ماجد، عبدالمنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، القاهرة، 1982م.

145 ـ مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، 1953م.

146 ـ المركز اليمني للأبحاث الثقافية: نتائج أعمال البعثة السوفيتية 1984م.

147 ـ المركز اليمني للأبحاث الثقافية: حضرموت القديمة والمعاصرة، الأبحاث الميدانية، ج2، 1987م.

148 ـ مخزوم، علي: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي في عصر النهضة، بدون.

149 ـ مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج1، ط4، دار الفارابي، بيروت، 1987م.

150 ـ مقبل، سيف علي: دراسات في التاريخ اليمني، مطابع دار الهمداني للطباعة والنشر، ط1، 1988م.

151 ـ وحدة اليمن تاريخياً، دار الحقائق، ط1، بيروت، 1987م.

152 ـ منقوش، ثريا: قضايا تاريخية وفكرية من اليمن، مطابع الكرمل، ط1، 1979م.

153 ـ سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980م.

154 ـ التوحيد في تطوره التاريخي ـ التوحيد يمان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1977م.

155 ـ موافي، عثمان: منهج النقد التاريخي ـ الإسلامي والمنهج الأوروبي، بدون.

156 ـ موسى، سانت. ل. ب ك: ميلاد العصور الوسطى395 ـ 814م، ترجمة عبدالعزيز توفيق، مراجعة د. الباز العريني، عالم الكتب، الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، 1967م.

157 ـ موسى، سلامة: مصر أصل الحضارة، المطبعة العصرية بمصر، سنة الطبع بدون.

158 ـ موسكاتي، سبتينو: الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، 1986م.

159 ـ ميجويف، فاديم: الحضارة والتاريخ، ترجمة دار التقدم، موسكو، 198م.

160 ـ نصّار، حسين: نشأة التدوين التاريخي، مطبعة السعادة، مصر، بدون تاريخ.

161 ـ نفتش، جرياز وآخرون: التجارة والطرق التجارية في حضرموت القديمة، ج1، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، سيئون، 1988م.

162 ـ نور الدين، عبدالحليم: مقدمة في الآثار اليمنية، منشورات جامعة صنعاء، بدون.

163 ـ هاردينج، لانكستر: آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، بدون.

164 ـ هرنشو: علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م.

165 ـ هانسن، توركيل: من كوبنهاجن إلى صنعاء ـ عن مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب للدكتور عبدالعزيز المقالح، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي، دار العودة، بيروت، 1983م.

166 ـ هبّو، أحمد أرحيّم: تاريخ العرب قبل الإسلام (السياسي والحضاري) منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1996م.

167 ـ هيكل، محمد حسين: حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.

168 ـ وات، منتغمري: الفكر السياسي الإسلامي، المفاهيم الأساسية، ترجمة صبحي حديدي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981م.

169 ـ وجدي، محمد فريد: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

170 ـ يحيى، جلال: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1983م.

171 ـ يحيى، لطفي عبدالوهاب: العرب في العصور القديمة ـ مدخل حضاري إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1 ـ 1979م، وط3 ـ 1986م.

ثالثاً

الدوريات

1 ـ إبراهيم الصلوي: القيل، الموسوعة اليمنية، ج2، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، 1992م.

2 ـ أعلام يمنية قديمة مركبة ـ دراسة في دلالاتها اللغوية والدينية، مجلة دراسات يمنية، عدد 38، صنعاء، 1989م.

3 ـ أسمهان سعيد الجرو: تاريخ ألأودية وأثرها في تطور النهضة الزراعية، مجلة سبأ، العدد4، اكتوبر1988م.

4 ـ المبدأ الأخلاقي لحقوق الإنسان في الديانة اليمنية القديمة، مجلة سبأ، العدد9، ديسمبر 2000م.

5 ـ القاضي إسماعيل الأكوع: لمحة تاريخية عن صنعاء، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الخامس، 1981م.

6 ـ ثريا منقوش: سليمان فتنته سبأ جمالها والخيرات، مجلة الحكمة، العدد 65 ـ 66، السنة الثامنة، 1977م، عدن.

7 ـ دولة معين اليمنية، مجلة الحكمة، العدد 45، السنة الرابعة، سبتمبر 1975م، عدن.

8 ـ جاك ريكمانس: حضارة اليمن قبل الإسلام، ترجمة علي محمد زيد، دراسات يمنية، العدد28، 1987م، صنعاء.

9 ـ جاكلين بيرن: الفن في منطقة الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام، ترجمة محمود داؤود، دراسات يمنية، العدد 23 ـ 24، 1986م، صنعاء.

10 ـ جواد علي: أحاديث تبع، مجلة الحكمة، يناير ـ مارس 1979م، العدد 78، السنة التاسعة، عدن.

11 ـ أصول الحكم عند العرب الجنوبيين، مجلة الحكمة، ابريل ـ يونيو 1979م، العدد 79، السنة العاشرة، عدن، ومجلة المجمع العلمي العراقي، ج2، بغداد، 1980م.

12 ـ حسين قاسم عزيز: التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام، مجلة الكلمة، صنعاء، العدد 43، مايو ـ يونيو 1977م.

13 ـ حول النظام البرلماني لليمن القديم، مجلة الثقافة الجديدة، عدن، العدد12، السنة الثالثة، ديسمبر 1974م.

14 ـ حسين محمد ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات اليمنية ـ جامعة عدن، العدد 15، مايو 2000م.

15 ـ حسين فوزي النجار: الفكر والواقعية في التاريخ، مجلة الفكر المعاصر، العدد 2، القاهرة، 4/ 1965م.

16 ـ حسين مؤنس: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة ـ 1 ـ، الكويت.

17 ـ خالد بن محمد القاسمي: مسيرة الوحدة اليمنية في عصورها القديمة،

مجلة الثقافة الجديدة، عدن، العدد 4، أغسطس 1986م، السنة السادسة عشر.

18 ـ زاهر الجيزاني: المفهوم القومي العربي من الوصف التاريخي إلى الأيدولوجيا 1952 ـ 1967م، مجلة دراسات يمنية، العدد 43، 1991م.

19 ـ زيد علي عنان: حضارة اليمن القديم، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1980م.

20 ـ سيف علي مقبل: حادثة الأخدود في نجران القديمة، الثقافة الجديدة، السنة السابعة، العدد5 ـ 6، 1978م، عدن.

21 ـ حقيقة الصراع اليهودي المسيحي في اليمن القديم، مجلة الحكمة، ، عدن، العدد 65 ـ 66، السنة الثامنة، نوفمبر ـ ديسمبر 1977.

22 ـ سلطان ناجي: عدن عبر التاريخ: مجلة الإكليل، صنعاء، العدد 2 ـ 3، السنة الثانية، 1983م.

23 ـ دراسة تاريخية منشورة في " مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، المجلد 15، تحت اسم: طبيعة النظام الملكي في الحضارة اليمنية القديمة، تعريب وتلخيص سلطان ناجي، مجلة الحكمة، عدن، العدد 34، السنة الرابعة، سبتمبر 1974م.

24 ـ شايف عبده سعيد: اليمن لدى الجغرافيين العرب في العصور الوسطى، دراسات يمنية، العدد 29، يوليو ـ أغسطس 1987م.

25 ـ الحياة الاقتصادية في اليمن لدى الجغرافيين العرب، دراسات يمنية، العدد 41، يوليو ـ أغسطس 1990م.

26 ـ صادق عبده علي: خصائص النظام الاقتصادي الاجتماعي في اليمن القديم، الثقافة الجديدة، عدن، العددان 4 ـ5، مايو ـ يونيو1988م، السنة الثامنة عشر.

27 ـ المقاومة الشعبية للغزو الحبشي على المنطقة اليمنية، الثقافة الجديدة، عدن، العدد6، يوليو 1988م، السنة الثامنة عشر.

28 ـ صالح باصرة: محاضرات في التاريخ اليمني ـ القديم، الوسيط ـ ج1، كلية التربية صبر، 1983م.

29 ـ عبدالرحمن الحضرمي: اليمن من التفكك السياسي إلى قيام ثورة سبتمبر، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، العدد الخامس، 1981م.

30 ـ صنعاء: موقعها في تاريخ اليمن العام، اليمن الجديد، نسخة مصورة ليس فيها أي بيانات.

31 ـ تهامة في التاريخ، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1980م.

32 ـ عبدالرزاق الأنباري: موقف الحضارة الإسلامية من الظلم، مجلة سبأ، العدد 8، 1999م.

33 ـ علي محمد زيد: النظرية السياسية في فكر الهمداني، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الثالث، 1981م.

34 ـ محمد عبدالقادر بافقيه: الأقيال والأذواء، مجلة اليمن الجديد، العدد الثاني، السنة السادسة عشر، فبراير1987م.

35 ـ قتبان، الموسوعة اليمنية، ج2، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، 1992م.

36 ـ أبرهة تبعاً، دراسات يمنية، العدد25 ـ 26، صنعاء، 1986م.

37 ـ محمد كريم إبراهيم: التطور العمراني لمدينة عدن خلال العصر الأيوبي، مجلة سبأ، العدد 5، عدن، 1989م.

38 ـ عفيف بهنسي: الفن العربي قبل الإسلام، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1980م.

39 ـ محمد زهير البابا: اليمن والفلاحة العربية قبل الإسلام، مجلة الإكليل، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، صنعاء، السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1980م.

40 ـ محمد بن يحيى الحداد: الوحدة السياسية في اليمن الطبيعية عبر التاريخ، مجلة الحكمة، عدن، العدد14، السنة الثانية، 15 يوليو 1972م.

41 ـ حوار تاريخي حول أصالة الثقافة والفنون في اليمن القديم، مجلة اليمن الجديد، العدد الأول، السنة السادسة عشر، صنعاء، يناير 1978م.

42 ـ وضع اليمن العام في تاريخه القديم، مجلة الحكمة، العدد 97، السنة الحادية عشر، فبراير ـ مارس 1982م.

43 ـ محمد بن علي الأكوع: وصف صنعاء القديمة، مجلة الإكليل، العدد 2 ـ3، السنة الثانية، صنعاء، 1983م.

44 ـ قصيدة البحر النعامي للأشهر الحميرية وما يوافقها من أغذية، مجلة الإكليل، العدد 2، السنة الأولى، صنعاء، 1980م.

45 ـ عزالدين كشار: لمحات من التاريخ اليمني، دار الهمداني سلسلة آفاق المعرفة (11)، عدن، ط1، 1984م.

46 ـ تطور الوعي الديني في اليمن من أبسط أشكاله حتى التوحيد، مجلة الثقافة الجديدة، ، السنة الخامسة عشرة، عدن، العدد 5، . 1985

47 ـ تطور الوعي الديني في اليمن، مجلة الثقافة الجديدة، ، دار الهمداني، عدن، العدد 5، . 1985

48 ـ هادي العلوي: النظام البرلماني في اليمن القديم، مجلة الثقافة الجديدة، السنة الثالثة، عدن، العدد 11، 1974، .

49 ـ هشام محسن السقاف: الإسماعيلية في الميزان، مجلة سبأ، العدد 10، يوليو 2002م.

50 ـ فاخر العاقل: المدرسة الحديثة، مجلة العربي، العدد 166، الكويت، 9/ 1972م.

51 ـ فرايا ستارك: البوابات الجنوبية لبلاد العرب، ترجمة محمد علي باحشوان، مجلة اليمن، العدد 2، جامعة عدن، 1990م.

52 ـ فوزي مكاوي: أضواء جديدة على العلاقات بين مملكة أكسوم وممالك جنوب الجزيرة العربية خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد12، السنة الثالثة، أكتوبر1977م.

53 ـ عبدالحليم نور الدين: ملامح الفن اليمني القديم رسم ـ نحت ـ نقوش، مجلة اليمن الجديد، العدد 7، السنة 14، أكتوبر 1985م.

54 ـ أبو العيون بركات: تمثال من البرونز في جامعة صنعاء، مجلة الإكليل، صنعاء، العدد الأول، السنة الخامسة، 1987م.

55: اليمن وعلاقتها بدول الشرق الأدنى القديم في عصر ما قبل الإسلام، مجلة اليمن الجديد، العدد 3، السنة 16، مارس 1982م.

56 ـ محمد عبدالكريم عكاشة: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ليهود اليمن، مجلة سبأ، العدد6، عدن، 1992م.

57: مقاومة الغزو الحبشي لليمن، مجلة الحكمة، عدن، العدد الخامس، سبتمبر 1971م.

58 ـ محمد حسين الفرح: علاقة اليمن بالحبشة، مجلة اليمن الجديد، صنعاء، العدد 4، السنة 16، أبريل 1987م.

59 ـ عبدالله باوزير: مشروع كتاب تاريخ تطور المجتمع اليمني ـ تاريخ اليمن القديم، شارك في التأليف مجموعة من أساتذة قسم التاريخ كلية التربية العليا، جامعة عدن، 1990م.

60 ـ عبده عثمان غالب: عرض موجز لتاريخ الآثار اليمنية، دراسات يمنية، العدد 25 ـ 26، ديسمبر 1986م.

61 ـ خالد عبدالجليل: محاضرات في تاريخ اليمن القديم، إصدار المدرسة العليا للاشتراكية العلمية، عدن، كرسي التاريخ اليمني.

62 ـ فاروق عثمان أباظة: التدخل الأجنبي في اليمن في نهاية عهد حضارته القديمة وموقف الشعب اليمني إزاءه، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 16، أكتوبر 1978م.

63 ـ بيوتروفسكي م. ب: الأقيال والقبائل، بدون.

64 ـ جعفر الظفاري: عقدة اللون الأسود ومسألة الوجود الفارسي في اليمن بعد الإسلام (1)، الثقافة الجديدة، عدن، العدد3، مارس 1974م.

65 ـ عقدة اللون الأسود ومسألة الوجود الفارسي في اليمن بعد الإسلام (2)، الثقافة الجديدة، العدد4، عدن، 1974م.

66 ـ عبدالعزيز المقالح: صنعاء القديمة ـ صور وصفية من الذاكرة، مجلة الإكليل، العدد 2 ـ 3، السنة الثانية، صنعاء، 1983م.

67 ـ علي محمد الصليحي: الكيان السياسي والديني في اليمن القديم، دراسات يمنية، العدد38، صنعاء، 1989م.

68 ـ كريستوفر تول: مصطلحات عربية في المعايير والأوزان من كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الخامسة، 1987م.

69 ـ محمد أحمد علي: أهم مصادر القانون الدولي الخاص في اليمن منذ ما قبل وضع التشريع المعاصر، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الخامسة، 1987م.

70 ـ مطهر بن علي الإرياني ذمار علي وابنه ثاران يعودان إلى صنعاء، مجلة الإكليل، العدد 2 ـ3، السنة الثانية، 1983م.

71 ـ محمد عبدالله باسلامة: مدخل إلى المسكوكات اليمنية القديمة، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الخامسة، 1987م.

72 ـ منذر عبدالكريم البكر دراسة في الميثولوجيا العربية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، العدد 30، الكويت، 1988م.

73 ـ يوسف محمد عبدالله: أوراق من تاريخ اليمن القديم وآثاره ـ بحوث ومقالات، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء ودار التنوير للطباعة والنشر، ج1، ط1، 1984، ج2، 1985 م.

74 ـ شكل الدولة في اليمن القديم، مجلة اليمن الجديد، العدد 3، صنعاء، 1980م.

75 ـ تسمية اليمن باليمن، مجلة اليمن الجديد، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، العدد 5، السنة الرابعة عشر، أغسطس 1985م.

76 ـ صنعاء المدينة العربية ألإسلامية، مجلة الإكليل، العدد 2 ـ3، السنة الثانية، 1985م.

77 ـ أ. ج. لوندن: ثقافة العربية الجنوبية في القرن السادس، الثقافة الجديدة، العدد 2، السنة السابعة عشر، 1987م.

78 ـ تطور نظام الدولة السبئية، تعريب أبو بكر السقاف، مجلة اليمن الجديد، العدد (1)، السنة السادسة عشر، يناير 1987م.

79 ـ دولة مكربي سبأ، ترجمة قائد طربوش، مجلة الإكليل، العدد 23، صنعاء، 1995م.

80 ـ اليمن إبّان القرن السادس بعد الميلاد، الحلقة الثانية ـ حملة الأحباش الثانية ـ ترجمة محمد علي البحر، مراجعة محمد أحمد علي، مجلة الإكليل، العدد (1)، صنعاء، ربيع 1989م.

81 ـ اليمن إبّان القرن السادس بعد الميلاد، الحلقة الثالثة ـ ترجمة محمد علي، مجلة الإكليل، العدد (2)، صنعاء، صيف 1989م.

82 ـ اليمن إبّان القرن السادس بعد الميلاد، الحلقة الرابعة، مجلة الإكليل، العدد 20 و21، صنعاء، 1990م.

83 ـ أ. ج. لوندن وج. م. باوير: تاريخ اليمن القديم ـ جنوب الجزيرة العربية في أقدم العصور، ترجمة أسامة أحمد، دار الهمداني، عدن، سلسلة آفاق المعرفة (12)، ط1، 1984م.

84 ـ مجلة ريدان ـ حولية الآثار والنقوش اليمنية، العدد الأول، تصدر عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، طبعت على مطابع منشورات بيترز، لوفان، بلجيكا، 1978م.

85 ـ مجلة ريدان ـ حولية الآثار والنقوش اليمنية، العدد الثالث، تصدر عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، طبعت على مطابع منشورات بيترز، لوفان، بلجيكا.

86 ـ مطاع الطرابيشي: عمرو بن معد كرب الزبيدي بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الأولى، 1980م.

87 ـ ناجي جعفر بن مرعي الكثيري: الهجرات اليمنية الأولى إلى شرق إفريقيا ـ دراسة في تاريخ الهجرة اليمنية قديماً إلى شرق إفريقيا حتى ظهور الإسلام، مجلة سبأ، العدد 10 ـ11، يوليو 2002م.

88 ـ نزار عبداللطيف الحديثي: مشكلات دراسة تاريخ اليمن، مجلة سبأ، العدد 8، ديسمبر 1999م.

المؤلف في سطور

* الاسم: د. صادق عبده علي قائد.
* مواليد: 29/ 4/ 1956م.
* متزوج وله أربعة أبناء.
* حاصل على شهادة الثانوية العامة من ثانوية الجلاء، خورمكسر 1975م.
* حاصل على شهادة البكالوريوس من قسم التاريخ، كلية التربية العليا، جامعة عدن عام 1980م.
* حاصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة العلوم، جمهورية المجر، عن أطروحته: الحركات السياسية والاجتماعية في اليمن ما بين 1948 ـ 1962م.
* حاصل على شهادة دكتوراه في العلوم السياسية من المعهد العالي للعلوم السياسية، جمهورية المجر، عن أطروحته: حركة التحرر الوطني في جنوب اليمن بقيادة الجبهة القومية ما بين 1963 ـ 1967م.
* حاصل على شهادة دكتوراه من معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2001م.
* يعمل حالياً محاضراً في قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عدن.
* له العديد من المؤلفات:

ـ الحركات السياسية والاجتماعية في اليمن 1918 ـ 1967م، صدرت الطبعة الأولى منه عام 1988م، عن دار الهمداني، عدن، والطبعة الثانية عن دار الثقافة العربية، الشارقة، دار الكتاب الحديث، بيروت، عام 1992م.

* ـ اليمن الجنوبي والقرن الإفريقي 1967 ـ 1978م، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2001م.

ـ التطور التاريخي للهوية الوطنية اليمنية (في التاريخ القديم وعصر الإِسلام).

ـ التطور التاريخي للهوية الوطنية اليمنية (منذ بداية التاريخ الحديث حتى قيام الجمهورية اليمنية).

ـ العولمة والتحديات الاقتصادية والحضارية في الوطن العربي "اليمن نموذجاً".

* نشر له العديد من الدراسات والبحوث في عدد من المجلات والصحف اليمنية.

* قدم عدداً من البرامج في إذاعة وتلفزيون عدن ما بين 1988 ـ 1989م، بعنوان: "شخصيات تاريخية يمنية" و"دروس من التاريخ"، تحت إشراف قسم التاريخ، كلية التربية العليا، جامعة عدن.

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

الباب الثاني
الهوية السياسية والحضارية لليمن في عصر الإسلام